

إلاف كتاب

الجغرافيا توجه التاريخ

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم
الأقليم الجنوبي

الألف كتاب

الجغرافيا تربية الناحج

تأليف

جمهورية (البرت)

استاذ الجغرافيا التاريخية جامعة لندن

مراجعة

الدكتورة دولت أحمد صادق

الأستاذة المساعدة بجامعة عين شمس

ترجمة

الدكتور جمال الدين الدناصوري

مدرس الجغرافيا بجامعة القاهرة

دار الهلال

هذا الكتاب ترجمة :

The
Geography Behind
History

by

GORDON EAST

تقديم

بقلم الدكتورة دولت صادق

قام مؤلف هذا الكتاب الاستاذ جوردن ايسن ، أستاذ الجغرافيا التاريخية بجامعة لندن بدراسات متعددة في الجغرافيا التاريخية . ومن أهم كتبه « الجغرافيا التاريخية لاوروبا » وكتاب « الجغرافيا .. توجه التاريخ » وفي كتابه « الجغرافيا .. مغزاها وممرها » بين بوضوح أيضا العلاقة بين التاريخ والجغرافيا

ويعتبر كتاب « الجغرافيا .. توجه التاريخ » أشمل مؤلف تناول عناصر الجغرافيا التاريخية .. حقيقة أن هناك جملة من البحوث والمقالات تناولت بعض موضوعات الجغرافيا التاريخية ، كموضوع المدن ونشأتها ، أو موضوع الحدود .. ولكن هذا الكتاب يمتاز بجمعه لكثير من هذه البحوث المتفرقة ، ومحاولة التوفيق بينها ، وإظهار أهمية ارتباط الدراسات التاريخية بالدراسات الجغرافية ، وأن كلا منهما يستطيع التماس الضوء من الآخر .. بل ويتحتم عليها أن تفعل ذلك في مشاكل معينة ، فالجغرافي الذي يدرس الحاضر يجد نفسه دائما أمام مشاكل لا يستطيع أن يفسرها ويعلمها ، والتاريخ وحده قد يملك حلها



كذلك التاريخ ، أنه ليس استقصاء لأمور وأحداث عفى عليها الزمن .. بل انها تتعلق بمشاكل حاضرة في يد الماضي مفاتيحها . وقد ذكر ايسن في كتابه « الجغرافيا .. توجه التاريخ » أن دارس التاريخ يجب أن يغادر مكتبه وفي يده خريطة ، ليفهم العالم المحيط به ، الذي قد يعثر في أرجائه أحيانا على ما يلقي على الماضي ضوءا أقوى من الوثائق والسجلات الرسمية التي يستقى منها مادته . فهناك أذن علاقات متبادلة بين الجغرافيا والتاريخ حاول المؤلف إبرازها أثناء عرضه لفصول الكتاب المختلفة

مقدمة

بقلم الدكتور جمال الدين الدناصوري

صدر هذا الكتيب في مجموعة من الدراسات المبسطة أطلق عليها « كتب المناقشة » ، ولهذا فهي تستمد أهميتها ولا أقول تمتعتها وجدتها فحسب - من أن المؤلف ييسر الحديث في غير تكلف ولا تعقيد ، فلا يتعصب لرأى ولا يتحزب لمذهب . وقد اضطلع بتأليف هذا الكتاب الذي أسماه مؤلفه « الجغرافيا من وراء التاريخ » « غوردون أيست » أستاذ الجغرافيا التاريخية بجامعة لندن ، ارتاد تلك الشقة المجهولة بين ميدان بحث المؤرخ الذي يقصر دراسته على أعمال البشر طوال أحقاب التاريخ المتعاقبة ، وبين مجال دراسة الجغرافي الذي لا يستطيع أن يرفع باصريته عن الأرض محلقة في الفضاء أو متعمقا في باطن الأرض حتى يرتد الى سطح هذه الأرض ليشاهد ويدرس ويحلل ويوزع ما تنائر في أرجائها من ظاهرات الطبيعة ، وما حققه الإنسان من نجاح في استغلال أو تغيير هذه المظاهر على وجه من الوجوه . أن الجغرافية التاريخية تدرس « جغرافية » العصور الماضية سواء ما يتصل بها بما طرأ على الظروف الطبيعية : انسطح والمناخ ومظاهر التضاريس ونظام صرف المياه والحياتين النباتية والحيوانية ... من تطورات ، أو ما يتصل بأعمال الإنسان ونشاطه كأماكن سكناه ومحلات إقامته وحرفه وطرائق معيشته ، وما مده من طرق وما أصابه من ثروة وقوة وزيادة في العدد ، أو ماناله من ضعف وتخاذل أمام ما يواجهه من مشكلات ويتحدها من ظروف تستثير كامن قوته ومقدراته ، وهذه هي موضوعات هذا الكتاب



وقد تتابعت فصول الكتاب التسع في ترابط وتكامل : إذ قصر حديثه في الفصل الأول على تبيان الإواصر والعلاقات الوثيقة المتداخلة بين التاريخ بأحداثه وبين الأرض بمظاهرها ، التي تعد مسرح هذه الأحداث ومجالها ، فالجغرافيا - كما يذكر - وثيقة تاريخية لأبد للمؤرخ أن يعرف ما تنطوى عليه ليتسنى له إدراك مغزى ما يطالع من وثائقه التي خطها الإنسان بيديه ، فالجغرافيا تحدد الأماكن التي وقعت فيها الأحداث ، وما اكتنفها من ظروف وملابسات قد تؤثر - لا في اختيار موضع معين لحدوثها كالمواقع الحربية مثلا أو إقامة عاصمة أو مد طريق - ولكن أيضا في سير الأحداث ، ثم اردف محذرا

من أن يتبادر الى الذهن ان التاريخ وحده متحرك بضرب بالحياة ، فالظروف الطبيعية نفسها متغيرة كالموقع الجغرافي واهميته في قيام العلاقات بين الاماكن ، وهبوط الارض وطغيان البحر في مناطق السواحل أو ظهور بركان أو تراكم رواسب بعض الانهار حتى تظمر خلجانها فتختنق الملاحة فيها وتقل اهمية موانئها . . . كل ذلك يضيف الى تعقيد طبيعة العلاقات بين أعمال الناس وبيئاتهم وموطنهم من سطح الارض ، لان كليهما متطور متغير . . . فاحياء الماضي أو إعادة تصوير ماكان يسوده من ظروف ، ويعمره من سكان بألوان نشاطهم المتعددة من الضرورة بمكان لتفسير أحداث التاريخ ، ولكن اذا كانت يد الجغرافيا تؤثر في أعمال الانسان ومايجرى به تاريخه من أحداث ، فانه لا توجه ولا تملى عليه أن ينهج منهجا معينا ، وهكذا انتهى في الفصل الاول من ابراز أهمية دراسة المكان أو الظروف الجغرافية بالنسبة للمؤرخ الذي يجب ألا يغفل أن الزمان والمكان عنصران لا ينفصلان



ثم عالج المؤلف في انفصل الثاني من الكتاب الموقع الجغرافي وبين أن الموقع لا يعنى موضع المكان الفلكى على سطح الارض ، بل ولا بالنسبة لمظاهر الطبيعة من يابسة ومياه فحسب ، بل ينطوى على طبيعة الموقع بالنسبة لمراكز الحضارة ومواطن المدينة . . بل أن الموقع ليس فكرة مادية فحسب ، فاهميته لا تتغير بتغير توزيع اليابس والماء ولا بظهور حضارة ومراكز للقوة واضمحلال أخرى فقط ، ولكن الموقع قد يكون مايدركه الناس وما يتصورونه عن طبيعة مناطق قد تبدو غريبة عليهم ، ولذلك فللموقع امكانيات يتيحها قد يفيد الناس منها أو لا يفيدون في عصر من العصور



أما في الفصل الثالث ، فقد تناول تطور المناخ . . وهو موضوع شائك لم يتفق العلماء فيه على رأى ، فخلص من مناقشته لهذا الموضوع بأن المناخ عنصر متغير من عناصر البيئة ، وأنه يحكم اهميته البالغة في التأثير في حياة البشر لا بد لمن يتصدى لدراسة التاريخ القديم ألا يغفل أن الظروف المناخية قد تحمل في طياتها الضوء الذى قد يفسر ما غمض من أعمال الانسان . وقد انتهى الى رأى معتدل وهو أن المناخ قد تغير في العصر التاريخي ، وقد يكون قد اتخذ التغير في عنصر المطر صورة جفاف تدريجي ، أو تغير غير منتظم باختلاف المناطق والعصور التي نتناولها بالدراسة ، ويبدو أن المرجح أنه يجب ألا ننكر هذا التغير كما يجدر بنا ألا نبالغ في مقداره أو تأثيره في كل العصور وفي جميع البيئات ، ويرجح أن محاولة استنتاج أن نظاما عاما للمناخ بكل دقائقه كان يسود في عصر معين غير مقطوع بصحته حتى الآن

أما في الفصل الرابع فقد أبان عن أهمية الطرق وما تلعبه الظروف الطبيعية في تحديد هذه الطرق، أو الإيحاء للإنسان بانشائها واستخدامها ، وقد استرعى الانتباه الى الإبقاء على شبكات الطرق القديمة في العالم الروماني خلال العصور ، فلا زال الكثير مما أنشئ منها في أثناء الحكم الروماني لبريطانيا قائما يستخدم للآن ، مما يشير الى قيمة تأثير الظواهر الطبيعية في اتخاذ هذه الطرق وسائل لانتقال السلع والناس والأفكار والحضارات



أما في الفصل الخامس فقد عرض للمدن وظروف قيامها من طبيعة الموضع الذي نشأت فيه ، والعلاقات التي تربطها وموقعها في الإقليم الذي قامت فيه ، وفي البلاد التي نشأت فيها ، ثم في العالم المعمور الذي تتصل به في حياتها ونشاطها ، وقد أبان في وضوح أن هذه النواحي الجغرافية التي تطورت خلال التاريخ - كما يحدث حين يطمر خليج قامت عليه ميناء أو قلت أهمية مجرى مائي كعائق طبيعي - تفسر الى حد كبير أسباب قيام المدن ومنشئها وتطورها وما اضطلعت به من وظائف ، وما قامت به من خدمات لإقليمها وللعالم المحيط بها ، وقد حاول المؤلف أن يسوق أمثلة لمدن عديدة اضمحلت لأسباب تتصل بتغير الظروف الطبيعية للبقاع التي نشأت فيها ، ولكن توكيد أهمية هذا التغير اغفال لأهمية ما يطرأ على الظروف البشرية من تغيرات ربما كانت أكثر شيوعا وأبعد أثرا



أما الفصل السادس فقد عقده المؤلف على الحدود والتخوم بين الدول والوحدات السياسية ، وقد عني بأن يجلو تأثير ظروف الجغرافية الطبيعية في تخطيط الحدود السياسية ، فأسهب في دراسة طبيعة منطقة التخوم بين ويلز وإنجلترا ، وتتبع تأثير السطح ونظام تصريف المياه وما اتصل بذلك من تباين النظم الاقتصادية والثقافية والاتجاهات أو النزعات التاريخية ، وربما كان في تشبث الإنسان بتقاليده وثقافته واتجاهاته انشئ نمت وتطورت في عهد كان يتأثر بمقدار ما تتيحه الظروف الطبيعية له من أسباب الاتصال أو تعيقه - ما يفسر « الاتفاق » بين الحدود السياسية في بعض الدول وبين ظاهرات الطبيعة التي لا تقف الآن حائلا في أكثر الأحيان دون ربط الجهات الواقعة على جانبيها مهما كانت عاتية



أما في الفصل السابع فقد حاول المؤلف أن يبين أن طرق معيشة الإنسان وحركته ليست وليدة الظروف الطبيعية التي تملئها ، لان أفكاره وعاداته وحاجاته ورغباته ونزعاته وأهواءه ، جميعا توجهه .. ولكنه لم ينكر الامكانيات

التي تتيحها الظروف الطبيعية للإنسان ، فيتسع مجال اختياره لحرفته أو يضيق تبعا لسخاء الطبيعة أو شحها ، وإن كان في كل حالة يحتاج الى جهود وتجارب لكي يفيد منها . وخلص من ذلك الى أن توزيع أنواع الغلات لا يمكن أن تفسره الظروف الطبيعية وحدها ، فعادات ، وتقدم ، وكثافة ، وعقائد السكان كل له تأثيره



وفي الفصل الثامن ، حاول المؤلف أن يريح الستار عن أسباب قيام الحضارات العريقة بدراسة ما اكتنف قيامها من ظروف، وطبيعة البيئات التي نشأت فيها ، لعله يظفر بجواب شاف عن البواعث لاقامة الحضارة والظروف التي تقودها للفناء والاضمحلال . والواقع انه ظن أنه وجد ضالته في تشابه البيئات التي قامت فيها الحضارات القديمة، حضارة مصر والعراق والسند . . فكلها نشأت في سهول فيضية في بيئات جافة وإن كانت أقل جفافا منها اليوم، كما أتاح لسكانها التربة الغنية والمناخ المنعش وطريق النهر «المتحرك»، وطول فصل النمو ، وكثرة النباتات والحيوانات التي يمكن استئناسها ، كما تحدث سكانها بما واجهتهم من صعوبات الفيضان والجفاف والمستنقعات ، فضلا عما أحاط بها كلها من بيئات متباينة من جبال أو هضاب يسكنها أناس قد تكون أفكارهم قد أضافت الى أفكار وثقافات سكان هذه السهول الفيضية . ولكن أترأه وجد أخيرا حلا ؟ الواقع أنه أغفل أهمية تقدير الموقع الجغرافي لكل بيئة من هذه البيئات في تطور الحضارة ونشأتها ، كما أغفل عجز الإنسان القديم عن تطهير الاراضي التي كانت تعد أكثر غنى من الناحية النباتية الى الجنوب في اقليم السفانا ، ويضاف الى ذلك أن أكثر سكان هذه الاقاليم المعتدلة كانوا يؤثرون المناخ الدفيء الذي لم يتوافر الى شمال هذه البيئات



أما الفصل الاخير فقد كان نوعا من « التقويم » للعناصر الجغرافية التي سبق دراستها ليبين تأثيرها في تطور العلاقات بين أوروبا والصين في نطاق اقليمى ، فدرس ظروف قيام الحضارة الصينية وتحول التجارة بينها من اليبس الى البحر حينما وما أفاد كل من الآخر ، ومقدار ما تتيحه ظروف المناطق الشاسعة التي تتصل بينهما في توثيق هذه العلاقة بينهما أو اضعافها . وهكذا اختتم دراسته بعد أن ألم بعناصر البيئة الجغرافية الرئيسية ، وكشف عن دورها في تطور مظاهر نشاط الإنسان ، كما أكد أهمية دراسة تطور هذه العناصر في تفسير أحداث التاريخ

الجغرافيا كوثيقة تاريخية

« وهذه أمور يغفل عنها السادة الذين يعرفون القوتين جيدا »

دعوة - تأليف فلكر Flecker, Invitation

لا زالت الطبيعة الجموح حتى اليوم - ولو عن طريق ماينتأبها من أحداث عنيفة - تذكرنا بقسوة الظروف المضطربة التي تكتنف سكنى الجماعات البشرية واستغلالها لسطح الأرض . وان ما يتردد من قول - ينطوى على الكبرياء - من أن الانسان قد أصبح سيد عالمه إنما هي دعوى جوفاء ، حينما نذكر الفيضانات والمجاعات المتعاقبة التي تصيب زراع الصين الشمالية ، وفيضانات المسيسيبي المدمرة سنة ١٩٣٧ ، وما وقع في وقت حديث نسبيا من تحطيم الجليد لكوبرى « فيوفولز » View Falls الذي كان يقوم على نهر نياجرا ، والتوكيد بأن (الصحراء تتسع) في افريقيا الوسطى ، وانتشار ظاهرة تعرية التربة في بقاع من افريقيا والغرب الاوسط في الولايات المتحدة ، وأخيرا سيف الجفاف المسلط الذي يهدد دائما مناطق القمح الكبرى في العالم ، سواء في الولايات المتحدة وكندا أو روسيا الجنوبية ، فهذه الاحداث والنذر وامثالها تؤكد لنا - حتى بالنسبة للشعوب التي بلغت شأوا بعيدا من الحضارة المادية - ان البيئة الطبيعية قد ظلت حقا كصندوق باندورا على استعداد دائما لينفجر في عنف ، فيبشر ماحواه من أشياء مزعجة ..

فلو كان من الواضح اننا لانستطيع الآن - مع كل ما في حوزتنا من ذخائر العلم والفن والقوة المحركة - أن نتجنب أو نتحكم فيما يكتنف بيئتنا من الاخطار والصعوبات ، فكم كانت هذه الاخطار وتلك الصعوبات اكثر قسوة وتنفيرا في المراحل الاولى من تاريخنا البشرى ، حين كان الناس لا يملكون من الوسائل ما يمكنهم من محاولة تكييف بيئتهم الطبيعية لحاجاتهم ! وقد بلغ هذا الامر مبلغا حدا الى ترديد القول بأن التاريخ بأكمله كان يرادف في فجره الجغرافيا ، لاننا نعرف أن الناس في الطور البدائي من أطوار الثقافة لفترة امتدت آلافا لا عداد لها من السنوات - كانوا يقاسون من طبيعة عارمة ذات سطوة في كل البقاع يعجزون عن تغييرها أو استغلالها . ولكن عددا كبيرا من الشعوب في

جهات مختلفة من العالم ، قد افلحت خلال التاريخ - بعد أن أدركت أسرار الطبيعة - أن تكيف حياتها رويدا رويدا لتلائمها ، وإن كانت قد عجزت عن كبح جماح هذه الطبيعة تماما



ومما يدعو للتضليل أن نتوقع أن الجغرافيا حين تفسر التاريخ مقصورة على الأحداث العنيفة التي تلعب فيها الجغرافيا دائما دورا رئيسيا فحسب ، ولكن لم تكن البيئة الطبيعية بمظاهرها العنيفة - زلازلها وثوراناتها البركانية وزوابعها وفيضاناتها - أوضح أثرا في التاريخ البشرى من مظاهرها اليومية المألوفة . فلو أخذنا بأن الجغرافيا - مهما كان مجالها فسيحا - تشمل في المقام الاول دراسة البيئة الطبيعية تصبح مشكلتنا الجوهرية أن نعرف طرق تأثير البيئة في سير التاريخ والمجال الذي يبدو فيه ذلك التأثير . أما بالنسبة للمتشيعين لتأثير البيئة أو أنصار الحتم البيئي الذين ذهبوا مذهب بعض فلاسفة الاغريق القدماء ، فحاولوا تفسير مظاهر التاريخ المعقدة المتعددة في ضوء عامل واحد هو العامل الجغرافي - فان هذه المشكلة تصبح هينة الحل ، اما هذا الجبر الجغرافي - كما يسمى ذلك المذهب الذي ظن أنصاره أن في الاختلافات في الظروف الجغرافية بين بقعة وأخرى ما يكفل تفسير كل ماغمض من أحداث التاريخ - فقد ظل حيننا لا يجد تأييدا من الثقة ، ولم يجد « أ . ج . توينبى » A. J. Toynbee الذي أعاد عرض هذه القضية حديثا حين تناول بالبحث التحليل التاريخي لبيين قصورها ، (١) ولكننا اذا لم نستطع قبول الراى القائل بأن الجغرافيا تمكن من تفسير التاريخ تفسيرا كاملا ، لانه راى غير جدير بالتصديق ، فما هو اذا المكان الحق الذى يجدر بالجغرافيا أن تحتله أو تشغله في دراسة التاريخ ؟



ان دعوى الجغرافيا التى تتردد في مجالس التاريخ تقوم على أساس راسخ ، يتلخص في أنها هى وحدها التى تدرس دراسة شاملة علمية بواسطة طرائقها وأساليبها الخاصة مجال النشاط البشرى ، فضلا عن أن الظروف الخاصة التى تميز هذا المجال لا تساعد على تعيين مكان الأحداث فحسب ، بل تؤثر كذلك في بعض نواحي هذه الأحداث على الأقل . وإن ما ألفناه من تشبيه الجغرافيا والتاريخ بالمرح والرواية التمثيلية مضلل من عدة وجوه ، لانه بينما يمكن أن تمثل الرواية على أى مسرح بغض النظر عن خصائص هذا المسرح ، فان مجرى التاريخ لا يمكن أن يمضى البتة في طريقه دون أن يتأثر بالاختلافات والتغيرات التى تحدث للمسرح نفسه . فضلا عن أن التاريخ على عكس الرواية لا تجرى له « بروفة » قبل تمثيله ، كما أن مظاهره تبلغ من الاختلاف والتغير حدا يؤكد أنه ينقصه وحدة المكان والزمان والموضوع

ومجمل القول أن الجغرافي حين يدرس المسرح الطبيعي الذي لا مندوحة عن وجوده لتجرى فيه أحداث التاريخ ، يعرض لأحد العناصر التي يتألف منها التاريخ ، ذلك الشيء المركب . فهو يفحص أحد الخيوط التي ينسج منها التاريخ ، ولكنه لا يؤكد في سذاجة أنه يستطيع أن يتتبع أو أن يفسر كل الاشكال المتداخلة المعقدة في هذا النسيج ، ولكن مع ذلك يذهب الى تأكيد أن البيئة الطبيعية مثلها مثل الهدف في لعبة الكريكت - لها بفضل خصائصها التي تختلف من مكان لآخر ومن وقت لآخر تأثير يذكر في سير اللعب وقبل أن نعرض عرضا أكثر اسهابا لما يمكن أن تسديه الجغرافيا للتاريخ من ايدادى ، نقف قليلا للتعرف على طبيعة التاريخ نفسه ، فمهمة المؤرخ التي تنطوي على الطموح تتضمن عرض وايضاح وتفسير افكار البشر وأعمالهم ، وهى فى تغيير دائم من مكان لآخر ومن وقت لآخر تعتمد بوجه خاص على السجلات المدونة رغم أنها انتقلت الى أيدينا فى صورة مبشرة غير كاملة . ولكن لما كان المؤرخ يتوسع دائما فى ميدان بحثه الخاص بدراسة أعمال الملوك والابطال ليتناول مصابر الممالك والامبراطوريات والحياة اليومية (لعامة الناس الذين ليسوا موضع ذكر) فقد اضطر أن يفيد من الاعمال التى تتصل ببحوثه ، والتي يقوم بها الدارسون فى العلوم الاجتماعية الاخرى التى يتصل بعضها بميدانه ، من أمثال عالم الآثار والانثروبولوجيا والخبراء فى الدراسات اللغوية وأسماء الاماكن



ولما كانت حقائق التاريخ - سواء أكانت مدونة أو غير مدونة التى تتناول بعض عصور أو أماكن معينة - نادرة ومتضاربة ، فضلا على أن التاريخ المكتوب - مهما كانت سجلاته كافية - لامندوحة له من أن يعكس الى حد ما وجهة نظر المؤرخ وتفسيره الشخصى ، رغم ما قد يتوخاه من الحيطة والعناية والامانة ، الى جانب أن على كل جيل من الناس أن يدون تاريخه وهو غالبا يقوم بذلك ، فلهذه الاسباب وما يشابهها يستطيع الناقد أن يقول كما ذكر نابليون وكما ذكر جيته على لسان فاوست بأن (التاريخ اختلاق المؤرخين)

ولكن بعض المؤرخين وفى مقدمتهم « ا . ج . توينبى » Toynbee يرى أن أحداث التاريخ تتفق وانماط معينة او سنن خاص تخضع بطبيعتها للمنطق والعقل مستقلة عن تأثير عقلية المؤرخ . ومن جانب آخر فان ه . ا . ل . فيشر H. A. L. Fisher - وهو ليس أقل جدارة بأن يدلى بحكمه فى هذا الموضوع الفلسفى - يعتقد أن التاريخ يفقد « الحكمة والتساق أو النظام ، إذ أنه ليس سوى سلسلة من الاحداث الطارئة تحدث نتيجة لتفاعل عوامل متناقضة لا يمكن التنبؤ بها »

وعلى كل حال ، فإيا كانت النظرية التى نعتنقها من نظريات التاريخ ، فلا اختلاف فى أن جانباً كبيراً من التاريخ الماضى قد أصبح الآن معروفاً وبخاصة فى الستة آلاف سنة الأخيرة ، أو نحو ذلك ، حين كانت الحياة المتحضرة قائمة فى بعض جهات العالم ، فلا حاجة بنا أن نذهب مذهب الدكتور «أنج» (١) بنزعته الزارية المتشائمة حين يقول : « أن الأشياء التى نعرفها عن الماضى يمكن أن تقسم الى تلك التى ربما لم تحدث البتة ، وتلك التى لايعيننا حدوثها كثيراً » اذ أجدر بنا أن نعجب بالقدر الكبير من المعرفة المحصنة التى كانت ولا تزال تزدد بفضل البحوث التى تتناول موضوعات محدودة معينة بعمق والتى يمارسها المؤرخون الآن ، متبعين فى ذلك أسلوب البحث العلمى والتخصص الدقيق . وسواء اتخذ المؤرخ مشاكل منطقة محدودة أثناء فترة قصيرة موضوعاً لدراسته وتصويره ، أو كانت تعنيه مشاكل الجماعات التى تحتل مساحة أكبر ، أو عاشت زمناً أطول من الدول القومية أو الدول التى تتكون من مدينة City-States أو أية مجتمعات سياسية أخرى وهو ما ينظر اليه « ج . توينبى » على أنها (الميادين التى يمكن فهمها بوضوح فى دراستنا للانسان) - فمن المؤكد أن المؤرخ يستطيع فى نقط كثيرة أن يضيف إلى ثروة وعمق دراسته اذا أدرك الاسس الجغرافية لمشاكله . . لان تفكير الانسان وعمله يحدثان فى وسط جغرافى معين محدود واضح وليس فى فراغ ، مما يحدد ويوضح طبيعة الجهود البشرى ونطاقه بدرجات متفاوتة



ويمكن أن تؤكد أن التاريخ والجغرافيا لايمثلان شيئين مختلفين ومتقابلين كما يذهب الذين يحاولون التمييز بينهما بوجه عام ، على أنهما يمثلان دراسة الانسان والارض ، اذ لم يختلف بعد تماماً الراى الذى يذهب الى أن التاريخ يبدأ حين تنتهى الجغرافيا ، مستنداً الى أن الأخيرة تعنى بالحقائق الطبيعية وحدها ، وهو رآى مستمد من فكرة عن الجغرافيا لا يؤمن بها دارسوها الآن . فمما لاشك فيه أنه لايمكن أن نبالغ فى توكيد الهدف الرئيسى من دراسة الجغرافيا وهو دراسة البلاد بكل نواحيها العديدة وعلاقتها المعقدة ، ولكن دراسة البلاد تتضمن بدون شك دراسة الانسان وهو عامل مهم فى تطورها ، كما أنه عامل لايمكن أن نتجاهله بصفتنا أفراد النوع البشرى الذى لا يزال يعيش وحده الى اليوم

ولما كان كل حادث من أحداث التاريخ يقع فى مكان وزمان معينين معا ، فان التاريخ لايمكن - الا فى بعض فروعه الدقيقة التخصص - أن ينتزع أو يفصل عن البلاد أو المكان لانه اذا كانت « الجغرافيا بدون تاريخ تبدو

كهيكل بدون حراك ، فان التاريخ بدون الجغرافيا كضال لا ماوى له يسير على غير هدى »

ولما كان لابد للتاريخ أن يعنى بتحديد موطن الحوادث التى يبحثها فانه يجب الا يقتصر على توجيه الاسئلة المألوفة : لماذا ؟ ولماذا فى ذلك الحين ؟ ولكن يضيف اليها أسئلة أخرى : اين ؟ ولماذا هناك ؟ وتستطيع الجغرافيا أن تساهم قبل كل شيء فى حل المشاكل الأخيرة « لانه حتى الان - كان للطبيعة فى كل مسرح من مسارح الحوادث تقريبا نصيب اوفر من نصيب الانسان فى تحديد المكان الذى يقع فيه الحادث ، ولم يستطع الانسان أن يجعل من نفسه الى حد ما محور الأحداث الا فى دور متأخر نسبيا » (١)



ورغم أن دراسة بعض المسائل السالفة الذكر التى تختص بها ميادين منفصلة من الدراسة قد يكون ضروريا فى الواقع ، مما قد يتفق والاعتبارات الأكاديمية لكنه يقيم حاجزا عبر حلبة واحدة ، ففى الاتصال الوثيق بين التاريخ والجغرافيا الذى يؤخذ به فى جامعات فرنسا والذى لا يقابله نظام معادل لدينا ، ما يؤكد الحقيقة التى تتلخص فى أن هذه الدراسات متصلة بعضها البعض اتصالا وثيقا ومنطقيا .. فاذا استطاع التاريخ أن يفيد شيئا من الجغرافيا ، فان الجغرافيا رغم انها تعنى قبل أى شيء آخر بالحاضر ، فان حاجتها للأضواء التى يلقىها التاريخ لاتقل عن ذلك أهمية

وان غير المتخصص الذى يعرف النذر اليسير من التاريخ وقدرا اقل من الجغرافيا ، لا يدرك من الجغرافيا الحديثة إلا قليلا .. فقد كانت الجغرافيا فى بدايتها احدى ثمار الفكر الاغريقى القديم ، ثم خبطت خطوات واسعة فى المانيا فى القرن التاسع عشر ، ثم تطورت تطورا سريعا فى هذه البلاد وغيرها فى أثناء العقود القليلة الأخيرة . وقد ظلت مع ذلك (فى نواحي كثيرة تعد علما يافعا لا يزال ينمو) ورغم أنه قد تم ارتياد العالم فما يزال ثمة مجال واسع لنبدل جهدا كبيرا حتى نزيد معرفتنا عمقا بأجزاء العالم

وقد يكون من المفيد ومن المناسب ونحن فى صدد هذا البحث أن نشير الى مجال الجغرافيا وأغراضها الحالية ، لانه - ما لم تكن أوفر حظا - فان مالا يزال عالقا بذاكرتنا فى غموض وأبهام من الجغرافيا منذ عهد تلقى العلم لن يجدينا كثيرا ، فكما أن عالم الطبيعة يعنى بدراسة الذرة وأقسامها ، وعالم الاجتماع يعنى بالجماعات التى تختلف فى حجمها ودرجة تعقيدها ، فان وحدة الدراسة لدى الجغرافى هى الاقليم . فجهود الجغرافيين رغم تباينها وتعدد نواحيها تلتقى على هدف مشترك هو فى المقام الاول التعرف على الاقليم ووصفها

(١) ج . ل . ميرز G. L. Myres فى كتابه Cambridge Ancient History الطبعة الثانية (١٩٢٨) الجزء الاول : صفحات ٣ ، ٢

وتحديدها ، وهى مساحات من البلاد متشابهة بوجه عام ويمكن تمييزها على أساس علمى . ولكن « للجغرافيا الاقليمية » أغراضا أكثر طموحا من ذلك ، فرغم أنها تعنى بالنواحى الطبيعية للبلاد قبل أى شىء آخر فإنها تحاول دائما أن تتبع وتحدد العلاقات التى تقوم بين الجماعات البشرية فى أعمالها وتنقلاتها ، وبين الظروف الطبيعية ، فكلما زادت أهمية الاقليم بالنسبة للانسان وزادت العلاقات بين المكان والسكان تعقيدا نتيجة لذلك ، كلما زادت أهميته ودلالته فى ميدان الدراسة الجغرافية وازدادت المقدرة على فهمه وإدراكه



ففكرة الاقليم تمثل « الحصن الرئيسى » للجغرافيا ، فالإقليم سواء كان كبيرا أم صغيرا يتكون من مساحة من البلاد لم تحدد تحديدا متكلفا أو مصطنعا كما يحدث على خريطة ذات مقياس رسم كبير ، ولكنها تمتاز بتجانس معين إما فى ظروفها الطبيعية أو البشرية . وتختلف العناصر الجغرافية التى تتضمنها أية مساحة من الأرض والتى يمكن تحليلها الى عناصر منفصلة وإن كانت فى الواقع يتوقف كل منها على الآخر : من المناخ والموقع والبيئة ومظاهر السطح (تشمل التضاريس ونظام الصرف) وأنواع التربة والنبات الطبيعى الى المجتمعات البشرية نفسها وكل ماتركته على أديم الأرض من آثار . ويجب أن نلاحظ أيضا - كمظهر آخر مميز من مظاهر أية بقعة - وجود حيوانات وحشية أو مستأنسة وأسماك وحشرات مثل بعوضة أنوفيلس وذباب تسي تسي ، وهى ذات أهمية واضحة كحقائق تمثل البيئة . ومن اليسير أن نتبين كيف تعتمد هذه العناصر المختلفة - فى أية بقعة - كل منها على الآخر الى حد بعيد . فموقع المكان بالنسبة لخطوط العرض ، أى بالنسبة للشمس ، يحدد المناخ بوجه عام برغم أن المناخ يتأثر أيضا بموقع المنطقة بالنسبة لليابس والبحر وارتفاعها وتوجيهها . كما أن المناخ يمثل غالبا العامل الرئيسى فى تكوين أنواع التربة ، وذلك عن طريق تأثيره فى النبات الطبيعى برغم أنه ربما قد تكونت أنواع التربة بتأثير عوامل التعرية الجوية فى الصخور المحلية ، أو نقلت عن طريق الجليد والمياه والرياح ، كما أن المناخ والتربة تعين الحدود التى تستطيع النباتات أن تنمو داخلها ، وبذلك تؤثر فى توافر الموارد الغذائية للانسان والحيوان . ويمثل التركيب الجيولوجى لمنطقة ما أهم العناصر التى تفسر أشكال سطح الأرض وتضاريسها ، كما أنه يدل كذلك على الأماكن التى يمكن التنقيب فيها على موارد المياه والفحم والبتروول والمعادن والمنسوبات التى تتوافر عندها هذه الموارد

كل هذه العوامل السالفة الذكر وغيرها من العوامل المرتبطة بها ، تكيف وإن لم تفرض مظاهر نشاط الانسان الذى يعد هو نفسه عاملا غير قليل الأهمية فى تغيير الظروف الجغرافية ، إذ يستطيع - وقد تمكن فعلا - منذ

أقدم الأزمنة أن يعدل نظام الصرف والتربة والنبات الطبيعي ، وهو يستطيع - الى حد ما - أن يغير من تضاريس الأرض كما نشاهد فيما تراكم من أكوام كبيرة في مناطقنا التعدينية . ورغم براعة الانسان فانه يجب أن يخضع لسلطان المناخ صاغرا ، بيد أنه يستطيع بالملاحظة الدقيقة أن يحاول التنبؤ بما يخبئه الطقس من مفاجآت ويعدل من تأثيره . فحين يلجأ لاستخدام الرى - حيث يكون ذلك ممكنا ومريحا - ولاقامة حواجز لصد الرياح الضارة ولاستخدام البيوت الزجاجية لتربية النباتات ، يستطيع أن يفيد من المناخ الذى يعجز عن التحكم فيه وكبح جماحه . وقد أمكنه كذلك - ولو أن ذلك جاء في دور حديث - أن يتجنب الى حد ما ، مايفرضه المناخ من حدود ، باستخدام بديل للمحاصيل ، فزرع بنجر السكر حيث لاينمو قصب السكر ، وصنع المطاط الصناعى في العروض المعتدلة . وأن المحاولات التى بذلت في روسيا القطبية حديثا لزراعة الخضروات أسفل التربة السفلى المتجمدة ، باستخدام الضوء والحرارة الكهربائية التى استمدت من قوة الرياح ، إنما يدل على المدى الذى يمكن أن يصل إليه الانسان بفضل مهارته وابتكاره ، وذلك برغم أن تحدى المناخ يدل على أنه هواية كبيرة النفقات ، فربما تستطيع أن تزرع البطاطس في القطب الشمالى كما يقال ، ولكن لا بد من أن توفر أستاذنا جامعيًا يسهر على كل نبات من نباتات البطاطس ليراقب نموه (١)



ولكن لما كان النسيج الجغرافى لاية منطقة يتكون من خيوط كثيرة متداخلة ، فكيف يمكن أن نميز الأقاليم التى تتكون منها وحدات متجانسة في بعض النواحي الهامة ؟ الواقع أنه توجد عدة طرق لذلك ، حتى أن الناقد المتحامل يمكن أن يذهب مؤكدا الى أن الأقاليم شىء لا وجود له الا في اذهان الجغرافيين . ولكننا اذا قدحنا زناد الفكر فسوف نهتدى الى أن أنواعا معينة من الأقاليم ، وهى التى تسمى عادة بالأقاليم الطبيعية (٢) ، لها كيان موضوعى يبدو واضحا للعيان . ويمكن أن نميز هذه الاقسام الطبيعية للأرض - برغم أن حدودها قد تكون أشبه بالمناطق منها بالخطوط - معتمدين في ذلك على المناخ والبيئة ومظاهر السطح أو التربة أو بعض هذه العناصر مجتمعة . فالمنح يرشدنا الى التقسيم المبدئى البسيط لسطح الأرض الى أقاليم ، أما اذا تشابهت الظروف المناخية بوجه عام فنجد أن للنباتات سواء الطبيعى منها أو المنزرع خصائص مميزة وحدودا لها دلالتها ، كما تمدنا التربة غالبا بدليل واضح بما يحدث من التغيرات الكبرى في الظروف الجغرافية في الكتل

(١) التقديم الاقتصادى لروسيا القطبية - تأليف H. P. Smolka المجلة الجغرافية

سنة ١٩٣٧ من صفحة ٢٢٧ - ٢٢٨

(٢) 'Natural or physical regions'

القارية ، ولهذا نجد في الهضبة الروسية التى تتكون من كتلة صلبة نطاقات من التربة العميقة تمتد من الشرق الى الغرب بوجه عام مختلفة فى تركيبها وصفاتها



وأخيرا نعثر فى بلد تسوده ظروف طبيعية متباينة كبلدنا على عدد كبير من الاقاليم الصغيرة التى غالبا ما تحتفظ بأسماء تقليدية والتى يمكن تمييزها على أساس مظاهر السطح التى تميزها بصفة خاصة . ويمكن أن نذكر على سبيل المثال وديانا الكثيرة مثل وديان بكرنج Pickering والزيرى Aylesbury وهولمزديل Holmesdale ، وبيوزى Pewsey أو هضابنا المنخفضة الكثيرة بحافات ذات الانحدار الشديد الوعورة ، ومنحدراتها التى تميل ميلا رقيقا مع الطبقات مثل تشلترنز Chilterns ويوركشروولدز Yorkshire Wolds ونورث وسوث دونز North & South Douns وبلاد المورلاند المرتفعة مثل دارتمور Dartmoor ومرفعات اسكتلند وستينمور فى البنين Stainmoor in the Pennines ، ومستنقعاتنا فى سومرست Somerset sercis وأراضى الفنلاند Fenland الواسعة ، وأخيرا منطقة تشبه الاستبس من النادر العثور عليها ، تغطيها الأشجار الآن ، وتدعى بركلاند Breckland فى نورفولك الغربية West Norfolk وعند تحديد الاقاليم الطبيعية تتناول بالتقسيم سطح الارض الحالى بما انتهى اليه تاريخه الطويل ، وما تعرض له من أحداث ، من التواء الصخور وانكسارها والنحت وآثار الجليد وحركات الهبوط والارتفاع . ومن الواضح أن تتبع وتعيين حدود الاقاليم الصغيرة يتطلب دراية ومرانا خاصا سواء (على الطبيعة) أو فى تفسير ومعرفة الخرائط الجيولوجية والطبوغرافية ، ولكن يمكن أن نؤكد أن الاختلافات الإقليمية فى طبيعة تكوين أو بناء الارض واضحة وان لم يكن فى تفاصيلها ، ولا يمكن تجاهل أهمية هذه الاختلافات من وجهة نظر التاريخ لان أكثرها من النوع الدائم ، فاذا عرفناها فى شكلها الحالى فسنعرفها فى الماضى الذى لا يختلف عن حاضرها أيضا

وحينئذ يحاول الجغرافى أن يكشف النظم أو الاشكال التى حفرت أو تركت آثارها على سطح الارض ليجد بعض التماثل والتنسيق فيما يبدو لاول وهلة كأنه شيء مختلط يفقد النظام ، وبعد أن يهتدى الى وجود هذه الاقاليم ، يحاول أن يتبين الى أى حد تعمل المجتمعات البشرية فى الافادة من الفرص التى أتاحت لها فى تعمير الارض وسكنها واستغلال مواردها الطبيعية ، والتردد هنا وهناك أثناء الهجرات والتجارة والرحلة والحروب ، وأخيرا فى تغير ظروف الإقليم لكى تسد حاجات هذه المجتمعات وتأثير الإقليم بدوره فيها . ولكن ما علاقة كل ذلك بما نحن بصدده عن دور الجغرافيا فى تفسير التاريخ ؟

والجواب على ذلك أنه باستخدام طريقة البحث الاقليمي يتسنى للجغرافي أن يضع طريقة للتفكير خاصة به لا تقل في انطباقها على الماضي عن الحاضر ، الذى يعد أهم مايعنى به الجغرافي . فيمكن أن نتصور مظاهر سطح الارض المتباينة خلال الماضي ، وبذلك يصبح الماضي بمثابة وثيقة أن لم تكن معاصرة بدقة لاحداث التاريخ ، فانها مع ذلك توضح أعمال المؤرخ كما أنها وثيقة الصلة بها . فالجغرافيا على الاقل في مظهرها الطبيعي تمدنا بمقياس عام الكل الازمنة التاريخية أكثر قدما من ميتوشولح Methuselah (١) فقد شاهدت الارض ظهور الانسان وظلت بعد ذلك قائمة كما شاهدت الاحداث الطارئة التى تضمنتها أعماله الهادفة ..



ولما كانت هذه الاختلافات الكثيرة فى شكل الارض ، وفى مناخها ، وموقعها ، ومواردها الطبيعية ، تضع حدودا للمجهود البشرى فيجب أن تكون هذه الامور موضع عناية المؤرخ ، فلا يكفى فى دراسة التاريخ أن نرجع الى خرائط الاطلس لنحقق موقع ومساحة البلاد أو موقع المعارك والمدن ، برغم أنه منذ وقت غير طويل كانت الجغرافيا التى تتضمنها الكتابات التاريخية الجادة اما مفتقدة تماما او كانت تقتصر على هذا المظهر التافه الممل، فكتاب «فريمن» (٢) المشهور الذى لم يفقد قيمته بعد، والمعروف باسم جغرافية اوربا التاريخية (٣) مثلا يشمل مجلدا من الخرائط ، وان لم تظهر فى خرائطه العديدة أية ظاهرة طبيعية فى تلك القارة ، ولذلك فان القارئ الذى يهمل المبادئ الاولى قد يذهب الى استنتاج أن سكان أوروبا ودولها قد تطورت على جزء من الارض متجانس ، وان كانت الحقيقة أنه قلما نجد منطقة تبلغ مساحة أوروبا تقريبا وتشبهها فيما يبدو فيها من تباين فى بنيتها أو سطحها أو مناخها

وبعد أن أشرف على هذه المرحلة من يرتاد منطقة الحدود أو التخوم بين التاريخ أو الجغرافيا يجب عليه أن يترىث فى حيلة وحذر ، فهل يستطيع أن يدعى وهو مطمئن أن ظروف الجغرافية الطبيعية كانت مستقرة أو ثابتة أو بتعبير آخر أن البيئة أو المسرح الطبيعى Natural landscape لم يصبه تغيير ما ؟ بكل تأكيد نجد أن الموقع الجغرافي فى معناه المطلق لم يتعرض للتغيير ، ولكنه بمعناه النسبى - كما سنرى فيما بعد - يتغير أثناء العصور التاريخية (٤) ، كذلك هل المناخ الذى يعد بآثاره المباشرة وغير المباشرة أشد عوامل البيئة قوة وابعدها أثرا فى أية بيئة طبيعية .. قد ظل ثابتا خلال

(١) ميتوشولح أحد المعمرين من بنى اسرائيل، كان يعيش قبل طوفان نوح، وقد قيل أنه امتد

عمره نحو قرن من الزمان

(٢) Freeman

(٣) The Historical geography of Europe (٤) انظر الفصل الثانى

التاريخ ؟ سوف نتناول هذه المشكلة بعد ذلك (١) ، ولكننا يمكن أن نذكر في هذا المقام أنه برغم كثرة ما يكتنف هذا الموضوع من شكوك كثيرة وما يثيره من تناقض كبير ، فإن فرض حدوث تغير مناخى وبخاصة في عصور ما قبل التاريخ أمر لا يمكن تجاهله ..



ولكن على النقيض نجد أن مورفولوجية الأرض - أى أشكال السطح والتضاريس ومظاهر الصرف فيها - تكشف عن استقرار واضح لان مايتأبها من التغيرات المألوفة يستغرق أزمنة أطول بكثير من عصور التاريخ ، فلم تقع سوى تغيرات مورفولوجية محدودة أثناء التاريخ البشرى القصير إذا قيس بالتاريخ الجيولوجى ، ولكن رغم ذلك فقد كان لهذه التغيرات الطبيعية المحدودة المتفرقة أحيانا آثار بشرية مهمة ذات دلالة .. فالثورات البركانية والزلازل التى تحدث فى الأقاليم ذات البنية الحديثة ، وهبوط أو ارتفاع سطح الأرض بالنسبة لمستوى البحر ، والتغيرات التى تؤثر فى مجارى الأنهار وتطمر خلجانها ، ونحت أراضى السواحل وإضافة أراضى جديدة إليها بتأثير عوامل بحرية أو نهريّة ، وطفيان الصحراء لما تسفيه الرياح من الرمال ، وفقدان التربة نتيجة للنحت رغم أنها قد تعزى بطريق غير مباشر إلى نشاط الإنسان .. مثل هذه التغيرات مهما كانت غير ذات بال من الناحية الجيولوجية ، من الممكن أن تتمخض عن نتائج بشرية هامة ، فضلا على أنه يجب أن نلاحظ - وبخاصة فى المناطق التى استقر فيها السكان منذ زمن طويل أو التى استغلت استغلالا كثيفا - أن النبات الطبيعى الذى كان يغطى سطح الأرض فى عصور ما قبل التاريخ السحيق قد اختلف جميعه تقريبا ، بل حتى فى الجهات التى لم تستغل أو ظلت متخلفة نسبيا مثل حوضى الإمزون والكنغو ، فإن جانباً على الأقل من غطاء النبات الطبيعى الأول قد أزيل (٢)

وقد بذل الإنسان جهودا متصلة مدة طويلة لإصلاح بعض الأراضى للانتفاع بها ، حتى أصبحت الحيوانات البرية والنباتات بل والتربة تمثل عناصر بيئية قد تأثرت بالمجهود البشرى ، أى أن هذه العناصر أضحت تختلف تماما عن عناصر البيئة الطبيعية كما وجدها السكان الأوائل . وتمدنا مصر فى هذا الصدد بمثل فريد لهذه الحقيقة (٣) برغم أن هناك من كتب يقول :

« تمثل مصر وثيقة من سعف التخيل دون الإنجيل فيها على كتابات هيرودوت ، ثم كتب عليها القرآن ولذلك نستطيع أن نتبين الكتابة الأولى القديمة خلال كل ذلك (٤)

(١) انظر الفصل الثالث (٢) انظر الفصل السابع (٣) انظر الفصل الثامن

(٤) ذكرى نيوبرى P. E. Newberry تحت عنوان (مصر كحقل للبحث الانثروبولوجى) « Egypt as a field for Anthropological Research » (1923-1924) P. 193 British Association Report.

ومن المعقول أن نذهب الى أن بعض مظاهر الحياة المصرية التقليدية ، التي تبدو حتى اليوم في الحفلات الدينية ، والحرف اليدوية ، والزى والزينة ، ومنتجات التربة - تدين بشيء ما الى تأثير ظروف البيئة الطبيعية المتميزة جدا والتي أثرت وكيف الحضارة المصرية

ولذلك فإن كل من يحاول أن يعيد تصوير الظروف الجغرافية التي كانت سائدة في أية منطقة وفي أى عصر مضى، إنما يضطلع بواجب يتطلب خبرة معينة وعناية بالغة ومجهودا ليس دون ذلك . ويصبح الواجب الاساسى أن يتعرف الانسان على الخصائص الطبيعية وامكانيات المنطقة ، وأن يكشف ما يتوفر فيها من الامكانيات الاقتصادية ، والصعوبات واسباب التيسير التي تكتنف الانتقال داخل المنطقة ، أو في علاقتها بالعالم الخارجى ، وما هى أسباب الدفاع التي تتيحها هذه الصفات الطبيعية ، وما هى طرق الحياة التي تسمح بممارستها



ولو رغب ان يذهب أبعد من ذلك ، فإن ميدان بحثه سوف يتجاوز الظروف الطبيعية ، فيحاول أن يتعرف على الظواهر البشرية التي تركت أثرها على سطح الارض في عصر معين ، وهكذا سيتناول عملا أكثر مشقة ، ويصبح لزاما عليه أن يميظ اللثام عن أنواع العمران التي كانت موجودة ، وكيف كان توزيعها ، وما هى السبل التي كانت مطروقة حينئذ ، والوارد المدنية التي كانت مستغلة ، وأين كانت ، وطرق الاستفادة من الارض ، وكيف كان توزيع السكان . .

يقع مثل هذا البحث ضمن ميدان التخصص الذى يعرف الآن بوجه عام باسم الجغرافية التاريخية لانه يستهدف في المقام الاول غرضا جغرافيا ، فيعيد تصوير الظروف الجغرافية التي كانت سائدة في الماضى . ولكن لو قدر المضى في هذا البحث حتى نهايته بالافادة من كل الادلة التي تكون في متناولنا ، فسوف لا تقل أهميته للمؤرخ عن أهميته للجغرافى ، كما انه سيساعد في توضيح التاريخ الاقتصادى والاجتماعى من ناحية ، والظروف الجغرافية السائدة الآن من ناحية أخرى

ولنذكر الان ما انتهى اليه الرأى في هذا البحث ، اذ أنه لما كانت كل الحوادث الانسانية تقع في مكان وزمان معينين ، فالمؤرخ الذى يجعل جل اهتمامه بالتغيرات التي تحدث خلال العصور لا يستطيع أن يغفل مشاكل المكان ، تلك المشاكل التي تنفذ منها الجغرافيا ، لان المسرح الذى تجرى فيه أحداث التاريخ يحد من حرية الانسان في العمل على نمط يختلف بين مكان وآخر ، فهو يحدد مواطن كثير من الاحداث . هذا الى أن الجغرافيا حين تأتى لتشد أزر التاريخ ، تمدنا على الاقل بتفسير جزئى لطرق المعيشة التي كانت تتبعها الشعوب

فى الجهات المختلفة (١) . حقا ان من المتفق عليه ان « طرق المعيشة » ليست امرا تملية الظروف الطبيعية املاء .. فالجماعات البشرية نفسها - تبعا للمرحلة التى بلغتها من التطور الثقافى وحاجاتها وقدرتها على الابتكار - تختار طرق معيشتها ووسائل النقل التى تستخدمها (٢) ، ولكن لذلك دائما حدودا ، قد تضيق احيانا جدا تحت تأثير طبيعة بيئتهم ، كما ان استخدام الطريقة الجغرافية احيانا يلقى ضوئا - يكتنفه الشك - على حقائق التاريخ . كما ان ما يقوم به الجغرافى من عمل « خرائط التوزيع » لا يعد طريقة ملائمة ودقيقة للإجابة عن السؤال : أين ؟ فحسب ، بل قد يبين كذلك ان التوزيعات تتبع انماطا وأنظمة يمكن تفسيرها جغرافيا . وقد تواضع علماء الآثار على استخدام هذه الطريقة بعد ان ايقنوا بمضى الزمن اهمية النواحي التى تتناول المكان فى كشوفهم ، فأصبحت لا تعوزها الاسانيد التى تسوغ استخدامها لانها تمخضت عن نتائج يمتد بها . ومن الواضح ان هذه الطريقة يمكن ان تلقى مثل هذا التوفيق اذا تناولت المسائل التاريخية ، وهو امر يزداد وضوحا بمضى الزمن . ويجب طبعا ان لا نذهب الى أن كل التوزيعات يمكن تفسيرها على ضوء الظروف الطبيعية ، فان اعداد خريطة للتوزيع لاتعدو ان تكون تجربة قد تسفر عن نتائج



ولنتناول باختصار الاستعمار الاغريقى فى القرن الخامس قبل الميلاد كمثال يوضح ذلك ، فلو رسمت خريطة لتوزيع المستعمرات الاغريقية (انظر شكل ١) ودرست علاقتها بالحقائق والتوزيعات الجغرافية الاخرى لامكن أن تستخلص طائفة من النتائج ذات الاهمية التاريخية : وهنا يتضح لاول وهلة انتشار هذه المستعمرات على طول شواطئ البحر المتوسط والبحر الاسود كما وصفها أفلاطون بأنها (كالنمل والضفادع انتشرت حول بحيرة راكدة) ، ثم نلاحظ بعد ذلك ان هذه المستعمرات الاغريقية كانت اقل فى انتشارها نسبيا فى الحوض الغربى للبحر المتوسط حيث سبقهم الى الاستقرار فيه الفينيقيون والاثروسيون ، واخيرا سيسترعى انتباهنا انه فى ضوء الاعتبار المناخية والامكانيات النباتية (والموقع المتوسط للبحر وسط الياس) قد نشأت المستعمرات الاغريقية حيث يمكن اتباع طرق المعيشة الخاصة ببلاد الاغريق دون أن يصيبها أو أصابها تغيير قليل ، حيث كانوا يستطيعون أن ينتجوا حبوبهم ونبذهم وزيتهم ، وأن يجدوا المرعى لقطعاتهم من الاغنام والماعز وأن يصيدوا أسماكهم من البحر الذى يسلكونه فى تجارتهم

والواقع ان هناك ارتباطا يسترعى الانتباه بين توزيع كل من المستعمرات

الاغريقية ومناخ البحر المتوسط ، فكانت تضعف الحضارة الاغريقية في بلاد الاغريق تدريجيا عند اطراف هذا الاقليم المناخى ، ومن ناحية أخرى فإنه رغم أنهم كانوا يستطيعون اتباع طرق المعيشة الخاصة باقليم البحر المتوسط دون تغيير كبير على سواحل البرتغال ، فمن المعقول أن نستنتج أنهم كانوا عازفين عن ولوج مياه المحيط التى تقع وراء بوغاز جبل طارق

وأخيرا هنالك ناحية أخرى من نواحي التاريخ ترتبط بالجغرافيا بأواصر وثيقة ، ففي ربوع الريف في الوقت الحاضر - كما يبدو في الخرائط الطبوغرافية ذات المقياس الكبير والتي يمكن الحصول عليها الان الكثير من البلاد - نجد ان الظاهرات ذات الاهمية التاريخية والجغرافية مترابطة في كل مكان ، وان اعتبار الريف - كما يبدو على الخريطة التفصيلية - بمثابة وثيقة اذا قيض لها الخير الذى يحسن حل رموزها ، تأتى بنتائج مجزية سواء للجغرافى الذى يحاول أن يفسر الانماط أو أنظمة توزيع الظاهرات كما تبدو الآن ، أو للمؤرخ الذى يعينه الماضى وآثاره التى لا تزال شاخصة ، كما يوضح تماما كيف يعتمد هذان النوعان من الدراسة كل على الآخر ، فاذا تزود الجغرافى بالخرائط فلا بد له أن يعمل على الطبيعة in the field لمتابعة دراساته ، كما يستطيع المؤرخ ان يجد في الفضاء الطليق ما تتطلبه دراسته ايضا . فلو كان الاخير يدرس مثلا الطرق في عصر ما قبل التاريخ أو في العصور الرومانية ، والمسكرات التى اقيمت على قمم التلال في أول عصر البرونز ، أو السدود والمتاريس التى ترجع للعصور المظلمة مثل « Offa's dyke » العجيب ، والاديرة ومراتع الاغنام في العصور الوسطى والملاحة النهرية ، وما الى ذلك ، فإنه يستطيع أن يضيف على وصفه الواقعية والدقة بمشاهدة الاشياء مباشرة في الطبيعة . فقد كتب عن جرانت الن (١) الذى قيل أن كتابه (المدينة والريف في إنجلترا) (٢)

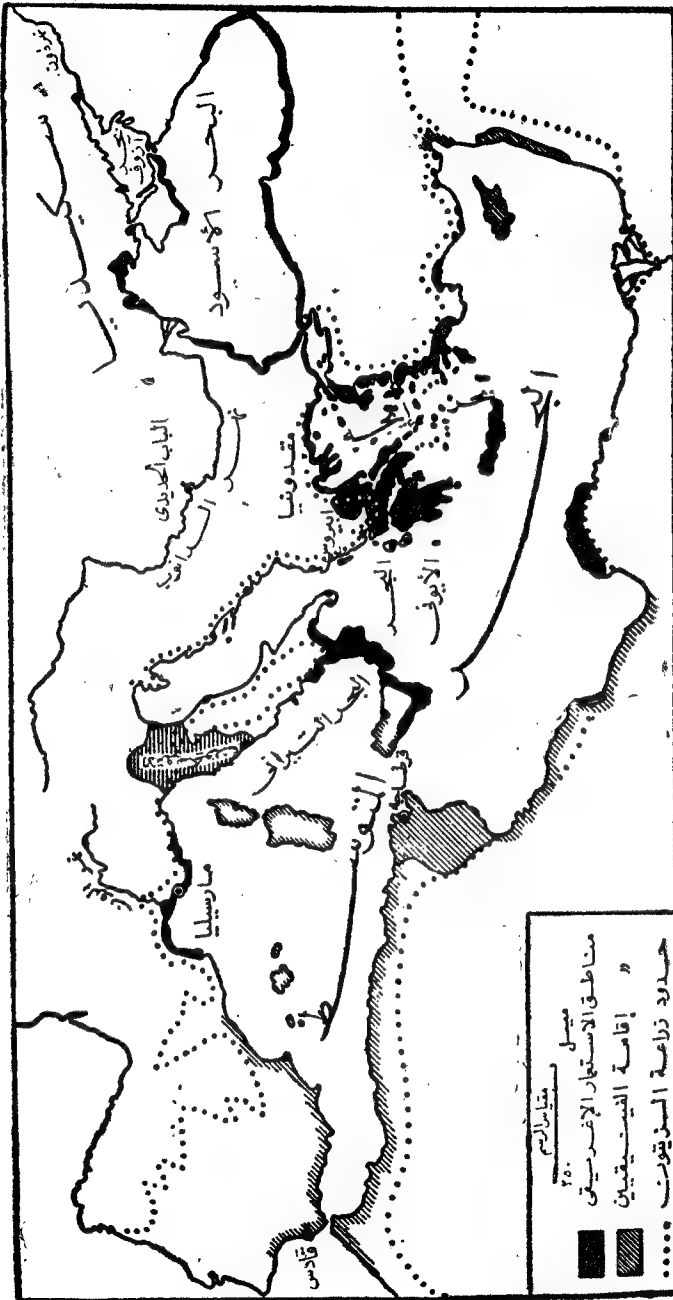
« كشف - منذ جيل - على تقدير فيه زكاة وفطنة للريف المعاصر باعتباره وثيقة تاريخية » (٣)

« لقد كان من دواعى السرور أن تصحبه في نزهة ، فقد كان يبدو الريف له ككائن حي يتطور تحت بصره ، يجب أن يتعرف الانسان على تاريخه الماضى في ضوء الظروف القائمة ويمكن أن نضيف الى ذلك انه اذا كان ماحقه الانسان من تغيير وجه الارض وأشكالها يمثل جانبا من دراسة التاريخ بحق فإنه لا يتسنى ادراك مثل هذا التاريخ الا اذا درس في ضوء الاسس الطبيعية التى لا تتغير نسبيا

(١) Grant Allen (٢) Town & County in England

(٣) المقدمة التى كتبها ف. يورك باول F. York Powell في كتاب « المدن والريف في إنجلترا

سنة ١٩٠١ Town & County in England 1901



شكل (١)
عالم البحر المتوسط من القرن السابع إلى القرن الخامس قبل الميلاد
(يلاحظ أن حدود منطقة زراعة الزيتون تدل تقريباً على حدود إقليم البحر المتوسط الناحي)

فلا يمكن أن نظل ننصوّر الجغرافيا كعلم يفسر التاريخ مثل يد القسدر المختبئة التي توجه سير التاريخ البشرى ، اللهم الا ربما اثناء الفترة الاولى الطويلة من فترات حضارة العصر الحجري القديم ، ولكن في اثناء تاريخ الانسان الثقافي بمعناه الواسع والتاريخ الاقتصادى والاجتماعى والتاريخ السياسى والعسكرى والبحرى ، نجد أن « روح المكان » (١) تلعب دائما دورها . وتمثل طريقة التفكير الجغرافى سواء بتقسيم العالم الى اقاليم متميزة واضحة بما تتيحه من فرص معينة للانسان أو بتوزيع الظاهرات توزيعا مكانيا - أحد المناهج الإضافية لتناول هذه الفروع من دراسة التاريخ . ورغم أننا على حق إذا اعتقدنا ان الناس كانوا في الماضى يدركون العالم المحيط بهم ادراكا منقوصا ، وانهم انشأوا ثقافة مادية باستخدام طريقة التجربة والخطأ ، ورغم ان رغبتهم ومقدرتهم على تكييف عالمهم أو تغيير انفسهم لتلائم ذلك العالم ، كانت في تغير متصل ، فمن المسائل ذات الاهمية الواضحة أن أى تصوير للماضى يجب ان يلقى فيه ذلك العالم الطبيعى من العناية ماتلقاه المصادر المكتوبة من اهتمام بالغ ، وتشمل هذه الدراسة الجغرافية فحص كثير من الخرائط والتصميمات والمصورات فحسا دقيقا ومطالعة الكثير من المواد المكتوبة كما تتضمن كذلك - حيثما امكن ذلك - البحث «على الطبيعة» . ولذلك فقد يأتى الوقت في بعض الاحيان الذي يجب على دارس التاريخ ان يغادر مكتبه وخريطته في يده ، ليخطو في العالم المحيط به ، الذي قد يعثر في أرجائه أحيانا على مايلقى على الماضى ضوءا أقوى من الوثائق المغمرة والسجلات الرسمية التي يستقى منها مادته ، بل يستلهمها كذلك الوحي لتدوين ملحمة



الموقع الجغرافي

ابن افریقیة ١

مشرحة « القافلة » - نوبل كوارد (١)

ابن افریقیة ؟ .. هكذا سالت الخادمة في مسرحية « القافلة » عن البطل الذي عاد من حرب البوير ، ويمكن أن نذكر انها لم تظهر برد شاف . وقد يبدو لأول وهلة أنه من اليسير ان نجد الجواب لهذا السؤال اذا رجعنا الى مصور للخرائط أو كرة ارضية . ولكن هل يكفي للاجابة عن أسئلة تتناول الموقع أن نذكر خطوط الطول والعرض التي قد يفيد منها علماء الخرائط والملاحون ، والتي تساعد في تحديد الاشياء التي تظهر في خرائط تبين سطح الأرض ..

حقا من الممكن أن نصدق أن توزيع القارات والبحار قد ظل ثابتا دون تغيير اثناء تاريخ الانسان القصير على سطح الأرض ، إذ لايعنينا في هذا المقام فرض « فجر » الالهي (عن زحزحة القارات) الذي يفسر التوزيع الحالي للقارات على أنه نشأ نتيجة لتفككها وابتعادها عن كتلة من اليابس كانت متصلة من قبل - لأن ذلك لايتصل بتاريخ الانسان وانما بالعصور التي ينقسم اليها الزمن الجيولوجي وهو أطول كثيرا . كما أنه لا تعنينا دراسة خرائط العصور الجيولوجية التالية أكثر من ذلك ، وتعد خصائص موقع أى مكان خلال العصور التاريخية على جانب من الاهمية ، لأنها اذا أضيفت الى بعض المميزات الجغرافية الاخرى فسيكون لها بعض التأثير على سير تاريخه . واذا أمعنا النظر فسنجد ان الموقع ليس فكرة مطلقة فحسب ، ولكنها نسبية أيضا لان الناس عاشوا دائما في عالم متغير ، ولذلك فان موقع المكان عامل جغرافي متغير وثابت في وقت واحد .. فهو يمثل حقيقة طبيعية في ناحية من نواحيه فقط ، ونعنى بكلمة طبيعية أنه خلق كذلك ولم يكن معرضا للتغيير ، ولما كان الموقع يعتبر شيئا متغيرا لملاقتسه بالعالم المتغير ، فانه لابد أن يقوم تقويما صحيحا خلال عصور التاريخ المختلفة ..

فنحن لا نستطيع أن نفترض مطمئنين أن قيمة موقع اية بقعة في الحاضر ظل كما كان في الماضي الا اذا ارتكبنا خطأ تاريخيا غير مقبول ، ولكن الى أى شيء ..

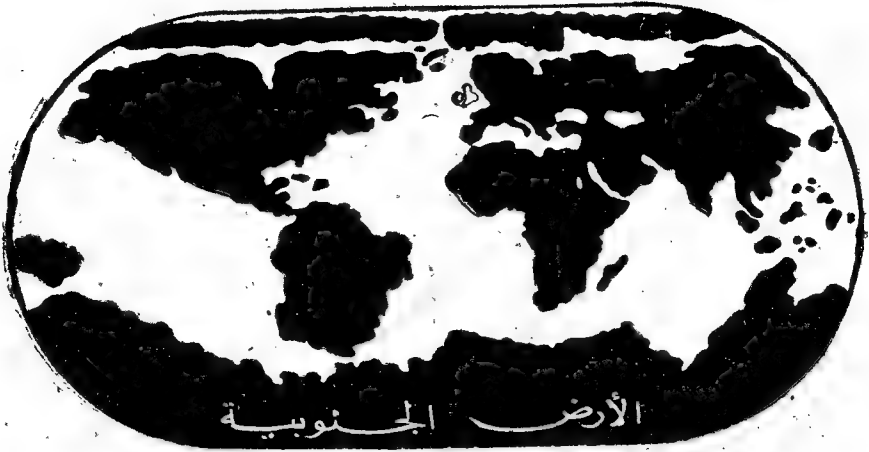


شكل (٢)

العالم عام ١٥٠٠ ميلادية تقريبا تبعا لبطلينوس
(تركزت الجزائر البريطانية دون تظليل باللون الاسود)

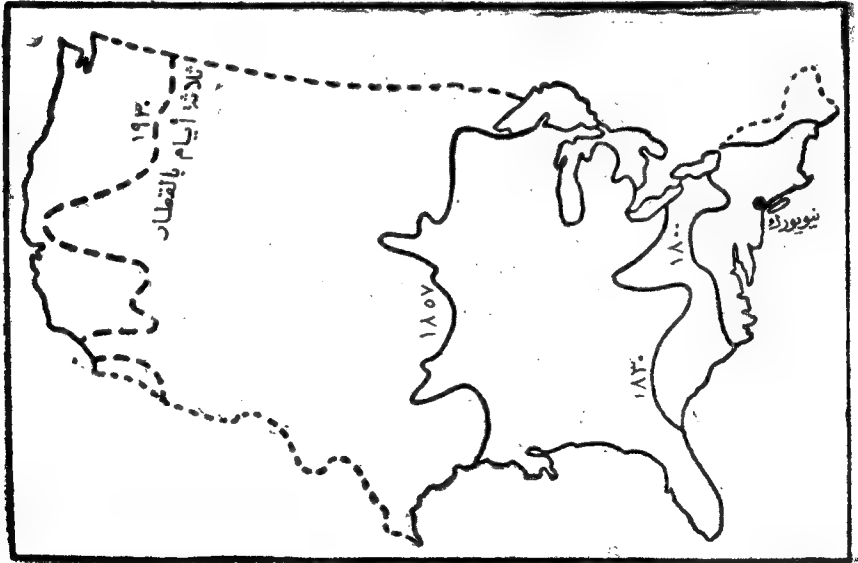
منسب الموقع ؟ الجواب على ذلك انه بالنسبة - في المقام الاول - لما اسماه الاغريق «oekumene» أى العالم المعروف والمعمر الذى لم يكن يشمل البتة سطح الارض الحقيقى فى عصور التاريخ المختلفة ، فلنقارن مثلا العالم كما كان معروفا فى أوج الامبراطورية الرومانية بما كان يعرفه علماء الكون بعد العصر الاكبر للكشوف الجغرافية منه ، (انظر شكلى ٢ و ٣) فقد اتسعت حدود العالم المعروف منذ العصر الذى رسمت فيه خريطة اورتليوس «Ortelius» عما كانت عليه من قبل . . اذ عرفت معرفة تكاد تكون كاملة المظاهر الرئيسية فى توزيع اليابس والماء على الارض ، فقد رسمت على الاقل الحدود العامة للاقاليم القطبية . كما ان موقع أى مكان فى أى عصر يتأثر بالحالة التى عليها الاراضى المعروفة من حيث انها مأهولة بالسكان أو غير مسكونة ، متحضرة أو متأخرة

وأخيرا فان المدى الذى نذهب اليه حين نصف موقعا ما بأنه يوجد عند الحدود أو فى الوسط يتوقف فى ناحية من نواحيه على سهولة الاتصال به . وهذا أمر يتغير من عصر الى عصر ، كلما تغيرت وسائل الاتصال والنقل ، فنلاحظ مثلا كيف تغيرت طرق الاتصال بنيويورك أثناء المائة والاربعين عاما الاخيرة . (انظر شكل ٤) ويمكن القول أن طبيعة أى مكان تتيح امكانيات



شكل (٣)

العالم في ١٥٧٠ م - أورتيليوس «Ortelius»
(تركت الجزائر البريطانية دون تظليل باللون الاسود)



شكل (٤)

مناطق كان يستغرق السفر اليها من نيويورك أسبوعا في ١٨٠٠ و ١٨٣٠ و ١٨٥٧ « ثلاثة أيام ١٩٢٠

معينة أو فرصا للأفادة من الموقع استغلت استغلالا متفاوتا في العصور المختلفة .. فجزرنا تعد مثلا فريدا يجلو هذا الرأي ، اذ طالما شيد بذكر

موقعها كمقوم دائم على جانب من الأهمية ، كما استند إليه في تفسير بعض نواحي تاريخ هذه الجزر ، بيد أن هذا الموقع لم يكن بكل تأكيد ثابتا خلال عصور التاريخ . فلم تكن بريطانيا مثلا تمثل جزرا طوال تاريخها البشري ، فقد ظلت متصلة اتصالا وثيقا بالقارة أثناء آلاف عديدة من السنوات . خلال العصرين الحجري القديم والوسط . . (انظر شكل هـ)

أما الآن فإن الجزائر البريطانية تتمتع حقا بموقع ينطوي على مميزات واضحة ، فهي تقع قريبا من القارة ولكنها منفصلة عنها ، تلك القارة التي تتصل بها الجزائر من نواحي التكوين الجيولوجي ، وبذلك فهي أقرب جهات أوروبا إلى أمريكا الشمالية . وقد أصبح طريق البحار مفتوحا أمامها بعد أن



شكل (هـ)

بريطانيا وقد اتصلت بالقارة حوالي ٧٥٠٠ قبل الميلاد

(نقلا عن ل. د. ستامب L. D. Stamp)

« اكتشفت الطرق البحرية عبر المحيطات وأصبحت آمنة ، ولذلك أضحت اتصالها ميسورا لا بالعالم الجديد وجنوب افريقية والشرق الاقصى فحسب .. ولكن بالبحار المحلية شبه المغلقة ، وهى بحر الشمال وبحر البلطيق والبحر المتوسط ايضا . كما انه لم تعترض طرق المواصلات البحرية التى تصلها مباشرة بأمريكا الشمالية اية منطقة من اليابس تقع الى غرب الجزائر البريطانية مباشرة ، ولكن دول غرب أوروبا وبخاصة البرتغال واسبانيا وفرنسا وهولندا قد شاركت بريطانيا فى هذه الجبهة الغربية التى تطل على المحيط الاطلسي الشمالي فلمبت كل منها دورها فى التجارة والاستعمار فى الأمريكتين . أما بالنسبة للطريق البحرى لرأس الرجاء الصالح والشرق الاقصى (انظر شكل ٦) فكانت كل من البرتغال واسبانيا تتمتع بمركز يفوق موقع الجزائر البريطانية وهى ميزة لم تقصر هذه البلاد فى الاستفادة منها واستغلالها

وبعد المدى الذى يعتبر فيه الموقع وحده عاملا له أهمية تاريخية موضوعا طريفا ، ففى بعض النواحي مثلا كان موقع إيرلندا يفوق موقع الجزيرة البريطانية وهى اكبر منها مساحة واكثر منها ثروة وسكانا . ولكن هذه الجزيرة الكبرى ، وبخاصة انجلترا ، هى التى أفادت من الفرض التى أتاحتها الوضع الجديد فى الجزائر البريطانية عقب الكشف الجغرافية فى نهاية القرن الخامس عشر وأول القرن السادس عشر . فكان من أهم المميزات التى تمخض عنها هذا الوضع الجديد أن أصبحت الجزائر البريطانية وسط نصف الكرة اليابس المأهول (١) والمعروف حينئذ ، كما أصبحت تقع عند مدخل العالم الجديد الى أوروبا ، وهكذا لم تعد بريطانيا كما كانت « هذه الجزيرة التافهة الصغيرة بأرضها القليلة وطقسها الكريه »

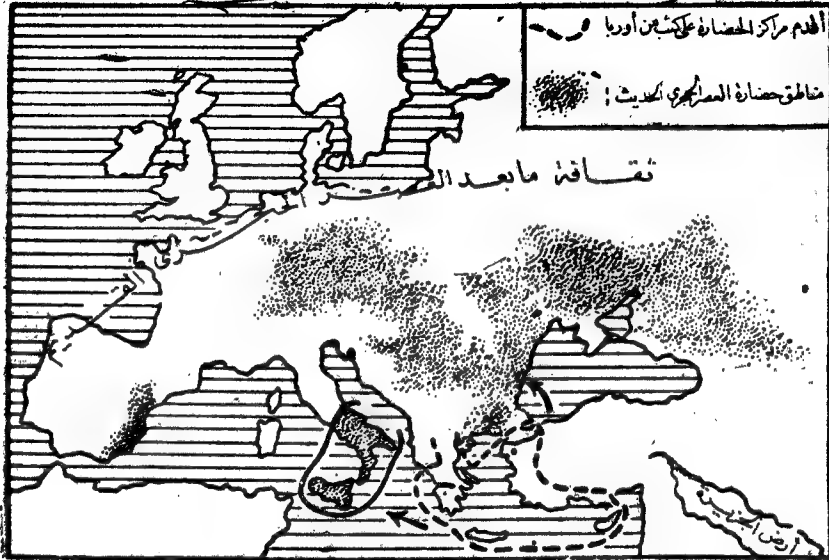
ولكن موقع الجزائر البريطانية فى الفترة الاولى من تاريخنا - كان على عكس ذلك - لاتحسد عليه كثيرا اذ لم يكن مرغوبا فيه ، فقد ظلت لبضعة آلاف من السنوات تقع بعيدا عن أكثر حضارات ذلك العصر تقدما عند أطرافها ، اذ كانت تمثل طريقا مغلقا لا يفضى لشيء فى الطرف الغربى لكتلة اليابس الاوراسي ، شأنها فى ذلك شأن الجزائر اليابانية التى تقع فى طرفه الشرقى ، حقا لقد كان يمر بمياهها الاقليمية طريقان بحريان محليان ، كما كانت البحار الضيقة المحصورة بين بريطانيا وإيرلندا تمثل أحد الطرق التى تمتد بين جنوب غرب أوروبا واسكتلندا وإيسلندا ، ويضاف الى ذلك أن القنال الانجليزى كان طريقا مهما للسفن التى كانت تسير بين البحر المتوسط وبحر الشمال وبحر البلطيق ..

(١) انظر فى هذه الناحية كتاب « British and the British Seas » H.J. Mackinder

الدانيمركيون منذ القرن الحادى عشر - مركزا نائيا للحضارة الاوربية تقع على حافة المحيط المتجمد . ولم تكن هناك مسالك معروفة تتجه نحو الشمال الشرقى او الشمال الغربى لتصل الى الهند والصين بما كان فيهما من ثروات كانت حديث خرافة ، وذلك كما تخيلها علماء الكون ، واخذ يبحث عنها الرواد والمكتشفون فى القرن السادس عشر ، بل أن الطريق القصير نسبيا الذى ينتهى الى البحر الابيض لم يستخدم سوى اثناء حكم الملكة اليصابات

فلو رجعنا القهقرى حتى بلغنا الالف سنة الثالثة قبل الميلاد ، لوجدنا أنه حين كانت طرق الحياة المتمدينة تنتشر ببطء فى أشباه جزر البحر المتوسط وأوربا الوسطى ، كانت الجزائر البريطانية وفرنسا الغربية وأوربا الشمالية من بين أكثر جهات العالم القديم تأخرا وجمودا فى ذلك الحين (انظر شكل ٨) ، فقد وصلت الحضارات المتتالية اثناء العصرين الحجري والبرونزى وأوائل عصر الحديد الى بريطانيا فى وقت متأخر ، وفى صور أصابها الوهن الى حد ما ، حقا استطاعت ايرلندا بفضل حسن استخدام مواردها من الذهب والنحاس أن تكون مهد حضارة زاهرة فى أوائل العصر البرونزى ، مما أفضى الى انقلاب اتجاه تيارات الحضارة رأسا على عقب ، تلك التيارات التى كانت تندفق من الشرق الى الغرب حينما من الدهر ..

ولكن هذه الحقيقة لا تقوض الرأى الذى ذهبنا اليه فى أن الجزائر البريطانية



شكل (٨) : مراكز الثقافة فى أوروبا حوالى ٢٥٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م

كانت بوجه عام - رغم مميزاتها الحضارية الخاصة - تمثل في الواقع مناطق متطرفة امتدت فيها الحضارات التي نضجت على أرض القارة . فعلى حين كانت الحضارة الاوربية تنهض أثناء العصر الحجري الحديث وعصر البرونز معتمدة على انتشار الشعوب والافكار من مراكز الحضارة الاولى (١) مثل مصر والعراق والكويت ودول بحر ايجه ، كانت الجزائر البريطانية تشغل موقعا نائيا غير ملائم كما يبدو مما سبق . . فهي وان لم تكن تقع بعيدا اذا قدرنا البعد على ضوء المسافة الحقيقية فحسب ، الا أنه كان من الصعب الوصول اليها نسبيا اذا عرفنا طرق المواصلات التي كانت سائدة في ذلك العصر

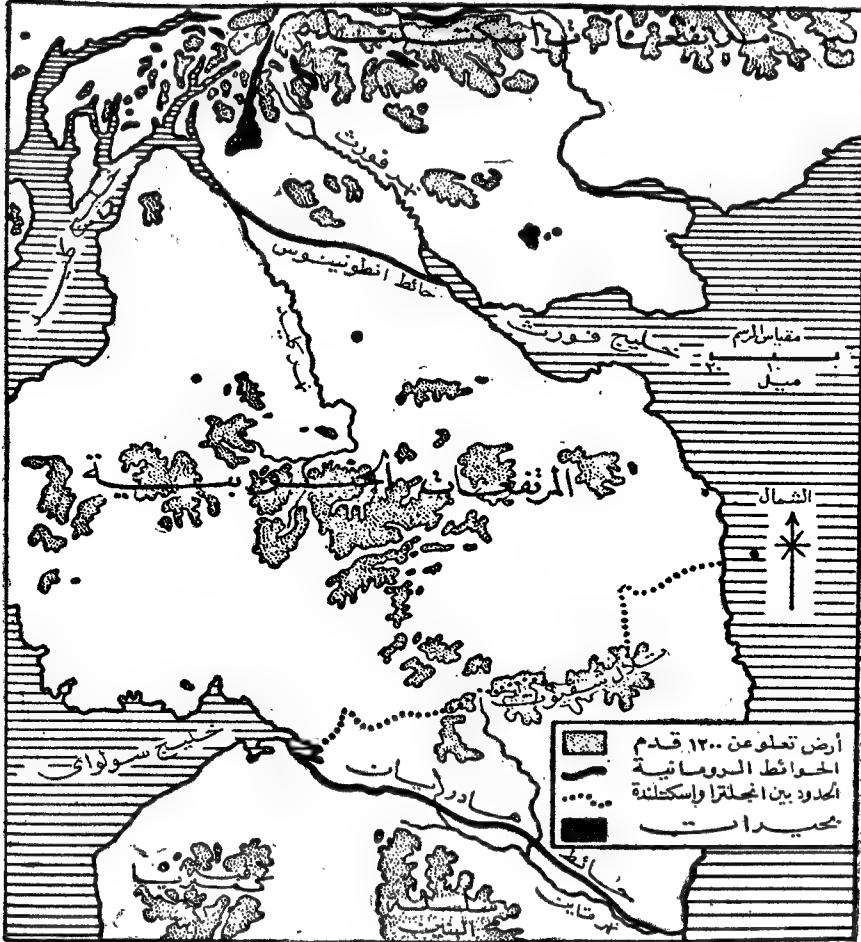


وعلى الرغم من أن انجلترا لم تكن أبعد عن مصر في خط مستقيم - كما يطير الطائر - عن المرية Almeria في جنوب شرق اسبانيا ، فقد وصلت حضارة العصر الحجري الحديث الى المرية قبل أن تصل الى انجلترا بخمسائة سنة أو نحو ذلك ، اذ ربما بلغت هذه الحضارة بلدة المرية عن طريق البحر المتوسط أو أراضي الاستبس المكشوفة في شمال أفريقية ، أما بريطانيا فقد وصلت اليها هذه الحضارة عن طريق قارة أوربا التي كان اختراقها أكثر صعوبة لانتشار الغابات الفسيحة والمستنقعات والعقبات الجبلية

كما لم تكن تشغل الجزائر البريطانية الاموقعا متطرفا أثناء العصر الروماني ، حين كان البحر المتوسط يمثل محور الحضارة الاغريقية الرومانية (انظر شكل ٢) . فقد كان مركز الجذب في الامبراطورية الرومانية سواء بالنسبة للسكان أو التجارة ، يقع في ايطاليا نفسها وحوض البحر المتوسط الشرقي . في مصر وسوريا وسواحل آسيا الصغرى . ولم يكن يستحق تجشم متاعب غزو بريطانيا في نظر الاباطرة الرومان سوى جنوبها وذلك الى جنوب وادى اسكتلنده الاوسط - على حين لم يتم غزو ايرلنده الذي تطلع اليه دون حرص كبير ، القائد الروماني اجريكولا (٢) وكانت الاعتبارات الاستراتيجية التي اثرت في غزو بريطانيا اقوى من الرغبة في الحصول على ثروة حقيقية من وراء هذا الغزو ، لان بعض شعوب انجلترا الجنوبية شدت أزر اقربائهم من سكان غالة ضد روما . فشيدت الفرق الرومانية حائطين عبر (خصرى) انجلترا واسكتلنده ليصبحا خطى دفاع عن الحدود الشمالية الغربية للامبراطورية الرومانية ، حيث طرق الحياة المتأخرة كانت لاتزال سائدة في تلك الجهات . (انظر شكل ٩) ولابد ان كان العمل في الفرق الرومانية لصد غارات البكت Picts والكلدونيين Caledonians وغيرهم من الاسكتلنديين تشبه الحياة

(١) انظر الفصل الثامن (٢) ظن هذا القائد أنه يمكن اخضاع ايرلنده اذا غزاها جيش قوامه سبعة أو ثمانية آلاف جندي فقط

التي يحياها الآن الجنود البريطانيون عند تخوم الهند الشمالية الغربية ، وهو نوع من النفي الحقيقي في هذه الجهات الوحشة ، وعلى هذا النحو كانت تبدو بلاد الاغريق بعد ان انقضى عصر عظمتها بزمان طويل - للموظفين الذين كانوا يرسلون من القسطنطينية الى انهما (لا نفع فيها)



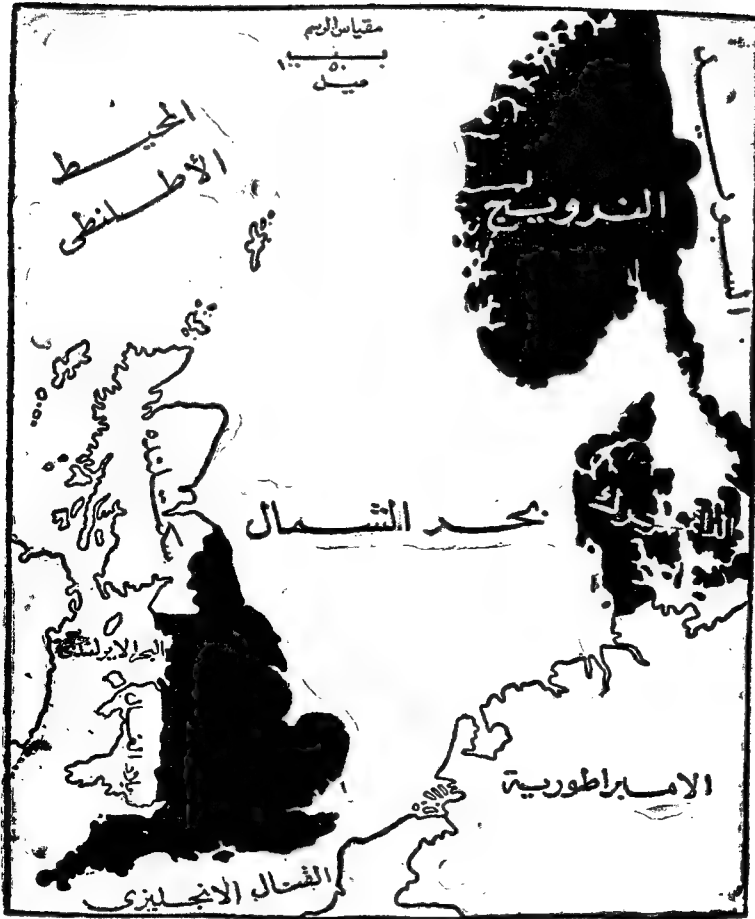
شكل (٩) الحدود الرومانية والحدود الانجليزية الاسكتلندية

ومن الطريف ان موقع ايرلنده - اذا صدقنا ماذهب اليه تاكيتوس Tacitus كان اهم في نظر الرومان من بريطانيا اذ قال : « لو غزيت ايرلنده فسوف تربط اقوى اجزاء الامبراطورية بفضل مزاياها العظيمة ، وموقعها في مركز متوسط بين اسبانيا وبريطانيا . . الى جانب قربها من بحر الغالة . . . فالتجار اكثر

الماما بمدخل أيرلنده وموانئها » ، ورغم ما قد يعوز هذا الكلام من دقة فإن له دلالة جغرافية ، إذ أن شرق بريطانيا - أن لم يكن جنوبها - يواجه الجزء الشمالي من بلاد الغالة الأكثر تأخرا والعالم المتبربر أى غير الرومانى الذى يقع وراء الراين . فالرياح الجنوبية الغربية السائدة كانت تساعد فى الوصول الى أيرلنده الجنوبية والشرقية بتتبع سواحل البرتغال ، وأسبانيا وفرنسا ، أو عن طريق الرحلات البحرية القصيرة من بريتانى عن طريق كورنوال . وتدل الآثار على أن هذا الطريق أو شطرا منه على الأقل كان مطروقا لمدة تقرب من ألفى عام أو أكثر ، وذلك قبل قيام الامبراطورية الرومانية (انظر شكل ٢١)

فقد ظلت بريطانيا زمنا طويلا تقع على أطراف أو عند حافة أوروبا التى تلقت منها السكان واللغات والدين وبعض النظم السياسية على الأقل ، ولكن لم تفرض طبيعة بريطانيا وأيرلنده الجزرية العزلة على أية حال ، كما أنها لم تؤد الى قيام الوحدة السياسية بينها . ولم تكن بريطانيا فى أزمنة مختلفة متطرفة أو منعزلة حين كانت تمثل جزءا من وحدات سياسية أكبر ، ترتبط أجزاءها بعضها ببعض الآخر بالطرق البحرية التى كانت تعبر بحر الشمال أو القنال الانجليزى ، (انظر شكل ١٠ و ١١) كما أن طبيعة بريطانيا الجزرية لم تبعث فى السكان نزعة بحرية دفعة واحدة . فمن المبالغة أن نذهب الى ما ذهب اليه الكتاب الألمان من أن انجلترا ظلت بلدا يسكنه زراع يعيشون بمعزل عن البحر ، كما كانت تجارتها الخارجية كلها فى يد الأجانب وبخاصة جماعات الهنزا Hunsards والبنادقة ، وأن لم يخل هذا الراى من النواحي الصائبة الكثيرة . فلم تكن طلائع البحارة فى العصور التاريخية على الأقل ، الذين يبدو أنهم قد ألفوا المياه المحلية الداخلية فى بحر الشمال والقنال وبحر أيرلنده - من البريطانيين ، ولكنهم كانوا أقواما أتت من شواطئ القارة - من الانجلو سكسون والفريزيين والفيكنج ، الذين وفد الواحد منهم أثر الآخر ..

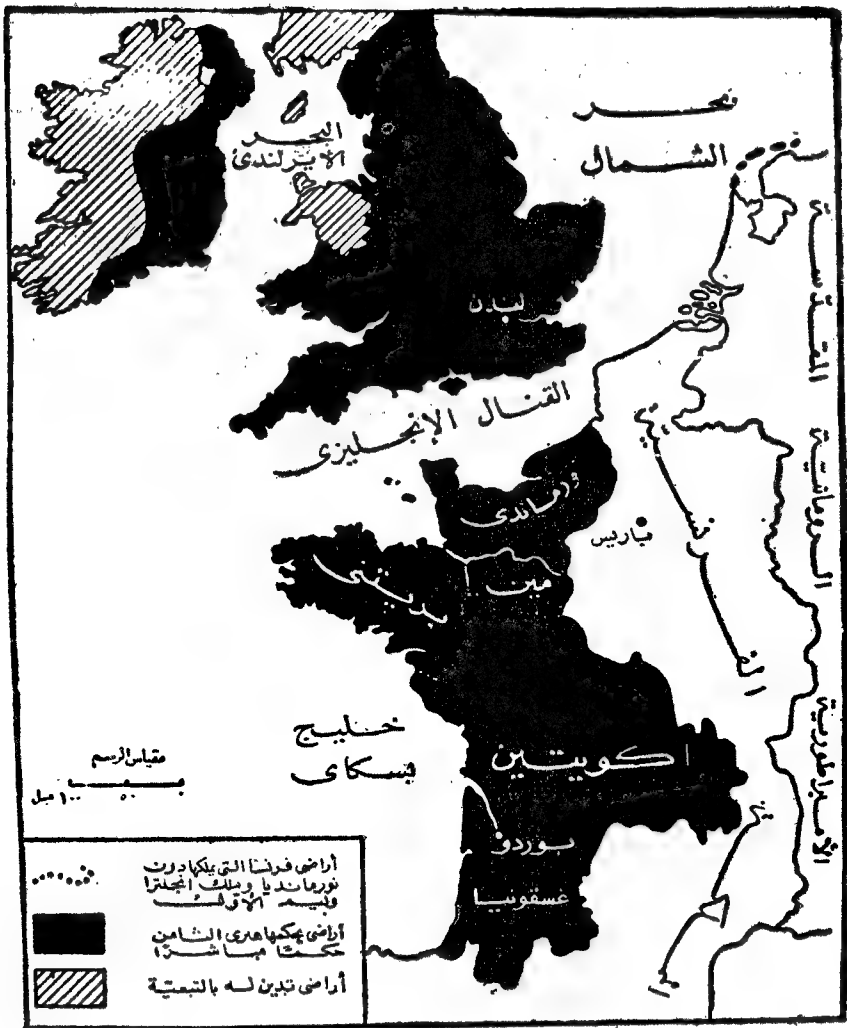
وقد أصبح ملوك انجلترا سادة القنال على الأقل أثناء شطر كبير من العصور الوسطى المتأخرة . كما كان صيادو السمك من الانجليز أثناء القرن الخامس عشر - أن لم يكن قبل ذلك - ينتقلون من بريستول الى آيسلند وكانت السفن الانجليزية تنقل التجارة لأيرلنده وشبه جزيرة أيبيريا وفرنسا وبلاد بحر البلطيق ، ولكن مع ذلك فإن الانجليز كانوا متخلفين فى ميدان هذا النشاط عن البرتغاليين والأسبانيين أثناء العصر الأكبر للكشوف الجغرافية ، وأن كانوا قد لعبوا دورهم أخيرا ، ولكن لم تصبح انجلترا دولة بحرية قوية إلا بعد أن انتصرت على الارمادا سنة ١٥٨٨ ، إذ أصبحت على استعداد لاستغلال كل



شكل (١٠) مملكة كانتوت من ١٠١٤ الى ١٠٣٥ ميلادية
(لاحظ علاقتها ببحر الشمال شبه القلق)

ما تتيحه المسالك البحرية الجديدة في المحيط من فرص

ولنتناول الآن مثلاً يصور أهمية الموقع الجغرافي في فجر التاريخ (انظر شكل ٢١) لا وراء في أن كريت وجزائر سكلادس وطروادة Crete, Cyclades Troy Islands كانت المناطق التي ظهرت فيها الحضارة في أول الأمر على عتبة أوروبا . فلو أن هذه الحضارة التي تتضمن الزراعة والرعي والكتابة وحياة المدن وصناعة المعادن والعمارة وغيرها من الفنون قد نبتت في كريت من تلقاء نفسها - كما يرى البعض - لاصبح حقاً من الصعب أن نعزو كثيراً من الأهمية



شكل (١١) مملكة هنرى الثانى فى أقصى اتساعها
(لاحظ علاقتها بالمسطحات المائية المحدودة فى البحر الايرلندى والقنال الانجليزى)

الى العوامل الجغرافية . فكما قال أحد الذين عرضوا حديثا لهذه النظرية وهو أ. ج. توينبى A. J. Toynbee (أن كريت كبقية عالم بحر ايجه عارية من النبات مقفرة صخرية جبلية قد قطعها البحر المتغلغل فيها اربا) . وقد استطاع أن يفسر قيام حضارة بلاد بحر ايجه في وقت مبكر ، على انها

منفصلة عنها - أقرب الى مصر من أى جزء آخر من أوروبا وإن جزائر سكليدس Cyclades وغيرها من مجموعات الجزائر الأخرى كانت تمثل نقطا للوثوب بين آسيا الصغرى وكريت ، لاصبح هناك ما يدفعنا لان نستخلص أن موقع كريت وجزائر سكليدس الجغرافى كان عاملا له أهميته فى نشوء وتطور حضارة بحر ايجه

ولكن ما مر بكريت من أحداث بين سنة ٣٠٠٠ ، ١٩٠٠ ق . م يطول لنا كيف أصاب التغير موقعها النسبى ، فعلى حين كانت فى أول الامر تقع على أطراف البلاد المتحضرة وهى مصر وسوريا وآسيا الصغرى ، أصبحت بعد ذلك - لما كان لها من قوة بحرية ونشاط تجارى - قطب الرخى فى حوض البحر المتوسط الشرقى (انظر شكل ١٢) ، فامتدت صلاتها البحرية غربا الى صقلية وإيطاليا الجنوبية ، وشرقا الى برجامم Pergamum وقبرص وسوريا ، وجنوبا بشرق الى مصر . ولكن فقدت كريت هذا الموقع المتوسط فى شرق البحر المتوسط ، اذ لم تلبث بلاد الاغريق أن انتزعت منها حين انتشرت الحضارة من كريت الى هذه البلاد الواقعة فى صلب اليابس الاوروبى ، ولكن فقدت بلاد الاغريق بدورها هذا الموقع المتوسط فى ذلك البحر ، فانتزعت إيطاليا التى تبدو كأنما تحتل هذا الموقع بطبيعتها . ولكن موقع إيطاليا وصقلية قبل قيام الامبراطورية الرومانية كان متطرفا بالنسبة لأكثر البلاد المتمدينة فى ذلك العصر

وتعد صقلية أيضا مثالا جديرا بالعناية ببيان كيف يؤدى حدوث تغيير فى الأهمية النسبية لمكان الى تغيير مجرى التاريخ (١) ، فقد كانت صقلية فى بادئ الامر تقع على هامش بلاد بحر ايجه المتحضرة ولكنها أصبحت - كما بقيت طويلا - تحتل مركزا متوسطا فى البحر المتوسط الذى قطع شوطا بعيدا فى سبيل الحضارة ، حتى فقد هذا البحر الداخلى موقعه المتوسط حين أخذت السفن تسلك الطرق البحرية الى الأمريكتين والشرق الأقصى

وفى الختام يمكن أن نضرب مثلين آخرين لتوضيح الأهمية التاريخية التى ترتبط بفكرة الموقع الجغرافى . لماذا كانت البلاد المنخفضة الجنوبية أى بلجيكا الحديثة تخلو الى حد كبير من المدن ، كما كانت متخلفة نسبيا وهى تخضع لحكم الامبراطورية الرومانية ، على حين أصبحت فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى أكثر جهات أوروبا ازدهاما بالسكان ، واكتظاظا بالمدن وتقدما فى ميدان الصناعة ؟ لم يطرأ على موقعها النسبى فى العالم المعروف تغيير بين هذين

العهدين ، فقد كانت البلاد المنخفضة الجنوبية تواجه القنال الانجليزي ، وتقع على كئيب من كل من بريطانيا وبلاد بحر البلطيق ، ولكن مع ذلك كانت هذه البلاد تقع اثناء قيام الامبراطورية الرومانية على اطرافها حين كان ينبض قلبها في بلاد البحر المتوسط ، وحين كان يمتد العالم غير الروماني أو البربري المتأخر نسبيا وراء نهر الرين ..

وقد امتد العمران وانتشرت الحضارة الى بلاد بحر البلطيق في عصر متأخر على يد جماعات تنتمي الى شعوب بلاد الغال ، كما نشأت كثير من الموانئ على سواحل بحر البلطيق ، فضلا عن أن بريطانيا أصبحت أكثر البلاد ازدهارا كما تضاعف انتاجها ، الى جانب أن تقدم فن الملاحة قد ربط الاراضي المنخفضة مباشرة عن طريق المحيط بمدن إيطاليا المزدهرة وبخاصة البندقية وجنوة . حقا ان أية اجابة شافية عن سؤالنا تتضمن اعتبارات أخرى كثيرة ، فاتخاذ الفرنجة الذين شيّدوا امبراطورية قارية نائية عن البحر المتوسط .. منطقة الرين الأدنى نقطة ارتكاز لهم من الناحية الجغرافية لا شك عامل له قيمته . ولكن الواضح ان موقع البلاد المنخفضة النسبي وسهولة الوصول اليها قد تحسن منذ العصور الرومانية ، ولذلك فان ما ينطوي عليه موقعها من مزايا للتقدم الصناعي والانتعاش التجاري التي كانت كامنة غير مستغلة من قبل أصبح من الممكن استغلالها حينئذ (١)

وأخيرا يمكن ان نلاحظ كيف ان نشأة إحدى المدن الفرنسية الكبيرة (ليون) تعزى في بعض نواحيها الى تغيرات طرات على موقعها النسبي ، فلم يكن لهذه المدينة وجود في بلاد الغال في العهد الكلتى أى قبل الفتح الروماني ، ولكن الرومان اختاروها عن قصد واتخذوها عاصمة لبلاد الغال ، ومركزا للطرق في أنحاء البلاد . وهذه الحقيقة تدعو للدهشة أولا لان كثيرا من المدن في بلاد الغال في العهد الروماني كمرسيليا وباريس وأورليان وبورج كانت قد نشأت قبل الغزو الروماني ، وان كانت حينئذ في صورة بدائية الى حد ما . وثانيا ان المكان الذى نشأت فيه ليون يبدو كأنما قد قيضته الطبيعة لان يتخذ موقعا لمدينة ، ومركزا لطرق المواصلات بفضل وقوعه عند ملتقى ثلاثة أنهار ملاحية هي الرون الأعلى والرون الأدنى والساؤون ، بل انها لم تكن تقع عند ملتقى هذه الطرق الملاحية الثلاث التى يمتاز كل منها بظروفه الملاحية الخاصة فحسب ، ولكنها كانت تتحكم في الطرق البرية التى تتبع وديان الرون والساؤون والتى تتجه شرقا لتصل الى إيطاليا مخترقة ممرات الالب الغربية

(١) انظر جوردون ايسن الكتاب السابق صفحات ٣٣٠ - ٣٣٩ للاطلاع على دراسة مسبهة

كما ان عدم ظهور ليون كمدينة من مدن بلاد الغال قبل الغزو الروماني انما يعزى الى موقعها النسبي في ذلك الوقت ، اذ يبدو ان نهر الساؤون كان يمثل حدا بين شعبين كلتيين هما Allobroges, Aedui ، ولما كانت الحروب مستعرة غالبا بين هذه الشعوب ، فلم يكن الموقع الذي قامت فيه مدينة ليون بعد ذلك صالحا لظهور مدينة تجارية ، فالتخوم التي تكون مثار احتكاك ليست خير بيئة ، يستطيع فيها مجتمع مدني أن ينهض ويزدهر ، معتمدا في ذلك على علاقات اقليمية واسعة



المناخ والتاريخ

« ان امبراطورية المناخ هي اولى الامبراطوريات جميعا »
مونتسكيه - روح القوانين

يتناول عدد كبير من المؤلفات ، التى تتناقض تناقضا واضحا ، مشكلة المناخ فى الأزمنة الغابرة ، ولن نجد مشقة فى العثور على دعاة يرون أن التغيرات المناخية كفيفة بتفسير - ولو تفسيرا جزئيا - نشأة الحضارات الاولى فى جهات معينة ، وهجرات الجماعات بل ونهوض الامبراطوريات وانهارها ، فقد ذكر الزويرث هنتنجتن (١) (ان توافر المناخ الملائم شرط ضرورى لقيام حضارة متقدمة) ، كما ذهب أحد المتخصصين فى هذا الميدان وهو س. ا. بروكس (٢) الى انه (ربما كانت مواطن الحضارة الاولى تتمتع حينئذ بأكثر أنواع المناخ تنشيطا وادعائها للانتعاش فى نصف الكرة الشمالى) ، وعلى النقيض من ذلك يرى المؤرخ أ. ج. توينبى (٣) انه (كلما كانت البيئة ذلولا كلما تضاعف الحافز على قيام الحضارة) . وسنتناول بالدراسة فى فصل تال أهمية هذه الآراء فى نشأة الحضارة فى مصر وبلاد العراق وشمال غرب الهند (٤) ، ولكن يمكن أن نذكر فى هذا الصدد اننا لم نهتد حتى الآن الى حل مرض للمشكلة التى تتناول الطريقة التى يؤثر بها المناخ على حياة الانسان ومظاهر نشاطه بطريق مباشر فى الوقت الحاضر . .

فمن الحقائق المألوفة ان اختلاف المناخ اختلافا اقليميا ليس مقصورا على التباين الافقى أى بين بقعة واحدة وأخرى تقعان على منسوب واحد ، بل يشمل كذلك الاختلاف الرأسى تبعا للارتفاعات المختلفة . ولا يعنى الجغرافى بتوضيح أنواع المناخ الرئيسية التى تسود البقاع المختلفة فحسب ، بل يضع كذلك فى المقام الاول من العناية اختلافات المناخ المحلية داخل الاقليم المناخى الواحد ، حسب الارتفاعات والاتجاهات المختلفة وما الى ذلك . ولكن الى أى حد يمكن ان نفتفى اثر فلاسفة الاغريق ومونتسكيه الذين ذهبوا الى ان للمناخ تأثيرا مباشرا على تكوين الانسان الجسمى والعقلى والخلقى ؟

وقد زعم أحد الذين أحسنوا عرض النظرية القائلة بأن للمناخ تأثيرا مباشرا على الإنسان وعلى نواحي نشاطه التي تحفل بها سجلات تاريخه - أن بعض جهات معينة من العالم تتمتع الآن بنوع من المناخ يبعث في الإنسان القدرة على بذل أقصى مجهود جسمي وعقلي (١) ، فقد اعتبر أن وجود مدى حراري فصلي معين ورطوبة نسبية معينة وتغيرات يومية في الطقس خاصة ، تتضافر لتكوين نوع من المناخ يسمى مناخا « مثاليا » ، وهو الذي يسود غرب أوروبا وجزءا كبيرا من الولايات المتحدة وبخاصة شمالها الغربي

ولكن إذا أخذنا بهذا الرأي فسوف نواجه طائفة من الصعوبات الخطيرة ، حتى لو وافقنا على ما ينجم عن حدوث فترات طويلة يسود فيها البرد القارس أو الحرارة المرتفعة ، وبخاصة إذا كانت مصحوبة برطوبة عالية ، من الآثار التي تصيب المجهود البشري بالأضرار القاتلة . فإذا كان المناخ المثالي يوجد في غرب أوروبا وأمريكا الشمالية حقا ، فإننا سنواجه صعوبتين تاريخيتين على جانب كبير من الأهمية هما :

لماذا ظلت الشعوب الأوروبية التي كانت تعيش في ظل ظروف مناخية ، يغلب على الظن أنها لا تختلف بوجه عام عن الظروف التي تسود الآن ، أثناء المدة بين ٥٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق.م ، من أكثر الشعوب التي كانت تعيش حينئذ تأخرًا وتخلفا ؟

وكيف حدث أيضا أن الأوروبيين حين وصلوا إلى أمريكا الشمالية والوسطى وجدوا سكانا من الهنود الحمر لم يتجاوزوا مرحلة الصيد بعد ، ولم يمارسوا الزراعة ، كما كانوا يجهلون استخدام الحديد ، ولا يملكون أي حيوان للحمل أو حيوان مستأنس عدا الكلب ؟

فإذا كان من الخطأ أن ننكر أن للمناخ تأثيرا مباشرا أو قويا على الإنسان ، فإننا سنرتكب خطأ لا يقل عن ذلك خطورة إذا زعمنا أنه يمكن أن ندلى في ضوء معرفتنا الراهنة بأراء عامة موثوق بها في هذا الموضوع الذي يتصل بمشاكل متشابهة ستكون موضع بحث في المستقبل

ولكننا يمكن أن نتحدث ونحن أكثر ثقة عن الآثار غير المباشرة للمناخ على الإنسان ، إذ يؤثر المناخ على الإنسان بطريق غير مباشر وذلك بتأثيره في النبات الطبيعي ، ومن ثم ينفذ هذا التأثير إلى ظروف البيئة وإمكانياتها الاقتصادية ، ولذلك فإن المناخ يمثل إلى جانب التربة والسطح أحد العوامل - وأن كان يعتبر المناخ أهمها - التي تكيف طرق معيشة الإنسان في أمة بقعة أو ما يسمى *Modos de vie* ، وهو تعبير مناسب يعنى به الجغرافيون من الفرنسيين

(وسائل كسب الرزق) وهى أهم آصرة تربط الانسان ببيئته الطبيعية ، اذ توحى الظروف الطبيعية فى آية بقعة للانسان - وذلك داخل حدود تفاوتت مرونتها واحكامها - باتباع طرق معينة لكسب الرزق وممارسة مظاهر خاصة للنشاط الاقتصادى ، ولتناول مثلين واضحين :

فى المناطق الواسعة المكشوفة من النطاق الافريقى الاسيوى من اقليم الاستبس الصحراوى يتعذر قيام الزراعة لجفافها الشديد ، ولكن انتشار حشائش المراعى فيها بين بقعة وأخرى ووجود عيون الماء أو الواحات فى بقاع متناثرة مما يوحى للانسان بل يكاد يملأ عليه ان يتخذ من الرعى حرفة له . أما المثل الثانى فيقع فى منطقة أخرى فى خطوط العرض المعتدلة - اقليم البحر المتوسط مثلاً - حيث تنمو مراعى الاراضى المنخفضة فى فصل الشتاء فحسب الى جانب المراعى المرتفعة التى تظهر فى فصل الصيف الحار فقط ، وفى مثل هذه المنطقة تكاد توحى الطبيعة للانسان بالانتقال وراء الحيوان انتقالاً فصلياً وهو ما عرّف فى التاريخ باسم Transhumance أو النجعة (١) . . فالمناخ - ولنتكرر ما قلناه - يمثل أهم العوامل الطبيعية التى تضع الحدود وترسم الطرق التى يتبعها الانسان لكسب رزقه . .

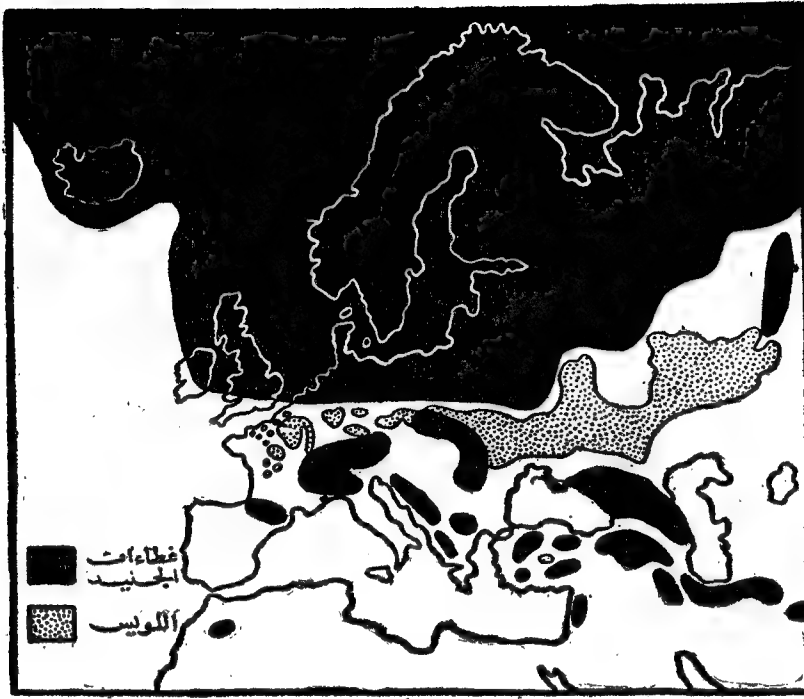
ويرجع ذلك الى ان النباتات جميعها لا يمكن ان تنمو الا فى ظل ظروف مناخية معينة فبعضها كالزيتون مثلاً يستطيع ان يحتمل جفاف الصيف ، أما القمح فانه يحتاج الى فصل نمو معين خلو من الصقيع قد قصر - بفضل عناية الانسان فى استنباط النباتات - حتى يبلغ تسعين يوماً فحسب ، أما الارز والموايح فانهما يحتاج الى قدر أكبر من الحرارة والرطوبة ، بل ان الحشائش التى يربعاها الحيوان لا تستطيع احتمال البرودة المتطرفة أو جفاف الصيف ، وقد اشرنا فيما سلف انه رغم ان الانسان لا يستطيع ان يغير المناخ الا انه يمكنه ان يقلل من قبضته وسيطرته الآسرة بطرق متعددة - فيلجأ للرعى وأعمال الصرف واقامة مصدات الرياح واستنباط النباتات وتربيتها . .

وقد كان للمناخ تأثير دائم فى نشاط الانسان سواء كان هذا التأثير مصدر عون ضرورى له أو عاملاً يتحده ، فاختلافات المناخ الفصلية تعين الى حد كبير الاوقات التى يزاول فيها الزراع أعماله ، كما تحدد ظروف الحرارة والمطر المحلية نطاق انتاج الطعام والمواد الخام النباتية . كما أن توزيع النباتات الطبيعية يتفق أيضاً وتوزيع نطاقات المناخ بوجه عام . . هذا الى أن الغابات بوجه خاص كانت فى العصور المتقدمة مناطق يتعذر اجتيازها ، مما كان يحدد حركات الانسان وتنقلاته

لقد اشرنا فيما سبق انه قد افترض حدوث تغيرات مناخية خلال التاريخ ، وهذه هى الناحية التى تمنينا الآن : هل يجب ان ننظم المناخ فى سلك العوامل الجغرافية المتغيرة ومن ثم يصبح من الخطأ ان نفترض ان انواع المناخ الحالية كانت سائدة فى العصور الماضية ؟ وما هى الادلة التى يمكن ان تساق لتؤيد حدوث تغيرات مناخية فى الماضى ، وماهى طبيعة هذه التغيرات ؟ وهل يمكننا بعد ان نكون قد عرفنا هذه التغيرات - ان نربط بينها وبين فترات التاريخ وما قبل التاريخ ؟ واخيرا هل لهذه التغيرات المناخية دلالة جغرافية او ان اهميتها لا يعنى بها سوى عالم المناخ ؟ او بعبارة اخرى هل حدثت هذه التغيرات على نطاق من الاتساع بحيث تركت آثارا هامة فى النباتات الطبيعية ومبلغ صلاحية بقاع معينة للسكنى وال عمران ، وبذلك يكون قد نجم عنها حدوث تغيرات فى رد فعل الانسان لها ؟

ليس هناك شئ جوهري يدعونا لاستبعاد احتمال حدوث تغيرات مناخية اثناء عصور التاريخ كما يبدو من حقيقتين أولا : انه من المعروف ان التغيرات المناخية الكثيرة التى بلغت ذروتها فى العصر الجليدى الاخير ، قد حدثت اثناء العصور الجيولوجية السابقة . ثانيا : حدوث عدد من الدبذبات المناخية الدورية فى العصور الحديثة كما يدل على ذلك ماسجل من الارصاد الجوية . وتتفق حياة الانسان على سطح الارض التى يقدر طولها ب ٥٠ الف سنة مع الادوار الاخيرة من العصر الجليدى الاخير . ويقسم الجيولوجيون العصر الجليدى فى الزمن الرابع (او الاخير) فى أوروبا وأمريكا الشمالية الى اربعة ادوار او مراحل رئيسية ، اذ كان يعقب كل دور جليدى حين كانت الانهار الجليدية تمتد من اسكنديناوه جنوبا فى السهل الاوروبى الشمالى (انظر شكل ١٣) فترة طويلة تتخلل هذه الادوار يميل فيها المناخ للتحسن ، حتى قد يصبح الجو اكثر دفئا منه فى الوقت الحالى والظروف ملائمة للحياة البشرية ..

وقد بدأ الدور الاخير من العصر الجليدى وهو الفرم Wurm منذ حوالى ٤٠ الف سنة قبل الميلاد ، وظل سائدا فى السويد حتى حوالى ٦٥٠٠ قبل الميلاد ، ولكن عادت الانهار الجليدية تتقدم عدة مرات على نطاق ضيق فى الالف السادسة قبل الميلاد (٦٠٠٠ - ٥٠٠٠ قبل الميلاد) . ويرجع اقدم ما عثر عليه من الانواع البشرية التى كانت تختلف عن النوع المعروف بالانسان العاقل Homs Sapiens وهو النوع البشرى الذى لا يزال يعيش وحده حتى الآن - الى فترة الدفء التى سبقت دور الفرم على الاقل ، وقد أعقب اختفاء انهار الجليد بعد انقضاء دور الفرم عصور التاريخ الحديثة نسبيا وهى تقابل



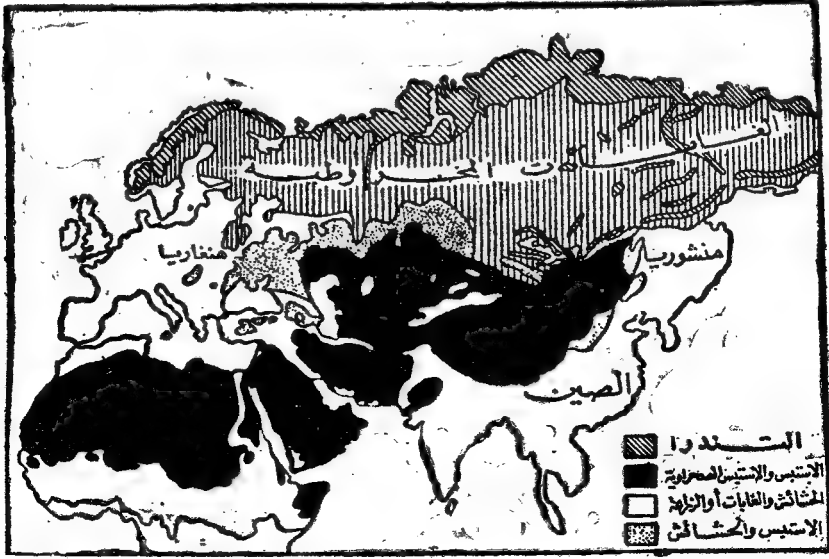
شكل (١٣) : أوروبا في العصر الجليدي

(لم تبين تكوينات اللويس في حوض الدانوب ، انظر شكل ٢٠ بعد ذلك)

فترة دفء أخرى نعيش فيها الآن . ولا نستطيع ان نتكهن بالآلاف السنوات التي تنتظرنا قبل حدوث العصر الجليدي التالي ، ولكن احتمال حدوثه في نهاية الامر لا يفتأ يذكرنا بأننا نعيش في عالم يسوده مناخ متغير

وقد كان تنظيم نطاقات المناخ في أوروبا اثناء آلاف السنوات التي انقضت بين ١٨٠٠٠ و ٨٠٠٠ قبل الميلاد حين كان الجليد يتراجع مختفيا من سهل أوروبا الشمالي - يختلف تماما عنه في الوقت الحاضر ، فكانت منطقة الضغط المرتفع التي ترابط غالبا فوق المحيط المتجمد الشمالي الآن ، تمتد حينئذ بعيدا نحو الجنوب ، ولذلك كانت العواصف التي تهب من المحيط الاطلسي تنحرف جنوبا متنكبة مسالكها الحالية ، فتمر على البحر المتوسط وغرب آسيا في طريقها نحو الشرق ، وكان لهذه العواصف الممطرة تأثير واضح في ارجاء الجزء الشمالي على الاقل من نطاق الصحراء والاستبس في اليابس الافريقي الاسيوي ، (انظر شكل ١٤ و ١٥) ، فضلا عن امتداد تأثيرها أبعد من ذلك

نحو الشرق الى الجزيرة وبلوخستان ووادى نهر السند الأدنى (١) ولذلك كان هذا النطاق الذى يسوده الجفاف الآن يتلقى قدرا متوسطا من المطر الموزع توزيعا حسنا على مدار السنة ، وهكذا انتشرت في هذا النطاق الحشائش أو بالأحرى السافانا التى تشبه ماينمو في الاقليم الذى يقع عند الحافة الجنوبية للصحارى في قارة افريقيا ، وليس هناك ما يدعو الى الشك



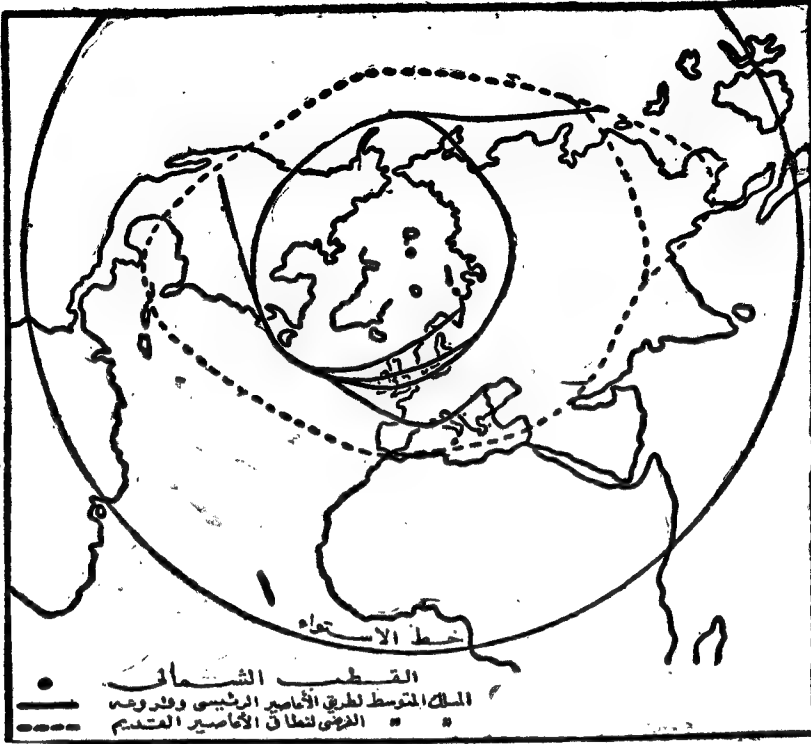
شكل (١٤) خريطة عامة للنباتات في العالم القديم

(لاحظ موقع نطاق الصحراء - الاستبس ، وكيف يفصل أوروبا عن وسط افريقية والأراضي الموسمية في جنوب شرق آسيا)

في حدوث هذه الظروف المناخية والنباتية السابقة لان ما عثر عليه من الآثار يؤيد ما استنتجه علماء المناخ ، اذ استطاع عالم الآثار - بعد ان عثر على رسوم الكهوف وعظام الحيوانات - ان يوضح كيف كانت منطقة الاستبس الافريقية الآسيوية مرتعا لفصائل متنوعة من الحيوانات التى لا تعيش الآن في الجهات الجافة في مناطق الحشائش ، كما استطاع ان يبين ان عددا من انواع الاشجار كان ينمو في هذه الجهات من قبل ، وانه من العبث ان نبحت عنها في ظل ظروف المناخ السائدة الآن (٢) ، فضلا عن انه لا يخالجننا شك في أن ما ذهب اليه عالم الآثار ينطبق - ولو من بعض نواحيه على الاقل - على ما كان يسود اثناء الزمن الطويل الذى استغرقه تراجع الجليد في المرة الأخيرة

(٢) انظر الفصل الثامن

(١) انظر الفصل الثامن



شكل (١٥) : مسالك الإعاصير القديمة والحالية (طبقاً لهنتجتن مع بعض التعديل)

هذا ويمكن أن نبين بإيجاز تأثير هذه الظروف الجغرافية على ما كان يسود في عصور ما قبل التاريخ في النطاق الأفريقي الآسيوي من إقليم الاستبس الصحراوي ، إذ كانت هناك جماعات تحترف الصيد قد بلغت دور العصر الحجري القديم في منطقة الحشائش أثناء العصر الرطب الذي سلفت الإشارة إليه ، وظلت وديان النيل والفرات والدجلة والسند التي أصبحت مهداً للحضارات الأولى دون تعمير أثناء ذلك العصر ، فكانت ملاذاً تأوى إليه الحيوانات المتوحشة ، من الصعب اختراقها ، كما كانت منفرة للشعوب التي تمارس الصيد لما كان ينمو في أرجائها من الأدغال الكثيفة ، ولما انتشر بها من المستنقعات ولتربتها المشبعة بالرطوبة - تلك الشعوب التي كانت تواجه صعوبة في التنقل والحركة في مناطق الحشائش التي تمثل بيئة صالحة لذلك

ثم طرأ على المناخ تغير على اثر تراجع الجليد من السويد الجنوبية والوسطى، فانتقلت نطاقات المناخ نحو الشمال الى مواقعها الحالية تقريباً ، وكانت هذه هي الظروف السائدة حوالى الالف سنة السادسة قبل الميلاد ، ولكن ما الآثار

الجغرافية والتاريخية التي ترتبت على هذا التغير البعيد المدى ؟ أولا - حدثت تغيرات تسترعى الانتباه في غطاء النبات الطبيعي ، فتوغلّت الأشجار من الأنواع المخروطية والنفضية من جنوب شرق أوروبا وانتشرت على نطاق واسع في جهات شاسعة من اليابس الأوروبي الذي شمل السهل الأوروبي الشمالي ونصف اسكنديناوة الجنوبي . ولم يترك تحسن المناخ تأثيرا واضحا على ثقافات الشعوب الأوروبية الجامدة ، التي ظلت أثناء الثلاث آلاف سنة التالية تعيش في نفس مستوى حضارة العصر الحجري القديم ، تمارس صيد البر والبحر وجمع الطعام ، بينما كانت تجهل الزراعة وصناعة الفخار والمعادن والفنون المدنية واستخدام الحيوانات المستأنسة ماعدا الكلب

وقد حرمت مناطق الحشائش في أراضي اليابس الأفريقي الآسيوي من أعاصير المحيط الأطلسي المطيرة حين انتقلت النطاقات المناخية شمالا ، فقاومت هذه الجهات - نتيجة لذلك - جفافا تدريجيا وتغيرت ظروف البيئة مما انطوى على تحدى الإنسان واستثارة همته في هذه المناطق ، فحلت محل المراعى الفنية التي كانت تنتثر فيها الأشجار ، مناطق جافة تنتشر فيها الحشائش المبعثرة الفقيرة الجافة والواحات التي كانت تظهر بين الحين والحين، فلجأت الحيوانات التي كانت تعيش في مناطق الحشائش ازاء ظهور هذه الظروف الجديدة الى الهجرة على نطاق واسع ، فانتقلت من شمال افريقيا مثلا الى الجنوب ونحو الشمال في قارة أوروبا ، ولم يكن تأثيرها على الإنسان أقل أهمية ، أذ ربما يفسر هذا التغير المناخى التحول الفجائى من نظام الاقتصاد البدائى الذى يقوم على الصيد الى نظام يقوم على انتاج الطعام وهو النظام الذى أتبعته شعوب المدينيات الاولى

واكثر الآراء التي لاقت قبولا تلخص في أنه (١) : أتبع لسكان نطاق الصحراء والاستبس أن يتخيروا أحد أمور ثلاثة : فقد كانوا يستطيعون الهجرة بحثا وراء بيئة قد ألفوها اكثر ملائمة لحياتهم مقتفين اثر الحيوانات البرية التي كانوا يقتاتون منها ، كما كان يمكنهم ان لا يرحلوا موطنهم ومن ثم يصبح لزاما على كل الذين استطاعوا ان يحتملوا هذه الظروف القاسية منهم ان يغيروا طريقة معيشتهم ، وأخيرا كانوا يستطيعون ان يفكروا في احتراف طريقة جديدة لكسب رزقهم بممارسة الزراعة وتربية الحيوان، مما يمكنهم من الانصراف لاستغلال امكانيات وديان الانهار التي كان السكان غافلين عنها من قبل ، والواقع انه يبدو أن الجماعات المختلفة قد سلكت هذه الطرق جميعها ، وسنجتزئ

(١) انظر Gordon Childe في كتابه The Most Ancient East ١٩٢٩ ، والفصل الثانى من كتابه « دراسة التاريخ » مؤلفه و ١٠ ج. توينبى الجزء الاول ١٩٢٤ ص ٣٠٢ - ص ٣٠٥

بذكر نيتجتين تسترعيان الانتباه :

الاولى هى ظهور حضارة العصر الحجري الحديث بين سكان القرى القائمة على اطراف وديان النيل والفرات والدجلة حيث مارسوا الزراعة واقتنوا الحيوانات المستأنسة وصنعوا الفخار وأبدوا براعة فى الفنون الاخرى ، وذلك لاول مرة حوالى ٥٠٠٠ قبل الميلاد (١) . اما النتيجة الثانية فقد تجلت فى ظهور حرفة الرعى كطريقة من طرق المعيشة فى نطاق الاستبس الصحراوى ونعنى بكلمة Nomadism (رعى الماشية) او انتقال القطعان والانعام من بقعة لآخرى انتجاعا للكلأ القليل ، وهكذا يمكن أن تؤكد حدوث تغيرات مناخية من الممكن تقدير مدتها وقعت اثناء التاريخ البشرى ، وان كانت طبيعة هذه التغيرات التى نزعم حدوثها فى جهات معينة وفى ازمة معينة لازالت ماثرة جدل كثير

وقد تباينت آراء الجغرافيين وعلماء الآثار والمؤرخين الذين لم تكن عنايتهم بهذه الامور بأقل من علماء المناخ ، عنى بها جميعهم ، ومن الواضح أن كثيرا من المشاكل نشأت نتيجة لمحاولة تقويم الادلة الجزئية المتناثرة التى استمدت من دراسات المختصين فى ميادين مختلفة للتوفيق بينها . وبذل بعض المختصين جهودا شاقة كلل بعضها بالنجاح ، ليثبتوا ان المناخ قد ظل دون أن يطرأ عليه تغير منذ أقدم العصور التاريخية ، ولكن توخى البعض جانب الحيطه ، فقصر دراسته على محاولة اثبات أن المناخ قد ظل فى أساسه دون أن يصيبه تغير فى زمن معين اذا قورنت ظروفه بالوقت الحالى ، ولكن يجب أن نذكر - فيما يتعلق بهذا الراى الاخير - انه لايعنى عدم حدوث ذبذبات مناخية فى الفترة التى انقضت بين ذلك العصر الذى نعنيه وبين العصر الحاضر وقد استطاع ج . و . جريجورى (٢) بعد أن قام بدراسة دقيقة للظروف المناخية التى يحتاج اليها نخيل البلح ، وتوزيعه فى الازمنة التى أشار اليها الانجيل والعصر الحاضر ، ان يبين ان متوسط الحرارة فى فلسطين لم يختلف فى هذين العصرين تقريبا ، ولكن دراسته لم تسفر عن استبعاد حدوث تغير فى المطر . وعلى هذا النحو يمكن أن نتساءل هل كان نصيب الصحراء الكبرى وشمال افريقيا من الرطوبة فى الازمنة الرومانية اكثر منه الآن ؟ وهو سؤال كان موضع جدل كثير . فقد ذهب هنتنجتون الى انه قد مرت فترة أكثر رطوبة من الوقت الحاضر بين ٢٠٠ قبل الميلاد و ٢٠٠ ميلادية ، وان المطر قد اخذ يتناقص تناقصا مضطربا اثناء القرنين التالين حين أصاب الامبراطورية الرومانية الاضمحلال ، كما اقترح كذلك ان هذا التغير المناخى المزعوم بين ٢٠٠ و ٤٠٠ ميلادية كان من الاسباب التى ساعدت على حدوث اضطرابات فى النواحي

الزراعية والاجتماعية في ايطاليا بل والتي ادت الى تداعى الامبراطورية الرومانية نفسها ..

ويجب أن نذكر أن بعض الاسانيد التي اعتمد عليها هذا الفرض قد فسرت تفسيرات متناقضة غير مقنعة أو قاطعة ، اذ لا يمكن أن نطمئن دائما الى ان دمار المدن ، وهجر طرق القوافل ، واختفاء وانقراض الحيوانات التي ترتبط عادة بمناطق الحشائش الرطبة ، يدل على ان المطر قد هبط في هذه الجهات شبه الجافة . فنحن نعرف مثلا أن الفيلة التي كانت منتشرة في افريقيا الشمالية في اول عصور التاريخ الروماني ، لم تلبث أن اختفت تقريبا عقب سقوط روما مباشرة ، ولكن مع ذلك فانه يبدو أن انقراضها يعزى قبل كل شيء الى الرومان انفسهم ، اذ كانوا يستخدمون عددا كبيرا منها في الحروب ، فضلا على أن اختفاء المدن المزدهرة الذي يسترعى الانتباه مثل مدينة تمجاد Timgad في تونس ، وتدمر Palmyra في سوريا الشرقية وكلاهما يقع الآن في مناطق قاحلة ، انما يرجع الى حد ما الى عدم اقبال الانسان على مواصلة بذل الجهود الضرورية في الكشف عن المياه وتوزيعها ، وهى شئون تفوق فيها الرومان بوجه خاص

ومن جهة أخرى فانه يمكن ان نجد في ظروف المطر التي كانت سائدة في كاليفورنيا والتي تتوافر لدينا الادلة عنها مثلا لما كان يسود اقليم البحر المتوسط كما يرى هنتنجتون ، لان كاليفورنيا الغربية يسودها الآن مناخ البحر المتوسط ، فلو صح هذا الزعم فقد تكون ظروف المطر في شمال افريقيا قد طرا عليها مآذكرناه من قبل في الفترة بين ٢٠٠٠ قبل الميلاد و ٤٠٠ ميلادية وقد اعتقد المؤرخ الفرنسى جزيل Gsell الذى توافر على دراسة شمال افريقيا باهتمام بالغ ، أن المناخ في تلك الجهات اما لم يطرأ عليه تغيير البتة ، او كانت رطوبته أكثر قليلا في العصور الرومانية عنه في الوقت الحاضر ، وصفوة القول أن الادلة تميل لترجيح ما انتهى اليه جزيل على غيره من الآراء ، فلو صح هذا فان من الخطأ ان نتلمس في التغيرات المعاصرة في المطر تفسيراً للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الامبراطورية الرومانية ، اذ يبدو واضحا ان الجفاف بين ٢٠٠ و ٤٠٠ ميلادية لم يبلغ حدا يكفى لاحداث اثار او رد فعل واضح في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في روما فبينما حاول البعض ان يسوق البراهين على ثبات المناخ واستقراره ، تمسك البعض الآخر برأى يقول ان بعض مناطق معينة قد أصابها جفاف تدريجى ، ولدينا ادلة واضحة كثيرة تؤيد هذا الرأى . فلا مجال للشك في أن مايسقط من الامطار في بعض جهات العالم الآن أقل مما كان يصيبها في فترة مبكرة من التاريخ ، فالمناخ الحالى في مصر وبلوخستان الجنوبية أكثر جفافا

مما كان عليه مثلا في الالف سنة الثالثة قبل الميلاد (١)

ويشبه ذلك ما انتهت اليه دراسة دوغلاس (٢) الدقيقة عن اشجار sequoia (٣) في كاليفورنيا التي اوضحت أن المناخ هناك أصبح أكثر جفافا مما كان عليه في القرن الاول الميلادي ، ويصدق هذا القول على البحر المتوسط الشرقي لو أخذنا بوجهة نظر هنتنجتون . فضلا عن انه من الممكن أن نذهب الى أن آسيا الوسطى أكثر جفافا في الوقت الحاضر مما كانت عليه سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد مثلا ، والادلة على ذلك كثيرة جدا ، ولكن مشكوك في صحتها

ومن ناحية أخرى فان القول بأن بعض الجهات قد أصبح الآن أكثر رطوبة مما كان عليه من قبل ليس أقل مثارا للشك ، اذ من الصعب أن نعتقد أن حضارة مايا Mayas التي استرعت الانتباه في يوكاتان Yucatan في امريكا الوسطى قد تمكنت من الازدهار - كما حدث لها في الفترة بين ١٠٠ قبل الميلاد و ٣٥٠ ميلادية - في ظل ظروف نباتية ومناخية تشبه مايسود تلك الجهات الآن ، اذ تقوم اطلال حضارة المايا شاخصة في كثير من البقاع التي تسودها ظروف الحرارة والمطر وتنمو فيها الادغال التي تميز الجهات المدارية في الوقت الحاضر ، وبذلك تنشأ في أقل البيئات ملائمة من النواحي الصحية وأكثرها مشقة في المنطقة كلها . وأخيرا فان افتراض حدوث الجفاف المضطرد يتعارض مع الادلة المختلفة التي تشير الى وقوع تغيرات اوذبذبات في المطر طوال الأزمنة التاريخية

ويجد الرأي القائل بأنه يجب أن نتخيل ان المناخ في عصور التاريخ المختلفة قد تعرض للذبذبات ، فلم يكن مستقرا أو ثابتا كما أنه لم يطرأ عليه جفاف مضطرد تدريجي - الادلة التي تؤيده ، لانتيجة لدراسة التغيرات الطويلة الامد في العصور الجيولوجية فحسب ، بل كذلك نتيجة لدراسة التغيرات القصيرة الاجل في الوقت الحالي . وقد يكون ماعرف بالدورة الشمسية التي تستغرق احد عشر عاما والتي كشفت عنها دراسة ماسجل عن الاشعاع الشمسي كما يذهب هنتنجتون (يقابل الذبذبات التي تفوقها طولا والتي حدثت في الماضي السحيق) اذ يتأثر الاشعاع الشمسي كل احد عشر عاما تقريبا بظهور عدد كبير من البقع الشمسية على سطح الشمس ، ولكن ليس من الواضح ماهية التغيرات التي تحدث حين تكثر البقع الشمسية ، وان كان من المؤكد ان الجزء الأكبر من سطح الارض يصبح أكثر برودة الى حد محدود ، فضلا عن كثرة حدوث العواصف وانحراف الاعاصير في أوروبا وأمريكا الشمالية الى الشمال والجنوب عن

(١) انظر الفصل الثامن Douglas . (٢)

(٣) أشجار مثمرة من نوع الكافور تظهر لها حلقات متتالية من اللحاء كل عام تختلف في شكلها ولونها باختلاف كمية المطر ، وكانت موضع دراسة في كاليفورنيا (المترجم)

مسالكها المألوفة كما يرى هنتنجتون ..

وقد يؤدي ذلك بنا الى توقع انه اذا توافرت السجلات لازمنة طويلة كافية لاصبح من الممكن أن نكتشف حدوث دورات الكلف الشمسى فى فترات تمتد أكثر من احد عشر عاما ، ولو لقيت مزاعم هنتنجتون ما يؤيدها ، لاصبح من الممكن أن نفسر تغيرات المناخ اثناء عصور التاريخ ، بالاختلافات فى بقع الكلف الشمسى - مهما كان سببها - تفسيراً جزئياً

وليس مما يدعو للدهشة أن تترك ذبذبات المناخ فى العصور التاريخية أكثر آثارها وتبدو أكثر أهمية فى الجهات الجافة وشبه الجافة حيث يفضى اختلاف يسير فى المطر الى نتائج يظهر أثرها على النبات الطبيعى ومن ثم على الحياة الحيوانية والإنسان . وقد يكون من المفيد أن نشير باختصار الى أنواع الأدلة التى لازالت قائمة حتى الآن فى هذه الجهات ، فالسواحل القديمة فى البحار الداخلية والبحيرات وبخاصة بحر قزوين ، والبحر الأسود، ولوب نور فى آسيا الوسطى ، وبحيرة موريس فى مصر ، وبحيرة كونستانس فى سويسرا وعدد من بحيرات كاليفورنيا وارىزونا - تدل على حدوث تغيرات فى مستوى المياه ، وبذلك فإنها تمثل تغيرات مناخية يمكن غالباً تحديد أوقاتها ببعض التوكيد ..

وقد كانت بقايا جذوع الأشجار المعمرة المعروفة فى كاليفورنيا وارىزونا باسم Sequoia موضع بحث محص أسفر عن عمل رسوم بيانية لتساقط المطر فى فترة من الزمن تعود بنا الى الراء الفى عام بل ثلاثة آلاف ، لانه لامراء فى صحة الافتراض القائل بأن حلقات اللحاء السنوى التى تظهر فى بعض الأشجار فى الاقاليم الجافة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بظروف المطر الذى يسقط فى السنوات القليلة السابقة لتكوينه ..

هذا الى أن ماحفظه الزمن من آثار وكتابات تبين كيف حدث فى الجهات الجافة وشبه الجافة أن نمت الحضارة واضمحلت ، وكيف هجرت المدن ، وطرق التجارة ، وكيف جفت الأنهار والآبار ، وكيف أصاب الحيوانات والنباتات البرية التغير ، وأخيراً فإن ما يقال عن حدوث ظروف مناخية شاذة من عواصف عنيفة وفيضانات ومن مواسم شاذة .. لايدل على وقوع تغيرات عادية فى الطقس بين عام وآخر فحسب ولكن فى صورة دورات طويلة من المناخ ذات مميزات واضحة أيضاً

وقد ادعى كل من « بترسن » Petterson و « هنتنجتون » أن النصف الاول من القرن الرابع عشر يمدنا بمثل واضح جداً لعصر قد بلغ فيه شذوذ المناخ الذروة فى نصف الكرة الشمالى . فقد كان بحر الشمال وبحر البلطيق معرضين لهبوب العواصف بعنف شديد وقوة مدمرة ، كما غمرت مناطق السواحل فى إنجلترا

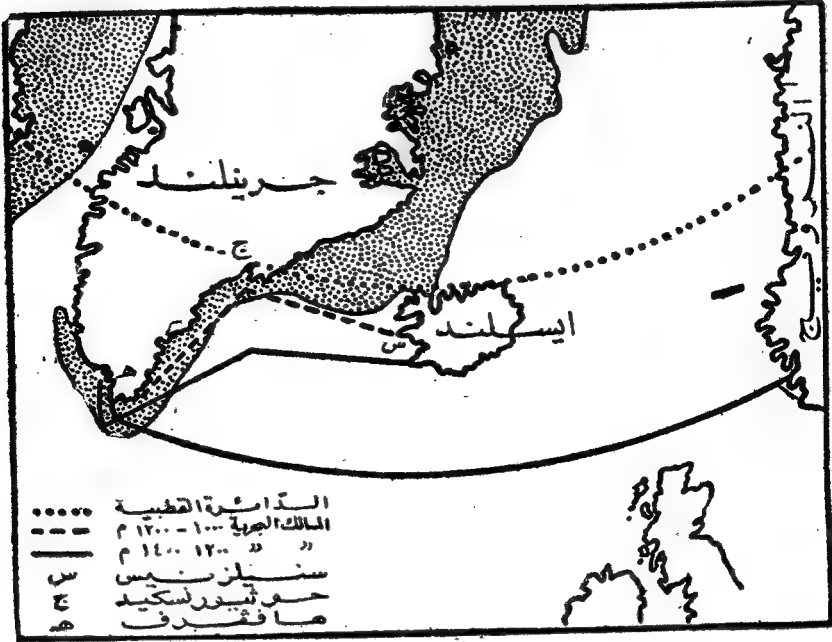
وهولنده وفريزيا Frisia وجتلند Jutland عدة مرات ، فحدثت
تغيرات في الظروف الجغرافية الطبيعية والبشرية

وقد اتخذت الجزائر الفريزية الواقعة على مقربة من سواحل هولندا شكلا
جديدا في ذلك الوقت ، كما اخذ بحر زويد رذى Zuiderzee شكله المألوف الآن
وقد اكتسحت موجات المد القسرى على سواحل هولدرنس Holderness
ولنكولنشير Lincolnshire ورافنسر أود Raveniser Odd ، وتعد الاخيرة
ميناء بحريا تقع بالقرب من نهر الهمبر في انجلترا . وكان الشتاء
حينئذ شديد البرودة غالبا في أوروبا على حين كان الصيف يميل للبرودة
والرطوبة في أكثر الاحيان ، وكما كانت انهار أوروبا الكبرى التى تشمل التيمز
والتي تتجمد لبضعة أسابيع بل لبضعة شهور متصلة عرضة للفيضانات
الشاذة ، كانت تجف تماما أثناء الصيف لعدة سنوات . ويغلب الظن أن
انهار الجليد قد امتدت في ايسلنده في النصف الاول في ذلك القرن أكثر مما
حدث لها منذ بدء التاريخ الميلادى ، وقد تأثرت جرينلند تأثرا سيئا ، كما ادى
اخفاق المحصول في النرويج الى زيادة اعتمادها على موارد الحبوب التى كانت
تستمدّها من السهل الالمانى ، وبذلك أفضت هذه التغيرات المناخية عن طريق
آثارها الاقتصادية الى حدوث كثير من المتاعب السياسية التى ظهرت في ذلك
العصر . ومن المعروف أن (الرنجه) قد كفت حوالى سنة ١٤٣٠ ميلادية عن
أن تذرّع مياه بוגاز السوند Sound ، وهاجرت الى مضيق كاتجيت
Kattegat لزيادة عدوبة المياه في بוגاز السوند ، التى ترتبت على حدوث
تغيرات في حركة مياه المحيطات في ذلك العصر ، واعترض الجليد المسالك
الملاحية التى كانت تمتد في عرض البحر بين النرويج وايسلنده وجرينلند ،
تلك المسالك التى كان يتبعها الفيكنج كثيرا في رحلاتهم في الفترة بين القرنين
العاشر والثانى عشر . ولم يأت القرن الرابع عشر حتى كانت هذه المسالك
قد اتجهت الى جنوب الطرق القديمة مضطرة (انظر شكل ١٦)

ولم تكن هذه المظاهر الشاذة للمناخ مقصورة على أوروبا ، ففي كاليفورنيا
غزر المطر عن العادة في القرن الرابع عشر ، ويشبه ذلك ماحدث في آسيا
الوسطى كما يدل على ذلك مستوى المياه في بحيرة لوب نور وبحر قزوين الذى
يدل على سقوط المطر الغزير في العقود الاولى من ذلك القرن على الاقل . أما
في الهند من ناحية اخرى فان الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الممطرة كانت
من الضعف بحيث قاست البلاد الجفاف والقحط نتيجة لذلك ، كما اختفى في
شمال غرب الهند أحد الانهار - وهو نهر مهران القوى الذى شارك نهر السند
فترة طويلة في حمل المياه من الهملايا وذلك حوالى سنة ١٣٥٠ م (انظر

شكل (٥٧) (١)

ويمكن أن نضيف الى ذلك أن هناك تفسيراً للتغير المناخي الذي حدث في القرن الرابع عشر ، كما أن ماسجل من البقع الشمسية في الصين يشير - رغم أننا نعترف أن قيمتها العلمية مشكوك فيها - الى أن عددها قد ازداد أثناء القرن الرابع عشر حتى بلغت الذروة حوالي سنة ١٣٧٢ م. أما بترسن الذي توافر على دراسة التغيرات في وضع الشمس والقمر كل بالنسبة للآخر فقد ذهب الى أن القوة التي تنشأ من المد tide generating force قد انتقلت من أدناها حوالي سنة ٥٣٠ ميلادية الى قمته سنة ١٤٣٤ ميلادية ، وطبقاً لهذا الرأي الأخير فإن زيادة التباين في حركات المد في القرن الرابع عشر قد ضاعف من حركة المياه في المحيطات وأفضى الى زيادة نشاط الأعاصير.



شكل (١٦) : مسالك الملاحة البحرية في العصر الوسيط الى جرينلاند
(طبقاً لبترسن Petterson : المنطقة المنقطعة تدل على مدى انتشار الجليد في البحر عادة)

ويمكن أن نختم هذا العرض للتغيرات المناخية أثناء التاريخ بأن نسرِد باختصار قصة سكنى الفيكنج الحافلة بالبطولة في جرينلاند الجنوبية ، إذ أنها

تعد مثلاً جلياً ليس من السهل دحضه أو رفض قبوله لحدوث تغير مناخى غير ملائم وتأثيره على سير التاريخ (١) ، ويجب أن نذكر أنه حتى حين كانت تتمتع جرينلند الجنوبية بمناخ ملائم نسبياً في آخر القرن العاشر ، كانت تعتبر منطقة متطرفة من الناحية المناخية لقيام الحياة في أوروبا المتحضرة التى تعتمد على انتاج الغذاء ، وقد أطلق هذا الاسم على هذه الجزيرة وتعنى الأرض الخضراء على سبيل الدعاية ، اذ أطلقه أحد طريدى العدالة الذى هرب من ايسلند ويدعى ارك الاحمر Eric the Red لكى يجتذب المهاجرين اليها . ولكن استطاع مع ذلك عدد من المهاجرين من ايسلند أن يسكنوا الجهات الساحلية في جرينلند الجنوبية في أواخر القرن العاشر ، حيث تمكنوا أن يقيموا أودهم معتمدين بوجه خاص على رعى الماشية والاعنام في الوديان وعند رؤوس الفيوردات وعلى طول حوافها حيث كانت تتوافر المراعى وتدل مواقع المزارع القديمة على المدى الذى بلغته هذه الجهود الاستعمارية الجريئة ، وتقوم مقابر المستعمرين في تربة تتجمد الآن طول العام ، وتحتوى على كتلة سميكة من جذور النبات الذى لا بد أنه كان ينمو من قبل ، حين كانت الحرارة أقل تطرفاً وقسوة عنها الآن . ويبدو جلياً انه أثناء مراحل الاستعمار الأولى كانت حافة انهار الجليد في جرينلند تمتد الى الشمال أكثر مما هي عليه الآن ، كما كانت البحار التى تمتد بين ايسلند وشواطئ جرينلند الجنوبية طليقة

وقد أخذ المناخ يسوء منذ حوالى سنة ١٢٠٠ م بل أصبح أكثر قسوة في القرن الرابع عشر ، وحينئذ أخذ هذا الاضمحلال البطيء الذى تعرضت له هذه المستعمرات يخطو بها سريعاً نحو الانقراض الذى وقع في القرن التالى . وقد انتقل الاسكيمو الذين كانوا يمارسون صيد سبع البحر بالقرب من حافة الجليد نحو الجنوب أثناء القرن الرابع عشر وهاجموا مستعمرات الفيكينج ، ويدل انتقالهم على هذا النحو الى الجنوب على انتشار الجليد في هذا الاتجاه ومن الواضح أن الفيكينج قاسوا من الآثار السيئة التى نجمت عن تزايد البرودة وما خلفته من آثار تضر بحياة النباتات الطبيعية ، مما قوض حرفة رعى الحيوان لديهم ، الى جانب تراخى ووهن العلاقات بينهم وبين ايسلند والنرويج التى كانت تربطهم بها رابطة السياسة . ومن الواضح أنهم كانوا عاجزين عن اتباع نظام يشبه نظام حياة الاسكيمو ، فرغم ثقافتهم المادية

(١) للحصول على دراسة مسبهة لهذا التعمير الذى اضطلع به هؤلاء الرواد وأخفاقه انظر كتاب Viking Settlers in Greenland تأليف Poul Norlund وترجمة W. F. Calvert سنة ١٩٣٦ ، وانظر فيما يتعلق بمشكلة تغير المناخ دراسة محكمة قائمة على اسس وأسباب المذكورة في المرجع نفسه صفحات ١٤٥ - ١٤٨

العالية لم يستطيعوا الدود عن حياتهم ، وتجلو لنا دراسة الهياكل العظمية -
 لآخر من استطاع منهم البقاء قصتهم التى تستدر العطف والاسى ، فقد
 انحدر من نسل هؤلاء الرواد الشديدى المراس الاقوياء الشكيمة من الفيكنج
 « قوم أصابهم الركود يتألفون من أفراد قد استبد بهم السقم حتى أصبح
 جرمهم ضئيلا وشكلهم شائها »



الطرق

« يمتد الطريق كائن لا يحى على أديم الأرض ، وهو يلقى ببذور الحياة ...
المنازل والداكر والقرى والمدائن »
(ب . فيدال دى لابلاش : مبادئ الجغرافيا البشرية ١٩٢٦)

يعنى بدراسة الطرق سواء البحرية أو المائية أو الجوية الجغرافى والمؤرخ على السواء ، فيعنى الاول منها انها تمثل طرق النقل المستخدمة الآن كما تبدو كمعالم قد تغفلت فى البيئة ، فتفسرها فى مقدمة ما يعنيه . أما أهميتها للثانى فلأنها تمثل الوسائل الرئيسية التى تنتشر عن طريقها الجماعات والافكار ومظاهر النشاط فى التجارة والرحلة والحرب . ولسنا بحاجة الى أن نؤكد أن الطرق فى صورها المتباينة - مثل مسالك الصيادين وطريق الماشية ودرب البغال والطريق الذى يتبع حافة المرتفعات ، والطريق الذى يشيده المهندس فى عهد الرومان أو العصور الحديثة - قد لعب فى كل مكان طوال التاريخ دورا حيويا « كضرورة لاغناء للمجتمع المنظم عنها » (١)

وتعد السبل أو الطرق التى تحفل بها عصور التاريخ مثار كثير من المشاكل من وجهة نظر الجغرافيا . . الى أى مدى - هذا اذا صح القول - نستطيع أن نفترض وجود « طرق طبيعية » أى طرق اختارتها الطبيعة أو هيأتها ليستطيع الانسان أو الحيوان أن يسلكها ؟ هل هناك ما يؤكد أن طرق الانسان الاولى كانت دروبا سلكتها الحيوانات المفترسة ؟ أو هل يجب علينا - على نقيض ذلك - أن نتصور الطرق كمظاهر قد صنعها الانسان وحده ورسومها أو خطها على أديم الأرض ؟ وأخيرا هل كانت الطرق التى اتبعتها الناس قد حددتها ظروف الجغرافية الطبيعية وذلك بوجه عام ؟ أو هل شق الناس مسالكهم قسرا دون اعتبار لآى شئ (فى تكلف بحث) ؟

يبدو أننا على صواب اذا رأينا أن الطرق الطبيعية تمتد حيث توجد مناطق معينة من البلاد مكشوفة سهلة الاجتياز سواء بسبب طبيعة سطحها أو ظروفها النباتية والمناخية . مثل هذه الظروف التى تجعل الانتقال ميسورا تتوافر فى الجهات الخالية من الغابات الكثيفة والمستنقعات العميقة والعقبات الجبلية

وبخاصة في اراضى الحشائش والاستبس ، كما أن الانهار رغم ماقد يمتاز به بعضها من خصائص معينة أو يعترضها من الصعوبات الطبيعية كجذوع الاشجار التى يحملها التيار وكتل الثلج وتغيرات المستوى والتيارات والجهات الضحلة والتجمد وتغير المجارى .. كانت غالبا تمثل لا سبلا فحسب وانما وسيلة متحركة للنقل كذلك ، وان كان ذلك مقصورا على هبوط مجرى النهر مع التيار ..

كما كانت البحار طرقا طبيعية بعد أن اتقن الانسان فن بناء السفن وفن الملاحة اتقاناً كافياً ، فضلا على أن سهلا يغطيه الثلج كما في روسيا يمد أمام الانسان طرقا لاعداد لها للانتقال مستقلا زلافة ، رغم ظهور اراضى واسعة حين يذوب الثلج عند قدوم الربيع ، فتصبح مشبعة بالرطوبة مما يعيق النقل ، واخيرا فلم تكن الثغرات التى تفصل بين المناطق الجبلية وما يتخللها من ممرات تمثل النقاط التى لا يعترض الانسان مقاومة كبيرة أمامها فحسب ، ولكن كانت غالبا تمثل وحدها الطرق التى يمكن اتباعها قبل أن يعرف حفر الانفاق واستخدام الطائرات

وقد وفرت الطبيعة عن طريق الحيوانات والنباتات البرية في البيئات الجغرافية المختلفة المواد التى استطاع الانسان أن يهتدى عن طريقها الى وسائل النقل التى تناسب الظروف المحلية الخاصة ، وقد حبت الطبيعة نطاق الاستبس والصحارى الشاسع في العالم القديم (١) (انظر شكل ١٤ و ٥٤) - حيث انتشرت حرفة الرعى جنبا الى جنب مع الزراعة في الجهات الصالحة لذلك في وقت مبكر - بالحيوانات الصالحة للاستئناس وبمساحات مستوية جافة مكشوفة ملائمة لاستخدام حيوانات الجر والحمل ، كما كانت العقبات الطبيعية التى تعترض النقل البرى كالغابات الكثيفة والجبال المرتفعة والمستنقعات قد بلغت أذناها في هذا النطاق ، رغم انه كان يجب البحث عن وسيلة لاجتياز بقاع تغطيها الرمال الجرداء العميقة وسلاسل الجبال الالتوائية الحديثة كما في وسط آسيا

وكثيرا ما شبهت الاراضى المكشوفة في آسيا الوسطى ببحر عظيم ، وذلك لسهولة اجتيازها دون أن تفرض تغيير طرق النقل ، فأصبح كل من الجمل والحصان - وهما من حيوانات هذا الاقليم الاصلية ويمكن استئناسهما - « سفينة » الاول في الصحراء والآخر في الاستبس ، وقد زود كل منهما من الناحية الفسيولوجية بما يمكنه أن يجوب مناطق واسعة مستوية مكشوفة حيث يجد النبات الطبيعى والماء الضرورين لحياتهما منتشر في نقط مبعدة

وقد حدث ما يشبه ذلك في جهات نائية أخرى من العالم تختلف ظروفه سطحها ومناخها ونباتها الطبيعي ، فاستأنست حيوانات أخرى من الحيوانات الأصلية في هذه الجهات وروضت لتلائم ظروف البيئة ، وقد صادف ذلك قدرا متفاوتا من النجاح ، وهكذا كان الحمار في مصر والعراق كما كان في بلاد البحر المتوسط حيوانا مفيدا ، وإن لم يكن يستطيع أن يحتمل برودة البلاد التي تقع الى الشمال من ذلك ، أما في مرتفعات الانديز في أمريكا الجنوبية فقد كانت الالاما llama وهي وحدها حيوان الحمل ، ولكن لم يستخدم سكان أمريكا الشمالية الاصيلون أى حيوان للنقل لان الثور الوحشى والكاريبو لم يستأنسا قط

وقد امكن ادخال حيوانات مفيدة في جهات خارج الاوطان الأصلية لهذه الحيوانات ، بل ومختلفة عنها في مناخها عن طريق اقلمتها أو انتخاب الصالح منها بالتربية ، وقد كان الحصان في مقدمة الحيوانات التي اثبتت انها تستطيع أن تعيش في ظل أنواع مختلفة من المناخ ، كما أن البغل المهجن - وهو أكثر قوة من الحمار وأرسخ قدما من الحصان - قد أصبح أكثر حيوانات الحمل التي يمكن الاعتماد عليها في النقل في الجهات الوعرة الشديدة الانحدار ، إذ كان من الممكن أن يجد في الجهات التي لا يحتمل الحمار برودتها القارصة ظروفًا ملائمة

ويحمل كثير من الابتكارات التي تسد حاجات النقل في الجهات المختلفة بدرجات متفاوتة من التوفيق طابع البيئة أو ميسمها دون استثناء (١) ، وينطبق هذا القول مثلا على كثير من أنواع السفن النهرية التي عرفت أثناء عصور التاريخ وما قبلها . فالزوارق والطوافات كانت تصنع من جلود الثيران التي ينفخ فيها وحزم القاب وجذوع الأشجار المجوفة ، وجلود أسد البحر ، ولحاء أشجار الشربين ، وذلك تبعا لاختلاف ما يتوافر من منتجات الحيوان أو النبات الطبيعي من مكان لآخر . ويصدق هذا القول أيضا على الكشف عن الأخرى التي تعد أكثر أهمية مثل العجلة ، فقد اهتدى الإنسان لهذا الاكتشاف العظيم - كما نتوقع على ضوء الاعتبارات الجغرافية - في المناطق المنخفضة المستوية حيث تتوافر أكثر الظروف ملائمة لاستخدامها في الجر . فقد ثبت أن العجلة التي كانت تصنع في أول الأمر من الخشب - استخدمت في أول العهد بها في السهول النهرية في مصر والجزيرة السفلى (٢) . وقد استخدمت العجلة أيضا في أراضي الاستبس في آسيا الوسطى ، حيث يغدو استخدامها ميسورا بفضل ظروف السطح الملائمة ، وقد أصبحت

(١) انظر P. Vidal de la Blache تأليف Principles of Human Geography ١٩٢٦

صفحة ٣٥١ (٢) انظر بمده الفصل الثامن

العربات الضخمة المغطاة التي تجرها الخيول كما هو الشأن في تلك العربات التي كان يستخدمها الاسكيثيون Scythians والمقبول بعد ذلك - من وسائل النقل التي امتازت بها الشعوب الرعوية في آسيا الوسطى . فقد اتاحت الظروف الطبيعية لهذا النوع من انواع النقل ، كما اتاحت لوسيلة أخرى أكثر سرعة ونعنى ركوب الخيل في مساحات شاسعة - طرقا واسعة ذات سطح صلب مستو يفوق كثيرا الطرق الكثيرة التي شقها الانسان في أنحاء الصين - الا حيث تنتشر الرمال العميقة والجبال المرتفعة . ومن هذا القبيل ما اكتشفه الرومان من أن محراثا ذا عجل ثقيل اخترع في سهول غالة الشمالية ، حيث كان يلائم ظروف السطح المحلية - لم يكن يصلح استخدامه في الحقول الجبلية الصغيرة التي تميز بلاد البحر المتوسط

ولنحاول الآن أن نجد ردا لسؤالنا الاول : ما معنى وجود طرق طبيعية ، هذا اذا كانت هناك مثل هذه الطرق ؟ لقد رأينا في بعض الاصقاع وبخاصة في آسيا الوسطى أن الظروف الجغرافية قد اتاحت لنا اراض واسعة يمكن أن ينتقل الناس والسلع عبرها دون حاجة الى انشاء الطرق ، فضلا عن أنه يمكن أن نذهب الى أن الظروف الجغرافية - أى توزيع اليابس والماء ومظاهر السطح والانهار الملاحية والنبات الطبيعي - تحدد مسالك واسعة تمتد في صورة نطاقات لانها أكثر صلاحية لاستخدامها في الاتصال بين البيئات المنفصلة التي يسكنها الانسان - وان لم يكن من الضروري أن تكون أقصر هذه الطرق . ولذلك فانه يمكن القول ان المسالك routes بهذا المعنى ، تميزا لها عن الطرق - قد سبقت شق الناس لطرقهم الخاصة ، سواء أكان ذلك بتشبيد الطرق أو بالوسيلة الأكثر شيوعا وهى ما تخلف من الآثار نتيجة للتردد بين أغراض معينة في غدوهم ورواحهم

ومن بين الطرق التي «نمت» ، تميزا لها عن تلك الطرق التي أنشأتها الفرق الرومانية أو المهندسون المحدثون ، « الطرق الخضراء » المألوفة في إنجلترا أو مسالك إنجلترا . وهى تمثل شبكة متصلة في منخفضاتنا ومناطق المرور moorlands (١) ، وهى مرتبطة من الناحية الجغرافية في أغلب الاحيان بآثار سكنى الانسان في عصور ما قبل التاريخ ، فقمم هضابنا الطباشيرية الموجة وحوافها الوعرة الانحدار تمثل اراضى ذات سطح صلب حسنة الصرف ، يمكن أن تمتد على طولها الآن مسالك لمسافات طويلة ، قد تكون طرقا ثانوية أحيانا ، وقد لا تعدو أن تكون دروبا أو مسالك فحسب أحيانا أخرى ، ومن

(١) وهى بقع من الأرض تترك طبيعتها تنمو بها الحشائش الخشنة ، وقد تنمو بعض حشائش مصلح للرعى في بعض أنحائها ، قد يتخللها حفر ملؤها مستنقعات ، وهى غالبا مرتفعة ذات تربة مبيطة الصرف غير مسامية ، وقد تترك في جوار المدن للنزهة وتسمى Town Moor

الطريف وأن هذه المسالك التي تتبع المنخفضات، وتلك التي تسير متتبعة جروفه أراضي المور Moorlands تبدو غير متأثرة بالقرى التي تمتد في خطوط على طول السفوح السفلى لحواف الهضاب ومنحدراتها التي تنحدر في اتجاه ميل طبقاتها ومن الواضح أنها أقدم من القرى في نشأتها ، وأنها ظهرت لتسد حاجة السكان الذين آثروا المرتفعات أكثر من الوديان مسرحاً لنشاطهم ومن المؤكد أن مسالك المناطق المنخفضة في أراضينا تمثل شبكة مواصلات.

تسترعى الانتباه ، أذ تلتقى مسالك South Downs, North Downs في Hampshire Downs ، ثم تمتد في Salisbury Plains وتتجه من هذا الملتقى أو المركز متجهة نحو الجنوب الغربي عبر Dorset Downs لتصل الى البحر في نقط ثلاث ، ثم صوب الشمال عن طريق Marlborough Downs, Wiltshire Norfolk هضبة Chilterns حيث يواصل أحدها امتداده ليصل الى شاطئ Wash عند Norfolk عمران قديم موزعة على طول هذه المسالك مثل الحصون التي شيّدت من التراب ، ومنازل السكنى التي تتبع خطوط الارتفاعات المتساوية contour camps ومقابر ما قبل التاريخ ومن الواضح أننا إذا استطعنا أن نهتدى الى الزمن الذي شيّدت فيه المحلات التي نزل بها السكان والمقابر في أول العهد بها - وقد ألقت دراسات الآثار على الطبيعة Field archeology على هذه الشئون ضوءاً قوياً - لا يمكننا قطعاً أن نحدد مدى قدم هذه المسالك

والواقع أنه رغم وجود عدد كبير من أماكن الآثار لم تمتد إليها يد الحفر والتنقيب ، فانه من المحتمل أن هذه الحصون التي ألفنا رؤيتها في البقاع المنخفضة أو محلات الإقامة أو المعسكرات Camps ، قد تم تشييدها في باكورة عصر الحديد أو حوالي ٥٠٠ ق. م ، بيد أنه من الممكن أن يكون السكان قد أقاموا ولو في بعض أجزائها فقط في العصر الحجري الحديث حين كانوا يمارسون تربية الحيوان كما حدث في ميدن كاستل Maiden Castle حوالي الألف سنة الثانية قبل الميلاد (١) . وهناك من الأسباب ما يحتملنا على الاعتقاد بأن بعض المسالك - في الجهات المنخفضة على الأقل - ليست أقبل قدماً ، لأن الأدلة التي استمدت من المقابر barrows والدوائر التي تتألف من الأحجار stone circles وأماكن الحفر ومحاجر الطران تشير الى أن المنخفضات ظلت عامرة منذ العصر الحجري الحديث حتى الآن أي منذ حوالي ٢٠٠٠ ق.م. ولذلك قد يبدو أنه من المرجح أن طريق الحج Pilgrims Way عبر North Downs وطريق اكنيلد Icknield Way (انظر شكل ٣١) كانت مطروقة ومستخدمة في عصر البرونز ، بل ربما في

العصر الحجري الحديث ، رغم أن هذه الطرق كما تبدو في شكلها القائم تتألف من أجزاء قد شيدت أو أعيد تشييدها في كثير من العهود التالية وقد كان طريق بلجرمزواى Pilgrim's Way يمتد من موانى كنت صوب الغرب الى سهول سالزبرى Salisbury ، وربما كان متصلا بالطرق القديمة التى كانت تفضى الى كورنوال Cornwall فى الغرب اذ كانت على جانب من الاهمية فى العصر السابق للتاريخ كمصدر للقصدير . أما طريق اكنيلد فقد كان يمتد من واش Wash وهو أحد المنافذ الرئيسية لشرق انجلترا - متتبعا الحافة الطباشيرية ومتجها نحو الجنوب الغربى عن طريق شيلترن ، Chilterns ثم عبر التيمز الاعلى ليصل الى ايفبرى Avebury التى كانت ملتقى مسالك كثيرة فى الجهات المنخفضة . ولهذا الطريق أهمية خاصة أخرى كممثل يوضح كيف تصبح الطرق القديمة عوامل جغرافية ذات اثر دائم وكيف تؤثر على سير أحداث التاريخ

ومن المرجح أن السكسون الغربيين West Saxons التى كانت مناطق سكناهم فى حوض همبشير Hampshire Basin بمثابة نواة نمت حولها مملكة وسكس Wessex قد دخلوا انجلترا بطريق واش Wash ، واتجهوا نحو الجنوب الغربى متتبعين طريق ايكنيلد Ickniel Way فضلا على أن وجود هذا الطريق وهو ايكنلدواى يساعد على تفسير اختيار مواقع معينة لعدد من المدن (انظر شكل ٣١)

ولكن ما منشأ هذه المسالك القديمة ؟ ليس من نافلة القول فى هذا الصدد أن نذكر أن هذه المسالك ظهرت فى اصقاع تتيح للدخلاء فى عصر ما قبل التاريخ أكثر الظروف ملائمة لكسب العيش دون نصب أو مشقة كما توفر طرق الاتصال الميسور بينهم - وذلك بفضل مايفطيها من نبات طبيعى وتربتها السفلية المسامية ونظام الصرف الطبيعى بها . وقد كان ينمو فى الجهات المنخفضة - وذلك اذا استثنينا الجهات التى يغطى الصلصال والطين الذى يصنع منه الاجر صخور الطباشير - غطاء نباتى من الحشائش التى تتخللها أشجار الزان والديش ash ، لانه قد تبين عدم صلاحية التربة ذات السمك الرقيق والتربة السفلية المسامية لنمو الاشجار والنباتات القصيرة الكثيفة التى تحلق فوقها أشجار الغابات

وقد كانت هذه الجهات المنخفضة - مثلها فى ذلك مثل البقاع التى تغطيها الرمال والحصى ومدرجات الانهار التى يغطى الحصى قيعانها - جذابة ، لان اراضى المستنقعات والاراضى الصلصالية التى تغطيها النباتات كانت منفرة بالنسبة لاناس تموزهم الوسائل الفعالة للقيام بالاعمال الشاقة التى يقتضيها تطهير الغابات وتجفيف المستنقعات ، ومن ثم يصبح

من الواضح أن نتيجتين في ضوء دراسة خرائط توزيع حضارات ما قبل التاريخ (١) الأسباب التي حدثت بالسكان أن يؤثروا الإقامة المتصلة في الأراضي المنخفضة التي يمكن الوصول إليها مباشرة من البحر في دورست Dorset وSussex وكنت Kent حيث وجدوا هناك المرامي لقطعانهم من الأغنام والماشية ، وحيث تتوافر الظروف الملائمة للزراعة البدائية . ولكن هل كانت هذه المسالك أو الدروب تدين للانسان بتوضيح معالمها ، أو كانت قد أصبحت واضحة للعيان من قبل لما تركته الحيوانات المفترسة في تجوالها فيها من آثار ؟

لقد تناول بالعرض المستفيض ، الرأي القائل بأن هذه المسالك التي طرقها الانسان لأول مرة في أوروبا وأمريكا الشمالية ، كانت تمثل الدروب التي صنعتها الحيوانات المتوحشة أثناء تنقلاتها بحثا وراء الماء والكلأ - فنفر من الكتاب من بينهم Thorold Rogers ، فقد وصفوا كيف حدث في انجلترا مثلا أن الحيوانات ذات الحافر قد حددت في بادئ الامر الدروب التي تمتد من قمم التلال الى موارد المياه أو المخاضات ، وكيف أرشدت آثار الجاموس المزعومة في براري أمريكا الشمالية الى الدروب التي استخدمها الهنود الحمر وطلّاع الأمريكيين بل ومهندسو السكك الحديدية ، الفريق بعد الآخر ، ولم يعز بعض الرحالة الاوائل الى الجاموس bison بوجه خاص فطنة عظيمة فحسب مما مكنته من الاهتداء الى مواضع المخاضات وأكثر الوديان سهولة وأقلها انحدارا ، بل عادات التنقل والهجرة تسترعى الانتباه أيضا

والواقع أن ما دار من مساجلات ونقاش قد ألقى ظللا من الشك على صحة النظرية التي تذهب الى أن الطرق الرئيسية التي سلكها الانسان قد نشأت كدروب من صنع أقدام حوافر الحيوان ، ومن المعروف أن الحيوانات في الأراضي المستوية المكشوفة تنتشر في كل قطر وكل اتجاه ، ولا تسلك مسالك محدودة ، ففي البرتا Alberta التي اختفى منها الجاموس حوالي ١٨٨٢ ، لم يعثر على آثار للدروب التي تعزى عادة اليه ، وليس هنا ما يبعث على الظن أن الانسان قد طمس معالمها (٢) . كما أن الكثير من الحيوانات ان لم تكن جميعها من الانواع المفترسة التي يتيح لها حجمها أن تترك دروبا يمكن الاستفادة منها على أديم الأرض - تتقن السباحة مما لم يكن يدعوها للبحث عن مخاضات الأنهار . فالجاموس يجيد السباحة دون ريب ، بل أن الماشية المستأنسة كما

(١) انظر كتاب شخصية بريطانيا The Personality of Britain لمؤلفه Cyril Fox نشرة

متحف ويلز National Museum of Wales كاردف (الطبعة الثالثة) ١٩٢٨

(٢) انظر في هذه المسئلة كتاب

The Wild Animal Path Origin of Ancient Roads. F. G. Rol

ومجلة Antiquity الجزء الثالث (١٩٢٩) صفحات ٢٩٩ - ٣١١

قيل - كانت قد ألفت أن تسبح عبر مضيق منى من جزيرة انجلس كما قيل في معرض الجدل لتفنيد ذلك الرأى ، أن ماذكر عن هجرات الجاموس لاتعنى أكثر من بحثها عن مأوى لها في الغابات والادغال في الاوقات التى تشتد فيها قسوة فصل الشتاء ، هذا فضلا عن أنه يقال أن الجاموس كان في الواقع من أكثر حيوانات العالم قاطبة جنوحا للشرود والضرب على غير هدى ، فلا يصلح للاعتماد عليه في الهداية ..

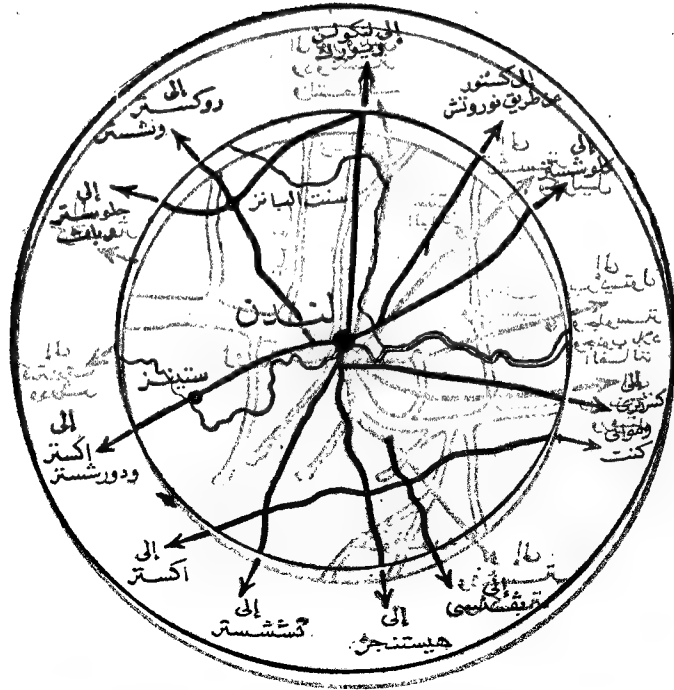
ولكن مما يخالف هذا الرأى ما ذكره أحد الكتاب المحدثين اذ يقول : « إن القطعان كانت تنتقل ببطء في هجرتها ، فلم يتسع مجال تنقلاتها كثيرا ، وانما كانت حركاتها تسير على وتيرة واحدة مطردة دون تغيير ، ولما كانت على جانب كبير من قوة البأس وشدة الاحتمال فقد استطاعت أن تحتل عواصف البرد القاسية دون عناء ، تلك العواصف التى تودى بالماشية المستأنسة ، وكانت هذه القطعان ذاتها - حين كانت أكثر تقاربا واحتشادا في الشتاء - تسير على جانب منصرف الرياح في الجبال سالكة نفس المسالك ، تنتجع الكلا متنقلة بين المراعى ، حتى تعبد بفضل ماتركه حوافرها من آثار مسالك كبرى لهجراتها المعتادة (١)

وايا كان الرأى الصائب في هذا الصدد أى بشأن الآثار المزعومة للجاموس وعلاقتها بتطور المسالك في أمريكا الشمالية ، فانه من الصعب أن نصدق الرأى القائل بأن أقدم المسالك أو الدروب في انجلترا قد تركت الماشية آثارها ، فلو تصورنا أن المسالك في أراضينا المنخفضة انما هى دروب الماشية ، فانه يجدر أن نصف كثيرا منها أنها « لاتربط بين أية بقعة وبقعة أخرى » ، ولكنها اذا اعتبرناها من ناحية أخرى من صنع الانسان ، يبدو انه يمكن تفسيرها تفسيراً منطقياً معقولا لانها مرتبطة بمناطق السكنى قبل التاريخ اذ كانت تصل بينها ، كما كانت تنتهى غالبا بنقط ملائمة لرسو السفن على طول شواطئنا

ومن الامور التى تسترعى الانتباه كيف تنتشر في أرجاء انجلترا الآن شبكة متباعدة من الطرق نسج الزمن خيوطها أثناء التاريخ الطويل ، وهذه الشبكة من الطرق يمكن تحليلها لعناصرها التى يمكن تمييزها وتحديد تاريخها (٢) شأنها في ذلك شأن نطاقات الصخور التى تبدو على سطح الارض ، فلكل مرحلة كبرى من مراحل التاريخ بانجلترا وعصر ما قبل التاريخ فيها مسالكها الخاصة بها ، وهى اما مدت تبعا لتصميم او خطة مدروسة او تمت لتخدم

(١) انظر C. Daryll Forde, habitat, Economy & Society (١٩٣٤) صفحة ٥٦

(٢) انظر كتاب History in the Open Air تأليف H. J. Randall (١٩٣٦) الفصل الثانى لارشادخير بطرق انجلترا فيما قبل التاريخ

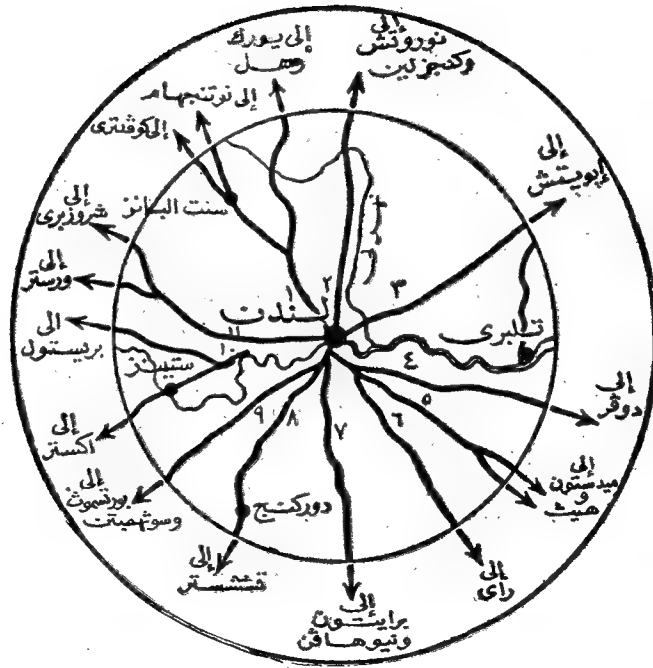


شكل (١٧) لندن ملتقى الطرق في العهد الروماني

في كل عصر» وبدوا دراسة النظام الطرقي في القرن السابع عشر كما تظهر في خريطة

[illegible]

العصر الحجري الحديث ، لم يعودوا من جامعى الطعام فقط بل من منتجيهِ
أيضاً ، اذ مارسوا الزراعة وتربية الحيوان ، فضلاً على أنه رغم ما امتازت به
حضارة العصر الحجري الحديث في أوروبا القارية من أصالة وطابع مميز في
مناطقها المختلفة ، فليس من التعسف أن نحاول تفسير قيامها في أول أمرها
على ضوء الحوافز والدوافع التي وفدت من الخارج . أى بدخول الشعوب
والافكار من مراكز الحضارة السابقة ، ويأتى في مقدمة هذه المراكز مصر
والجزيرة وآسيا الصغرى وكريت ، وبعض جهات منطقة بحر ايجيه الاخرى
علينا أن نتصور أوروبا وقد اكتست حلة من الغابات الكثيفة التي انتشرت
في أرجائها اثناء الالف الثالثة قبل الميلاد ، وان لم تكن حياتها النباتية مقصورة
على الغابات فحسب ، وقد كان العصر الحجري الحديث في أوروبا مصحوباً
بانتشار ظروف مناخية أكثر دفئاً ورطوبة منها اليوم ، وكان من نتائج ذلك
أن أصبحت بعض البقاع التي تمتاز بأن تربتها السطحية والسفلى مسامية
ذات أهمية خاصة



شكل (١٩)

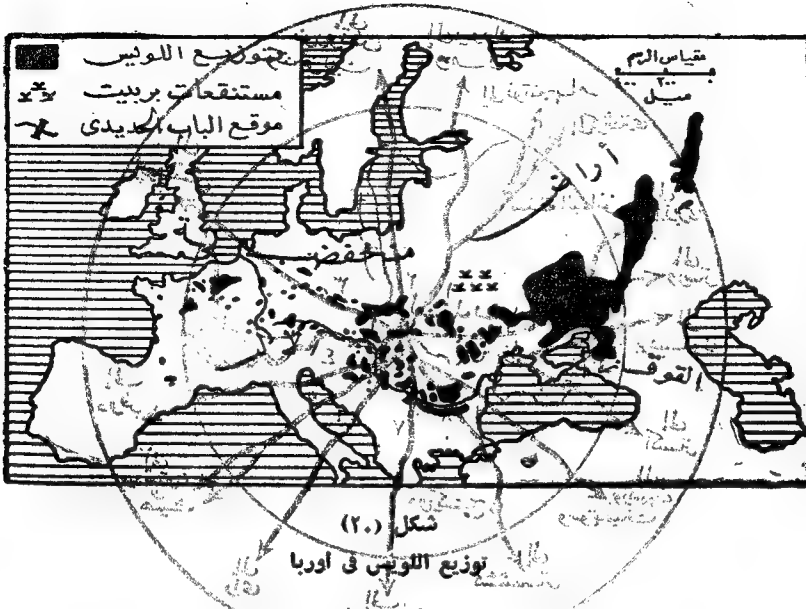
لندن ملتقى الطرق في القرن السابع عشر

(بعض هذه الطرق مثل ٢، ٤، ٦ - تتفق تقريباً مع اتجاه الطرق الرومانية . انظر شكل ١٧ السابق)

وكانت أنواع التربة المشتقة من اللويس (انظر شكل ٢٠) ومن الصخور الجيرية الواقعة أسفله ومن الرمال والحصى ينمو بها غطاء طبيعي من نباتات الاستبس *Steppe-heath flora* وذلك أثناء هذه الفترة الدفيئة الرطبة ، على حين كانت تخلو من الأشجار والنباتات القصيرة وكانت الجهات التي تسود فيها هذه التربة تمثل أدغال الخليج المكشوفة الجافة *dry open heath* (١) أو أراضي تغطيتها الحشائش وسط مساحات تحيط بها تغطيتها الغابات والمستنقعات والجبال ، ولذلك فقد كانت تمتاز بأن الاتصال فيها ميسور وبخاصة أنها كانت تتكون من سهول أو هضاب مستوية ، فضلاً على أن أنواع التربة كانت تعد أكثرها صلاحية للزراعة تبعاً لما كان متبعاً من أساليب الاستغلال البدائية

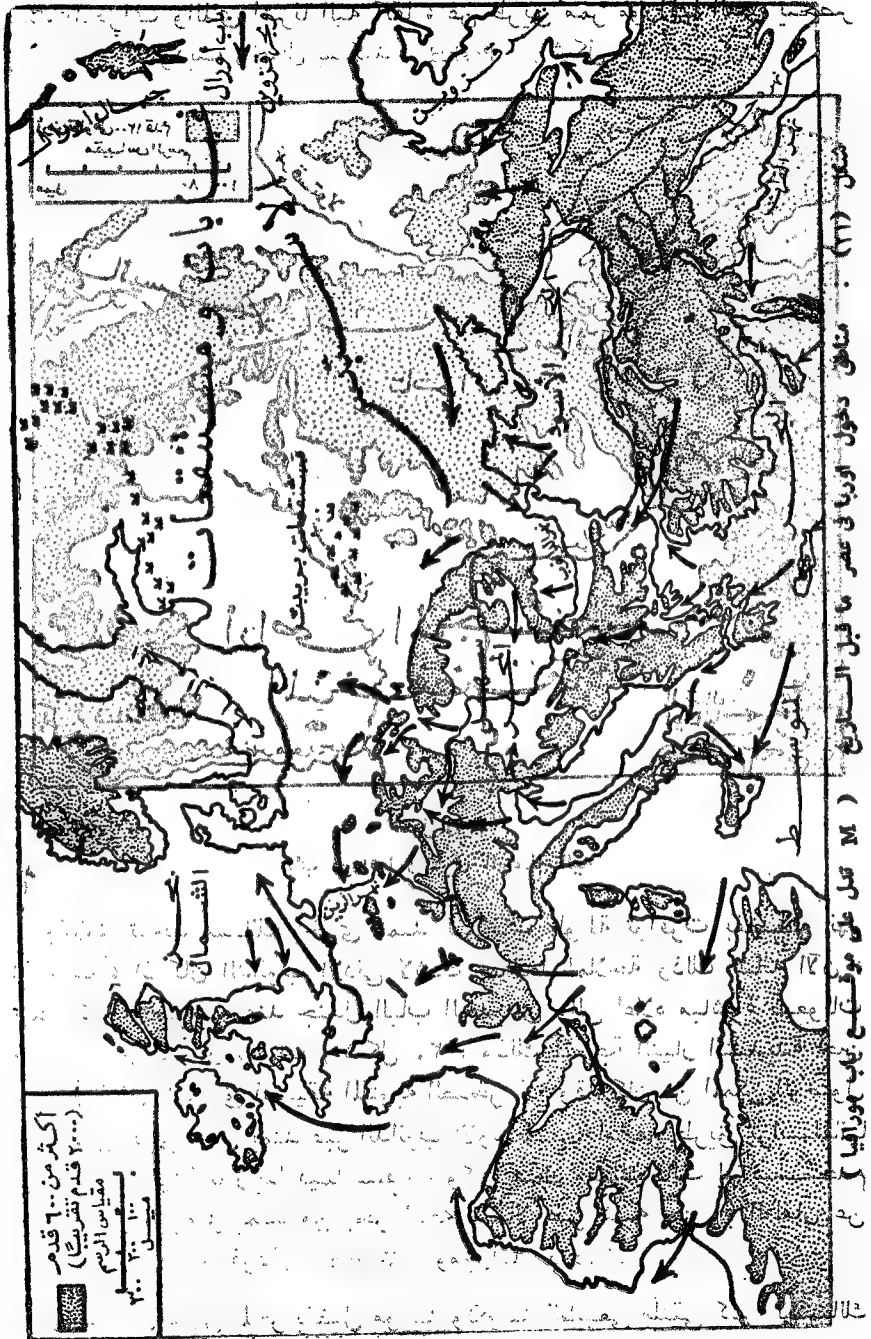
ولنا أن نتوقع في ضوء الحقائق الطبيعية أن المسالك الكبرى في أوروبا في

(١) يقصد بكلمة *heath* أرضاً مستوية متروكة بوراً لتنمو فيها شجيرات من نوع *Erica* وبعض الشجيرات الأخرى من نوع الشليك

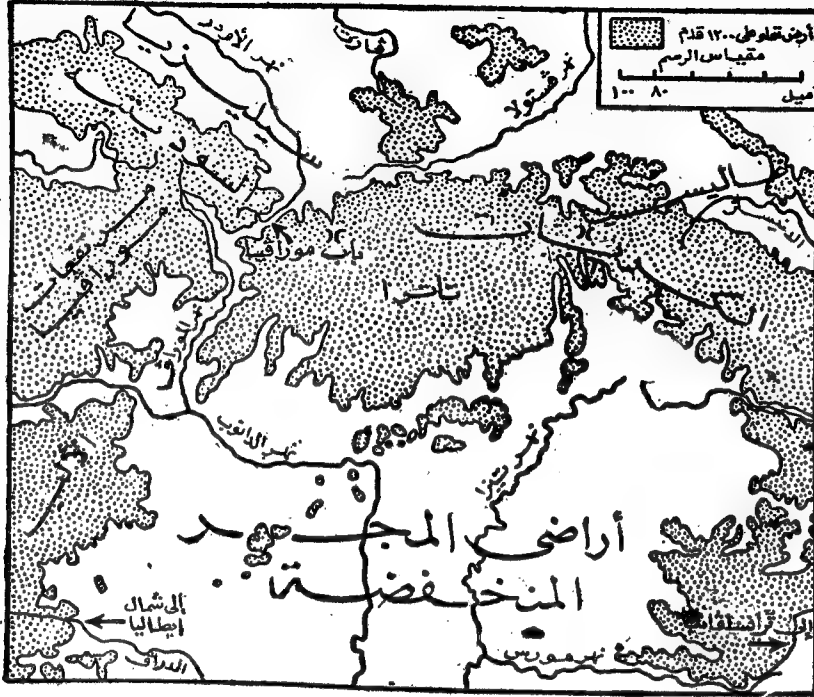


العصر الحجري الحديث كانت تتبع الأراضي الخافتة المكشوفة ، متجنباً العقبات التي تنشأ عن الجبال والغابات والمستنقعات ، ويجب علينا أيضاً أن نتوقع أن هذه المسالك الطبيعية كانت مناطق متسعة الإحيط تكون الانتقالات والحركات محصورة في حدود ثغرات ضيقة وممرات ، ويتفق توزيع ما عثر عليه من آثار يمكن أن تنتمي لذلك العصر مع هذا الرأي

كان أحد المسالك الكبرى يتجه منحرفاً عبر أوروبا ممتداً من حافة الأستبس في هذه القارة في الجنوب الشرقي صوب بلجيكا الجنوبية ، وذلك متبعاً طريق رصيف غاليشيا ومنطقة السفوح السفلى في التلال الوسطى التي تقع دون نظام التلال الجبلية الوسطى في أوروبا والسهل الأوروبي الشمالي (شكل ٢٠) ، ويحدده بقدر معين انتشار رواسب اللويس (شكل ٢٠) وهو لا يقع خارج نطاق المنطقة الجبلية التي يمتد على حافتها فحسب ، ولكنه يشكل مستقعات نهر برييت Pipet أيضاً وقد كان هذا المسلك في نهاية الجنوبية الشرقية يتصل بالأستبس المتسعة في آسيا الوسطى عن طريق باب أورال ، بحر قزوين ، كما كان متصلاً بجنوب غرب آسيا بمسالك كانت تحفها أو تعبر جبال القوقاز ، كما كانت هناك مسالك أخرى بدلاً عنها تمتد من شمال البحر الأسود الشمالية لقفز إلى الغرب دون صعوبة ، يتجه إليها إلى سهل ولاشيا وهضبة بلغاريا اللتين تقعان إلى شمال الدانوب الأدنى وجنوبه على التوالي ، كما كان آخر يقضي إلى حوض ترانسلفانيا المرتفع بعد اجتياز ممرات الكريبات ، وقد كان من اليسير الهبوط من ترانسلفانيا إلى



سهل المجر ، كما كان من الممكن الوصول الى هنغاريا عن طريق المسلك الذى يمتد بانحراف والذى أشرنا اليه آنفا ، عن طريق ممر مورافيا الذى ينحصر بين جبال السويد وجبال بسكيد Beskid (شكل ٢٢)



شكل (٢٢)

باب مورافيا والطرق الموصلة اليه

وكانت توجد مسالك أخرى تمتد لمسافات طويلة توافرت بفضل نهر الدانوب ، اذ كان الدانوب الأدنى لاشك صالحا للملاحة وذلك شأنه الآن ، ولكن كانت تعترضه عند جندل الباب الحديدى والى أعلاه مباشرة صعوبات طبيعية من المتعذر تذليلها (شكل ٢٠) وذلك لسرعة التيار الشديدة حين يندفع خلال الخوانق الضيقة الملتوية الصخرية ، وقد كان من الممكن الوصول الى سهل المجر الذى يمتد عبر الدانوب الاوسط . . اما عن طريق ترانسلفانيا أو باب مورافيا كما رأينا فيما سلف ، وكان هناك مسلك ثالث لم يستخدم حتى عصر البرونز يمتد من بحر ايجه شمالا عبر شبه جزيرة البلقان عن طريق وادى نهري فردار Vardar ، ومورافا Morava

ولهذا كان سهل المجر بفضل موقعه وتكوينه الطبعى ملتقى كبيرا للمسالك

ومركزا من مراكز حضارة العصر الحجري الحديث ، وقد كان وجود رواسب اللويس والرمال التي تغطي مساحات واسعة مكشوفة تقع بعيدا عن المستنقعات المتسعة التي تحف بالدانوب ، مما ييسر أسباب الانتقال ، فضلا عن توفر أراضى المراعى والأراضى الزراعية ، لقد لاحظنا فيما سلف كيف يمكن دخول هنغاريا من الشرق ومن ثم لم يعد مما يشير الدهشة من وجهة النظر الجغرافية أن استفز زراع العصر الحجري الحديث الاوائل في وسط أوروبا في هضبة مورافيا التي تغطيها رواسب اللويس، التي تسربوا منها موغلين في سهل المجر القريب ، وكان هناك طريقان من هنغاريا يتجه أحدهما غربا والآخر شمالا ، تستطيع أن تسلكهما طرق الحياة المتحضرة في انتشارها ، يتبع أحدهما وادى الدانوب متجها نحو منابعه الى بفاريا حيث يمكن الوصول الى سهول الرين الاوسط في الانزاس وبادن ، أما الطريق الآخر فقد كان يمر خلال باب مورافيا ثم ينحرف صوب الغرب في اتجاه مائل نحو الرين الأدنى

ونستطيع أن نختم عرضنا للمسالك الطبيعية في أوروبا بأن نذكر انه كان من الممكن دخول هذه القارة عبر أشباه جزر البحر المتوسط في نقاط قليلة مختارة . ومما يلفت النظر كيف كانت جبال البرانس والالب والالب الدينارية والبلقان وهى سلاسل جبلية حديثة تمثل نطاقا متصلا تقريبا يحف بالجانب الشمالى من حوض البحر المتوسط ، وهكذا كان الانتقال نحو الشمال مقصورا على عدد من الابواب والنفقات أو الممرات (انظر شكل ٢١) . فكان الباب البحرى أو النفذ المائى الذى يمثله الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور يفضى من بحر ايجيه الى دلتا الدانوب وأستبس جنوب روسيا ، أما الى غرب ذلك فقد كان يفضى طريق المورافا الفردار الى بلغراد الواقعة على الدانوب ، كما كانت تتخلل جبال الالب الشرقية الممرات المنخفضة - وإن كانت رغم ذلك وعرة - التى تمثل طريقا قصيرا بين رأس الأرياتييك والدانوب الاوسط . كما كان من الممكن دخول فرنسا عن طريق وادى الرون أو بواسطة ذلك الطريق الذى يتبع برزخا تمتد فيه وديان أود Aude والجارون . وأخيرا كانت هناك مسالك تمر بجانبى البرانس أو تخترقها ، كما كانت هناك ممرات جبلية عالية فى جبال الالب استخدمت بمضى الزمن

وقد ظلت المسالك التى المعنا إليها آنفا ، والتى سلكتها مظاهر التأثير الحضارى فى العصر الحجري الحديث وعصر البرونز تستخدم استخداما متصلا خلال عصور التاريخ ، فتدفقت موجات متتابعة من الفرسان والرعاة وأفدين من آسيا الوسطى مجتازين باب أورال - بحر قزوين Ural-Caspian Gate متجهين غربا ، فسلكوا طريقا واحدا أو أكثر سواء بقصد السلب والتخريب كما فعل الهون Huns أو بغية الغزو والفتح كما حدث على يد المغول ، أو للاستقرار كما أثر المجرىون والبلغار

وقد اتخذت الشعوب شيئا فشيئا تعنى بتقنين المسالك وتخليدها وتحسينها كلما تقدمت حضارتهم المادية وذلك لخدموا حاجاتهم المتغيرة .
ومما يسترعى الانتباه الى اى حد كانت تأثر هذه المسالك بطبيعة الارض وتوزيع معالمها ، والسبل التى تلقى فيها الانسان اقل مقاومة - ورغم انه يجب الا ندعى متورطين في الخطأ ان الناس في عصر ما قبل التاريخ واوائل العصر التاريخي كان لهم من الدراية ما لدينا الآن من دراية ومعرفه تكاد تكون تامة بالبلاد ، فمن الواضح ان الكثير منهم - شأنهم في ذلك شأن اجدادنا من الانجلو سكسون - كان لديهم نظرة ثاقبة فاحصة للبلاد .

وربما كانت هذه النظرة نوعا من الحاسة الجغرافية التى ربما كانت تميز هؤلاء الذين يعيشون مشدودين برباط وثيق بالارض ، وان كان حقا ان الطرق تنشأ الآن دون ان تلقى بالا للظروف الطبيعية ، فان من الواضح انه ربما يؤدي هذا الاعمال وعدم المبالاة الى ارتفاع تكاليف الانشاء . وقد كان مد الطرق في العصور التاريخية في اتجاه لا يتفق والظروف الطبيعية نوعا من الاستثناء كما حدث حين مد خط سنت بطرسبرج - موسكو ، فقد سرت طبيعة السهل الروسى تنفيذ نزوة القصر في هذا الصدد - اى انشاء خط السكك الحديدية لربط المدينتين في خط مستقيم

ولكن مثل هذا التخطيط الهندسى للطريق غير ميسور في البلاد التى تتنوع فيها الظروف الطبيعية ، وان كانت تبدو الطرق الرومانية كأنها تفعل مظهر السطح والارتفاع المحلية ، الا انها في الواقع تتلمس غالبا أكثر المواضع اسرا وسهولة بتجنبها الاراضى المنخفضة التى تتعرض للفيضانات ، وقد وفقت الطرق الرومانية التى تعبر «الارضى الموز المرتفعة في اجبال البليز» في انجلترا شأن الطرق التى انشئت في العصور التالية في الاستفادة من الانحدارات الاكثر سهولة التى تنتشر في وديان الانهار ، ومن المناطق الضيقة المنخفضة Saddles من الجبال التى تتجنب الجهات المتسعة المرتفعة ، ولم يتمكن مهندسو الطرق من ان يعودوا الى البيئة الطبيعية الا في عصر متأخر حين استطاعوا ان يحملوا القنوتات في الانفاق بين جوانب البنين المختلفة ، ولست بحاجة الى توكيد ان السكك الحديدية عادة تتبع اقل الجهات انحدارا في هذه البقاع شأنها في ذلك شأن غيرها .

ويكفى لتوضيح ان الطرق عادة كانت تتكيف بما يسود السطح من ظروف ان نذكر لمحة قصيرة عن الطرق التى كانت تنح من منطقة الحدود في ويلز الى داخل البلاد . وقد ظلت مرتفعات ويلز موحشة جذباء منعزلة بنفر منها الجميع عدا نفر من الرحالة شديدى الاحتمال ، النزاعين للخطورة . ولم يتصل شمال ويلز وجنوبها بانجلترا بالعربات سوى في العقدين الاخيرين من

القرن الثامن عشر ، بل ان دانييل ديفو Daniel Defoe قد وجد في هذين العقدين من القرن الثامن عشر ان الطريق في ويلز مرهقة بل ومخيفة الى حد ما ، ولكنه قد تصدى للحدث في الجغرافيا دون حق حين قارن جبال ويلز التي لا تمثل سوى بقية من نظام جبلي قديم بالالب والاندلس التي تمثل جبلا التوائية تعمل فيها عوامل التعرية بنشاط

وقد كانت الطرق الكبرى لا تجد مندوحة تقريبا من تتبع كلما استطاعت الى ذلك سبيلا - المنحدرات الأكثر سهولة التي تتيحها الوديان والشعرات والاراضي المنخفضة الواقعة عند الاطراف . اما في داخل ويلز ، فلم تكن اراضي الممر العقبة الكبرى التي تعترض المواصلات الداخلية بقدر ما كانت المنخفضة ، لان مستوياتها المختلفة كانت تغطيها في بعض اجزائها مستنقعات اللبنة النباشي التي لا تمتد على الاطمنان ، وبين (شكل ٢٣) مدى اتساع البقاع التي كان يعلو سطحها عن ٨٠٠ قدم في ويلز وكيف كانت الجهات المنخفضة نسبيا محدودة ، كما توضح كذلك الاتجاه نحو الشرق الذي يميز نظام الصرف الطبيعي وبخاصة في انهار دى Dee وسفرن Severn وواي Wye و أوسك Usk . فقد كان لها تأثير مهم على المواصلات ، ونعني - ان الاتصال بين انجلترا المنخفضة ومرتفعات ويلز ، كان أكثر يسرا وسهولة من الاتصال بين الجهات المختلفة في ويلز

ويمكن ان نعرف على نحو ستة « مسالك طبيعية » كانت تتجه من الحدود الى داخل ويلز ، ومن المناسب ان نوضحها في علاقتها بمدن الحدود التي كان يخرج منها الرحالة او الجيوش أثناء العصور الوسطى ، ثم حتى العصور الوسطى المتأخرة بعد ذلك . فقد كان هناك مسلكان يتبع أحدهما النطاق المنخفض الضيق الذي تنتشر فيه التلال في شمال ويلز ، او يسير صاعدا من اعالي نهر دى Dee وهو يعرف باسم وادي لانجولان Llangollen كما انه يمكن ان يتبع مسلكا ثالثا يمتد اما من شروزبرى Shrewsbury

او لادلو Ludlow عن طريق سفرن الاعلى الى خلال وادي يويس Powis كما كان هناك مسلك رابع يخرج من هرفورد Hereford لذهب صاعدا في وادي واي Wye ، اما من مدينة مونموث Monmouth فقد كان اعالي أوسك Usk يمثل المسلك الخامس الذي كان يتابع سيره خلال وادي توي Towy حتى يصل الى كارمرثن Carmarthen ، وأخيرا كان الطريق من جلوستر Gloucester بجهد السبيل مفتوحا نحو الغرب خلال الاراضي المنخفضة التي تحف بخليج السفرن ، ومنها كان يخترق الاراضي المنخفضة الساحلية من مونموث Monmouth وجلامورجان Glamorgan ، كما كان من بين طرق الدخول في جنوب ويلز الزوارق التي كان من الممكن استخدامها



شكل (٢٣)
ويلز ومنطقة الحدود: الطرق في القرن السابع عشر
(الطرق كما تظهر على خريطة مصلحة المساحة البريطانية وويلز
في القرن السابع عشر ، منشورة بلان من مدير المساحة العام)

لعبور مياه خليج السفن التي يصل اليها تأثير موجات المد (انظر شكل ٢٣)
وبين شكل ٢٤ الاجزاء التي نعرفها من الطرق الرومانية في ويلز ، والتي ظلت
مستخدمة خلال العصور الوسطى تسلكها الجيوش والمستعمرون من انجلترا ،
ومما يسترعى الانتباه ان هذه الطرق اقل استقامة بكثير من طرق انجلترا
المنخفضة ، وقد انحرفت هذه الطرق متبعة السبل التي تواجه فيها اقل
الصعوبات ، فمرت على حافات الكثير من العقبات التي ظهرت بحكم طبيعة
ويلز . واذا رجعنا الى شكل ٢٣ لتبين ان المسالك الطبيعية التي سلف سردها
كانت تتبعها الطرق الرومانية في كل حالة تقريبا . ومما يجب ملاحظته ان

الطرق الرومانية في ويلز كانت تتوخى تنكب قيعان الاودية الرطبة التي تغطيها النباتات مؤثرة عليها منحدرات الاودية التي تمتاز بجفافها

وقد بقيت النقط التي تبدأ منها الرحلات في حالتى شستر Chester وجلوستر Gloucester الى ويلز في العهد الرومانى في العصور التالية ، ولكن كانت المدينتان اللتان حل محلتهما فيما بعد شروزبرى Shrewsbury وهرفورد Hereford هما وروكستر Wroxeter وكنشستر Kenchester على التوالي . واخيرا يجب الا نستنتج ان ويلز كانت تعوزها الطرق المحلية التي تختلف عن الطرق الرئيسية التي كانت تتجه نحو الحدود ، فقد كان



شكل (٢٤)

ويلز ومنطقة الحدود : حدود امتداد صخور الزمن الاول والطرق الرومانية
(الطرق كما تظهر على خريطة مصلحة المساحة البريطانية لبريطانيا
تحت الحكم الرومانى - بعد الحصول على اذن من مدير المساحة العام)

سكان ويلز اثناء تنقلاتهم الموسمية مع ماشيتهم الى مراعي الجبال المرتفعة او حين يسوفون ماشيتهم الى الاسواق يستعملون الطرق المتعددة التي تتبع حافات المرتفعات او الدروب الجبلية الأخرى . ولذلك كانت الماشاك التقليدية في هضبة جلامورجانشير Glamorganshire تسبع حوافل المرتفعات التي تقع بين الوديان الضيقة العميقة التي حفر في فيها حفرا عميقة ، ولم تظهر هذه الوديان من غاباتها ولم تحفف بويلمتة فيها المعبران الا بعد استعمار موارد الفحم في المنطقة ، فامتدت على طول هذه الوديان الطرق والقنوات او خطوط السكك الحديدية (١) .



(١) انظر كتاب Dr. W. Rees Handbook and Maps of South Wales

The Border in the 14th Century. شرواقويا على الطرق القديمة في جنوب

ويلز ، كما ان يهون D.W. Office's Dyke في Archaeologia Cambrensis

Phillips and Sir Cyril Fox في ١٩٢٥ - ١٩٢١ تين مسالك المرتفعات في ويلز اثناء العصور الوسطى

(١) انظر كتاب Dr. W. Rees Handbook and Maps of South Wales

نتيجة لانتشار الافكار عن حياة المدن ومظاهرها من مناطق الحضارات الثلاثة الاولى او المبكرة التى أسلفنا الإشارة إليها . ولكن من الصعب - رغم ذلك - أن نقبل رأى أصحاب النظرية المتطرفة لانتشار الحضارة ، تلك النظرية التى تذهب الى أن الكشوف والاختراعات قد ظهرت وانتشرت من مكان واحد كمصر مثلا ، لانه يبدو أن نوعا من المدن كان معروفا فى أمريكا الوسطى حين وصل إليها كولبس ، ويلوح أن هذه المدن قد نشأت نشأة مستقلة عن تأثير العالم القديم ، فقد يبدو مقبولا أن نرى أن تيارات الثقافة الوافدة من مصر وأرض العراق تفسر ظهور المدن فى كريت وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ، ثم كان ظهور المدن الفينيقية على طول الساحل السورى والمدن الاغريقية التى تلقت حوافز من كريت التى تقع على كذب منها . . السبب فى نشأة عدد كبير من المدن على طول سواحل حوض البحر المتوسط والبحر الاسود ، على حين قام الاتروسكيون Etruscans باتشاء المدن فى الداخل وعلى السواحل فى توسكانيا Tuscany والجهات التى تمتد وراء الابنين Apennines

كما أنشأت الامبراطورية الرومانية - أثناء توسعها - مدنا تقع وراء حدود حوض البحر المتوسط ، انتشرت بين بريطانيا الجنوبية فى الغرب ووادي الرين والدانوب فى الشرق والشمال ، ولا تزال هناك مدن تقوم الآن فى مواقع المدن الرومانية القديمة ، ولكن فى بعض الاحيان لم تقم المدن فى العهود التالية للعصر الرومانى فى مواقع المدن الرومانية وان كانت قد نشأت قريبا منها ، كما فى سنت البانز St. Albans التى نمت على كذب من مدينة فيرولاميوم الرومانية Roman Verulamium . كما انه نيس من الجلى دائما أن المدن التى نشأت فى مواقع المدن الرومانية ، أو على مقربة منها ، قد ظلت قائمة بصفة متصلة خلال التاريخ . وقد نشأت كثير من المدن أثناء العصور الوسطى سواء فى الجهات الواقعة وراء نهري الرين والدانوب ، أو فى نطاق المنطقة التى خضعت لحكم روما من قبل

ويمكن أن نتبع طرقا متعددة فى تقسيم المدن ، لانها تمثل وحدات معقدة كما أن دراستها تشمل وضعها من نواح عديدة ، فاذا تحدثنا عن مدن الاسواق والموانئ البحرية والعواصم والمدن الريفية أو المدن الصناعية ، فانما نميز بينها تبعا لتباين وظيفتها ، كما يمكن أن نقسمها على أساس التباين فى عدد السكان ، فضلا على أن اختلاف المدن فى وضعها القانونى يمكن أن يتخذ أساسا لنوع من التقسيم . ولكن أيا كانت طريقة التقسيم ، فالمدن تمثل عادة معالم يمكن التعرف عليها وتمييزها على سطح الارض ، بخلاف مراكز العمران فى الريف ويمارس عدد كبير - نسبيا - من سكان بقعة معينة أو مدينة القيام بوظائف معينة مثل التجارة والصناعة والدفاع والادارة والتنظيم السياسى والدينى ،

ويبدو تأثير ذلك منعكسا في أسواقها ومصانعها وموانئها ودور محاكمها وحضونها وكنائسها الجامعة ، وتعد مثل هذه الوظائف عادة حضرية وأن لم تكن حضرية بحتة ، أما الزراعة فقد كانت عادة ترتبط بأنواع العمران الريفى مثل القرى والداكر والمزارع المتفرقة ، وأن لم تكن وقفا على هذا النوع من العمران

وأخيرا فان موقع المدينة عادة عند ملتقى الطرق Nodality يعد من الظواهر الجغرافية المميزة لها ، اذ تصبح المدينة عادة مركزا للمسالك التى تساعد على قيام علاقات إقليمية واسعة بل ودولية ، وهى تبرز القرية فى سهولة اتصالها بفضل الجهود البشرى ، وأن كان مما يسترعى الانتباه أن الموقع الجغرافى للمدن ، ووضعها بالنسبة لما يحيط بها .. كثيرا ما يجعل منها ملتقى طبيعيا للمسالك



أما المشكلة التى نحن بصددنا الآن فهى كيف تلقى الجغرافيا ضوءا على تاريخ المدن ؟ ويمكن أن نذكر جوابا مختصرا لذلك السؤال ، اذ أنه اذا درست المدن كعناصر متميزة فى ربوع الريف لأمكن للجغرافى قبل كل شئ أن يوضح طبيعة البقاع التى نشأت فيها المدن وموقعها فى المنطقة المحيطة بها ، وهو فى قيامه بهذا العمل يستطيع أن يزودنا بما يرشدنا لا لنشأتها وتوزيعها فحسب ، بل لوظائفها وما تتابع عليها من أحداث كذلك

وتدل دراسة بعض المدن دراسة مخصصة أن اختيار المواضع التى نشأت فيها لم يكن محض مصادفة قط ، بل تبدو أنها اتخذت كذلك بعد تفكير وتقدير .. فالإنسان يختار البقعة التى أعدتها الطبيعة ليفيد منها بعد ذلك ، والحقيقة أن حاجات الإنسان وأغراضه كانت دائمة التغير ، ففى بعض الأحيان - وكان يحدث هذا غالبا - كانت حاجته الأولى التى يتوخاها هى أن تكون البقعة خصبة بطبيعتها ، تحمىها المستنقعات أو المياه أو طبيعة سطح الأرض . كما حدث فى بعض العصور أن السكان المستعمرين من الإغريق القدماء كانوا يراعون توافر الظروف الملائمة للزراعة ، وأن لم يغفلوا سهولة الدفاع وممارسة التجارة البحرية ..

وقد يكون الغرض من قيام المدينة سياسيا فى بعض الأحيان ، فقد اختير موقع واشنطن كعاصمة اتحادية بحيث يتسنى لمثلئ الولايات الثلاث عشر التى كان يتألف منها الاتحاد الوصول إليها بسهولة ، ولكن سواء أنشئت المدن بوصفها مدنا منذ أول الأمر ، كما فى لندن فى عهد الرومان ، أو نشأت نتيجة لنمو بعض القرى الصغيرة المتواضعة نموا تلقائيا كما حدث لباريس وروما ، فان للبقعة التى نشأت فيها المدينة أهمية . ويمكن أن تميز ناحيتان فى تكوين

المدن ، أولا الجماعة البشرية التى قد تنشئ قلعة ، أو ديرا أو بيوتا أو ميناء ،
وثانيا : العنصر الطبيعى ونقصد البقعة التى نهضت فوقها المدينة وهى التى
قد تكون عوناً للمدينة لى تظل باقية على الدهر نامية مزدهرة ، وذلك اذا
ماحالف التوفيق اختيارها لما تمتاز به من مزايا محلية أو اقليمية

وقد كانت مزايا البقاع التى نشأت فيها المدن كامنة أحيانا أى خافية على
الذين أقاموا بها وسكنوها فى أول الامر ، فقد وصف المهاجرون من الاغريق
الذين نزحوا من شبه جزيرة كالسيدس Chalcidice بالغفلة أو (العمى)
لأنهم آثروا أن يقيموا فى كالكدون Chalcedon على بيزنطة Byzantium
التي كانت تقع على الجانب الآخر من مضيق البسفور قبالتها مباشرة
- والحقيقة أنهم كانوا من الزراع ولم يكونوا تجارا أو صيادى أسماك ،
وقد وجدوا أرضا خصبة تصلح للزراعة التى خبروها من قبل وذلك بالقرب
من كالكدون . فلم يقدر الاغريق الذين وفدوا من ميغارا Megara واتخذوا
بيزنطة (القسطنطينية) حوالى ٦٥٧ ق . م أولى مواطنهم - الامكانيات
العظيمة لهذه البقعة التى لا نظير لها ، لأنهم كانوا من الزراع فى المقام الاول ، ولم
يعنوا باستغلال موارد القرن الذهبى الغنى بأسماكه وما تدره تجارة البحر
الاسود وبحر ايجيه من أرباح الا بعد ذلك ، حين تبينوا أن ممارسة الزراعة
صعبة بسبب الهجوم الذى تعرضت له من جهة البر



ومن الواضح أيضا أن بعض أماكن السكنى التى رغب منشئوها أن يجعلوا
منها مدنا لم تتطور ، لان البقاع التى قامت فيها لم تكن صالحة ولا مواقعها
ملائمة ، فواجهت بعض ما أسسه الملك أدوارد من أماكن السكنى التى لم
يعن باختيارها جيدا ، هذا المصير . ومن المهم أيضا أن نذكر أن المدن مثلها كمثل
الكائنات العضوية ، تجتاز نوعا من الانتخاب الطبيعى ، ولذلك تشمل المدن
القائمة الآن تلك التى أثبتت أنها أجدرها بالبقاء ، ولا شك أن للعوامل الجغرافية
كالبقعة والموقع مكانة بين العوامل التى تقرر صلاحية المدينة للبقاء . .

ويبدو أن بعض نواحي نشاط المدن - على الأقل - قد أوحى بها وأدت
اليها المميزات الطبيعية لبعض المواقع والظروف الجغرافية فى مجالها الأكثر
اتساعا ، كما قد يلقى موقع المدينة فى علاقتها بالموارد المعدنية المحلية ،
وامكانياتها الزراعية وسهولة المواصلات والنقل سواء عن طريق البر أو الماء
. . بعض الضوء على أهميتها ونواحي نشاطها الاقتصادى

هذا فضلا على أن الدراسة الجغرافية قد تشير الى بعض نواحي عامة
مهمة تتناول توزيع بعض المدن وأسباب قيامها . وتقوم المدن عادة عند ملتقى
الناطق التى تختلف ظروفها الطبيعية ، مما قد يغرينا باستنتاج أن السبب

الذى أدى الى قيام مثل هذه المدن انما تفسره هذه الحقيقة الجغرافية . فقد يبدو من المحتمل انه اذا بلغ السكان مبلغا كافيا من النظام ، تقتضى الحاجة ظهور نقط تقع فى مواقع ملائمة لتبادل المنتجات المختلفة والتكاملة فى البيئات المتجاورة ، وذلك فضلا عن تغيير وسائل النقل التى تلائم كل اقليم . ولذلك تعد منطقة السواحل خير مثل يوضح منطقة التباين التى أشرنا اليها ، حيث يصبح تغيير وسائل النقل من السفن التى تمخر عباب البحار الى النقل البرى أو بالسفن النهرية ضروريا ، وحيث تلتقى غلات البر بمنتجات البحر (الاسماك ... الخ .) مع تلك التى تأتى من وراء البحار . ويمكن أن نتوقع ظهور المدن - تبعا لذلك الرأى - عند التقاء الجبل والسهل ، أو الاستبس وجهات الزراعة .

وقد أدلى بعض الكتاب برأى ، غير مقنع كثيرا ، يقول : ان انتشار المدن وتطورها يبدو أكثر وضوحا فى مناطق مناخية معينة ، ولكن اذا تقصينا تأثير المناخ من حيث أنه يمكن أن يفسر توزيع المدن ، فسنجد أن تأثيره غير مباشر فقط ، ويمكن أن نلمسه عن طريق تأثيره على النبات الطبيعى وطرق المعيشة .

لقد ذهبنا فيما سلف الى رأى يقول انه فى بعض الاحيان على الاقل تؤثر العوامل الجغرافية المتغيرة فيما يصيب المدينة من تقلبات ، فلم تعد كثير من الموانئ تتصل اتصالا مجديا بالبحر لتراكم راسب الطمي سواء من أصل بحرى أو نهري ، أو بتكوين أرصفة من الحصى ، حتى أغلقت مداخل المياه واصبحت ضحلة ، كما أغرقت المدن مياه المد فى بعض الاحيان ، أو فيضانات الانهار ، أو الثورات البركانية ، كما حدث أحيانا أن اختفت بعض المدن كنتيجة لما تتعرض له السواحل من نحت . كما تنجم التغيرات فى مصائر المدن نتيجة حدوث تغيرات اقتصادية وسياسية فى أسواقها فى الداخل والخارج . وفى مثل تلك الظروف يصبح العامل المهم جغرافيا ، بطريق غير مباشر فحسب ، فلا يتصل اتصالا مباشرا بالظروف الطبيعية بقدر اتصاله بما يطرأ على طرق استخدام هذه الظروف والاستفادة منها من تغيرات

ولنتناول الآن بعض المدن كأمثلة أو عينات لنقدم ونوضح ما أسلفنا فى هذا العرض العام . لقد ذهبنا الى أن اختيار الاماكن التى نشأت فيها المدن لم يكن محض مصادفة ، ولكن كان رائده التفكير والمفاضلة بين الاماكن التى كانت تصلح فى أية منطقة ، ويمكن دون شك أن نعثر على أمثلة تبدو فى ظاهرها أو حقيقتها شذوذا يخرج على هذه القاعدة ، فهناك بعض المدن التى أقيمت كأنما تتحدى الظروف الجغرافية تحديا سافرا ، فقد أنشئت الهافر فى منتصف القرن السابع عشر وسط مستنقعات خليج السين ، كما ظلت يوكوهاما قائمة فى بقعة معرضة لحدوث الزلازل بين الحين والحين ، كما أنشأ العرب القيروان

(وتعنى الخيمة) واتخذوها عاصمة تونس في القرن السابع الميلادي لاسباب استراتيجية مقبولة ، وان كانت قد قامت وسط منطقة استبس جرداء ، كما قيل ان أى مكان يقع بالقرب من ميلان ليس دون البقعة التى قامت فيها هذه المدينة صلاحية ليكون مركزا تلتقى فيه المسالك التى تعبر ممرات جبال الالب الوسطى الى سهل لمبارديا

وربما كان من الاصوب ان نذكر ان الظروف الطبيعية التى تسود البقعة او الموضع الذى يقع عليه الاختيار ينطوى على مزايا وتقاىص ترجح الاولى الثانية فى أكثر الاحيان ، ولذلك فان مدينة هل Hull التى مكنها مرفؤها الطبيعى ان تنهض كميناء من موانئ العصور الوسطى ، كان عوزها توافر موارد المياه الكافية للشرب ، كما كانت تقوم على تربة ملحية منخفضة معرضة لفيضانات الهمبر Humber الذى يتعرض للمد ، وذلك بين الحين والحين (شكل ٢٥)



شكل (٢٥) ميناء هل حوالى ١٨٢٠ م
(الاحواض التى اشر اليها بأرقام ٢،٢٤١ والتى شيدت بين ١٧٧٨ و ١٨٢٩ تمتد على طول أسوار وخنائق العصور الوسطى)

ويمكن أن نميز عدة أنماط للبقاع او الموضع التى تنهض فيها الموانئ البحرية ، ومن أكثر هذه الانواع شيوعا فى بريطانيا شأنها فى ذلك شأن مناطق

السواحل الاخرى التى تتعرض لحركات المد والجزر ، البقعة التى تصلح لاقامة كوبرى وميناء بالقرب من رؤوس الخليجان التى تصب بها الانهار ، ومن هذا النوع كثير من موانينا الكبرى فى الماضى والحاضر وبخاصة لندن وبريستل وتشستر Chester ، وكذلك عدد كبير من الموانى ذات الاهمية المحلية بوجه خاص مثل كولشستر Colchester ووارنجتون Warrington وبرستون Preston ، وبريدجوتر Bridgewater

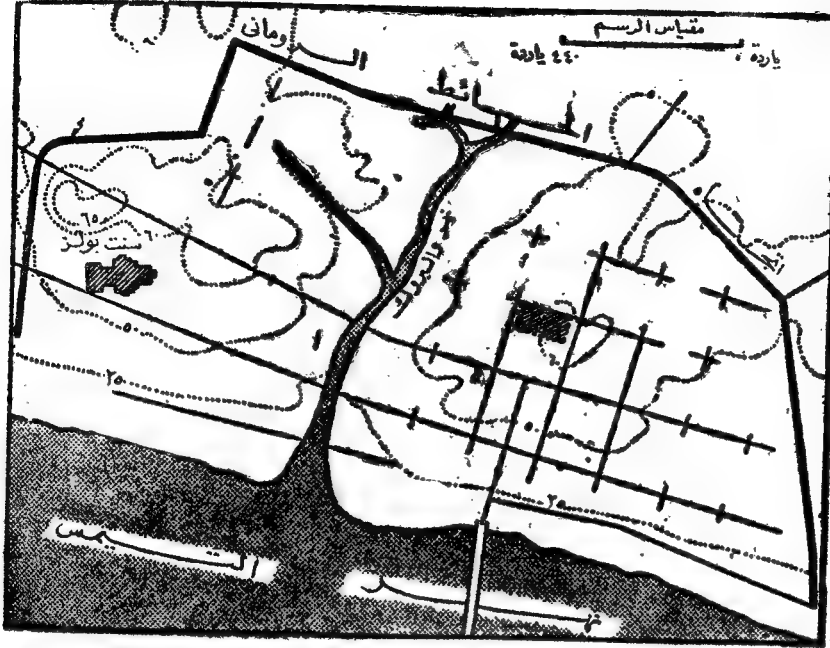
لقد كانت لندن التى ظهرت لأول مرة حين أسسها الرومان فى القرن الاول الميلادى تمتد فوق تلين يتوج قمتيهما الحصى ويفصلهما نهر ولبروك Wallbrook وتقع بالقرب من راس خليج التيمز الذى يجنح نحو الضيق ، حيث أمكن لأول مرة تشييد كوبرى (انظر شكلى ٢٦ ، ٢٧) وقد نبحت دون جدوى هابطين نهر التيمز من لندن للعشور على بقعة يمكن أن تقارن بلندن ، تكون فى مامن من الفيضان والغزو كما تتيح الظروف الملائمة لتشييد قنطرة ، فيجف بالخليج - اذا اتجهنا من لندن نحو المصب - المسطحات الرسوبية فى كل مكان تقريبا ، وهى تتعرض للفرق أثناء المد ، بل انه حين توجد الصخور الصلبة على ضفاف النهر كما فى جرينتش Greenwich وبرفليت Purfleet لا توجد بقعة جافة مناظرة لها على الضفة المقابلة ، فضلا عن أن اتساع مجرى النهر كان من شأنه فى هذه الازمنة القديمة أن يجعل تشييد قنطرة يكاد يكون أمرا متعذرا



وقد كانت السفن التى تصعد النهر الى لندن تجد فى المد عوناً لها ، كما كانت مياه الجزر تجعل هبوط السفن فيه متجهة نحو البحر أمرا ميسورا ، فضلا على أن موارد المياه كانت موفورة عند البقعة التى قامت فيها لندن ، إذ كانت الجداول الصغيرة التى طمرت الآن متوفرة ، فقد كانت تنبثق من أسفل رواسب الحصى التى تغطى التلال التى تتكون من طبقات من صلصال لندن غير المسامى

وان تشابهت الظاهرات التى تميز الموقع الذى نشأت فيه كل من تشستر Chester وبريستول Bristol فقد كانت هناك اختلافات محلية ، وكانت تحيط بالهضبة الصغيرة المكونة من الحجر الرملى والتى قامت عليها ميناء بريستول فى العصور الوسطى مياه المد فى مصب نهر أفون Avon من أحد الجانبين ، كما كانت مياه فروم Frome أحد الانهار الفرعية تحف بها من الجانبين معا ، ولذلك لم تحرم من حماية المياه لها الا فى أحد جوانبها فقط حيث شيدت قلعة ترجع للعصور الوسطى

ولما كان قنال بريستول Bristol Channel يتعرض لموجات من المد والجزر واسعة المدى ، فقد توافرت المياه - وان كان ذلك أثناء فترة المد



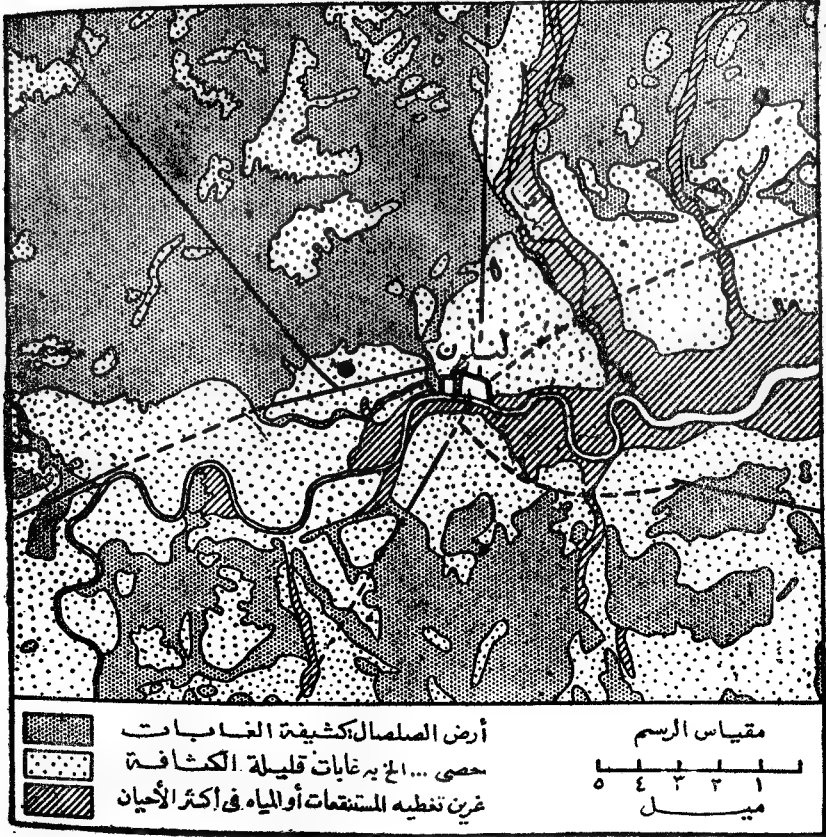
شكل (٢٦) البقعة التي نشأت فيها لندن

(تدل الأرقام على خطوط الارتفاع التساوية التقريبية نقلا من اورمزي
H. Ormsby في كتابه London on the Thames خريطة رقم ١٤
وتظهر الطرق الرومانية والقنطرة وإن لم يكن قد روعي فيها مقياس الرسم)

فقط - لتستطيع ان تقترب السفن من المدينة أو تبارحها . هذا فضلا على
انه على كسب من موقع بريستول صوب المنبع كان نهر أفون Avon غير صالح
للملاحة لتغيير في انحدار قاع النهر ، وربما كان لهذه الظاهرة الطبيعية اثر
في ان وقع الاختيار على هذه البقعة ، وأخيرا فقد قامت تشستر Chester
وهي مدينة ذات أصل روماني شأن لندن ، اذ كانت إحدى قلاع ثلاثة « Castra »
على رأس خليج دي Dee فوق تل

وهناك ضرب آخر من ضروب المواقع التي تنهض فيها الموانئ بمثلها موانئ
لازال مزدهرة مثل كنسجتون Kingston - Upon Hull ولقربول Liverpool
وقد قامت المدينة الاولى التي نشأت في شكل مدينة عقب عملية المسح أو
الحصر التي تعرف باسم Domesday Survey (١٠٨٦) (١) ومنحها

(١) وهو كتاب يحتوى على بيانات عملية حصر الاراضى وكبار ملاكها ومساحة املاكهم وتقدير
قيمتها وعدد المستأجرين والحيوانات وغيرها في كل أنحاء إنجلترا حين صدر وليم الفاتح ١٠٨٦ ،
اراضى إنجلترا عند غزوها . . وهذا الاسم الذى شاع اطلاقه على هذا الكتاب يعنى « يوم القيامة »
اى انه يمثل الحقائق النهائية التى صدرت من السلطات العليا « المترجم »

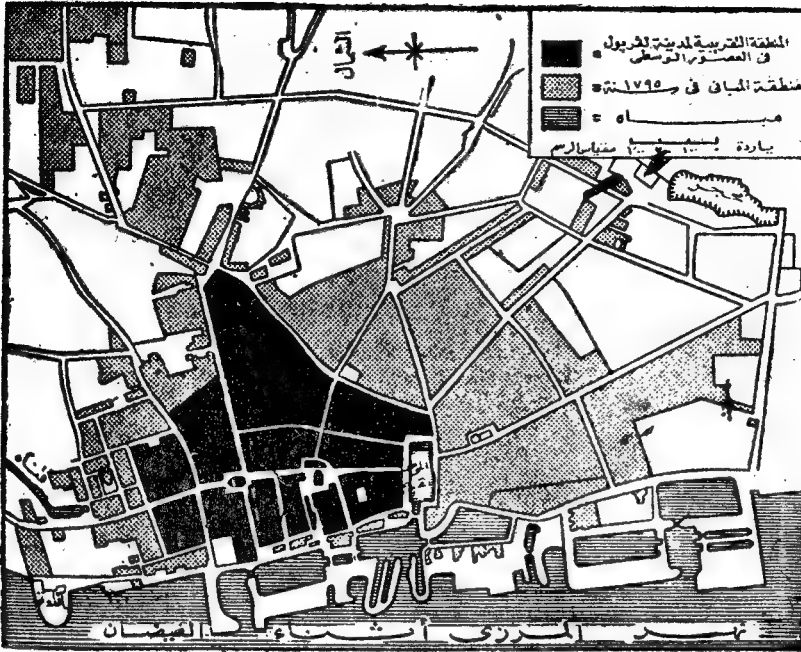


شكل (٢٧) لندن تحت الحكم الروماني في بيئتها الجغرافية
(نقلًا عن R. M. Wheeler مع بعض التعديل .. تظهر بالخريطة الطرق الرومانية)

الملك ادوارد الاول ميثاق حقوقها Charter (١) - عند مصب نهر كان
يصب في خليج الهمبر المتسع الكثير العواصف (انظر شكل ٢٥) ، وقد كان
مصب نهر هل Hull يكفل الحماية ويتسع لنشاط ملاحى محدود المدى
حتى أواخر القرن الثامن عشر ، فضلا على أن عمق المياه في الهمبر حتى ميناء
هل كان كافيا ، لأن المجرى العميق كان يصل فعلا الى الشاطئ عند موضع
هل نفسها

وكانت لغربول أيضا التي منحت ميثاقها على يد الملك جون والتي ظهرت

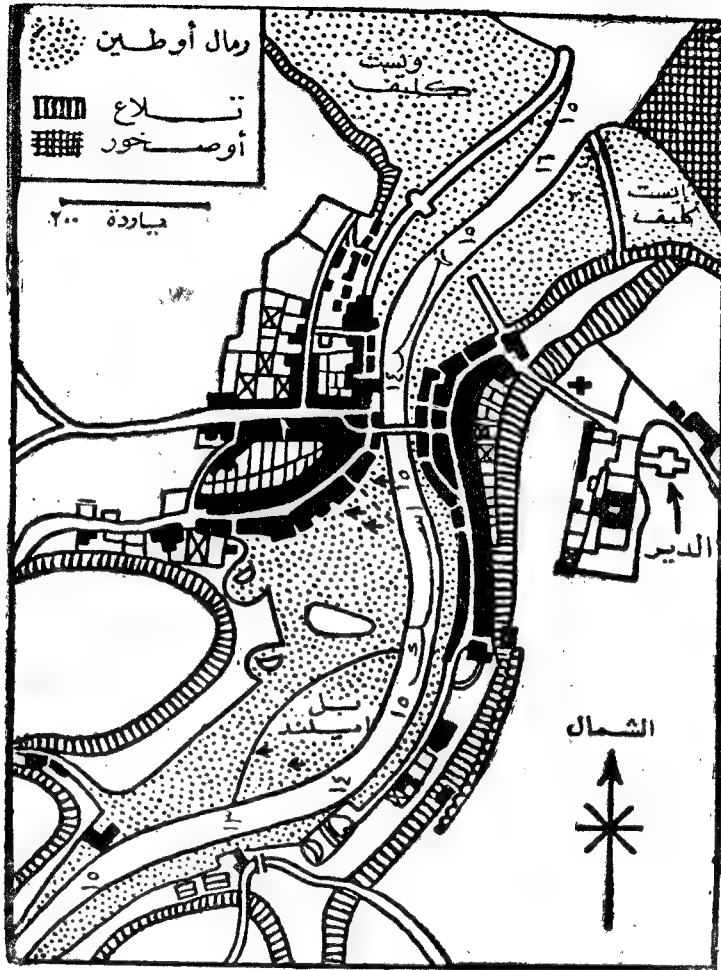
(١١) كان الملك يبيع الشركات والمدن ميلانا معترف فيه بحق قيامها من الناحية القانونية ،
ويذكر فيه حقوقها



شكل (٢٨) لفريول ١٧٩٥ م (يشغل الحوض القديم المستنقع)

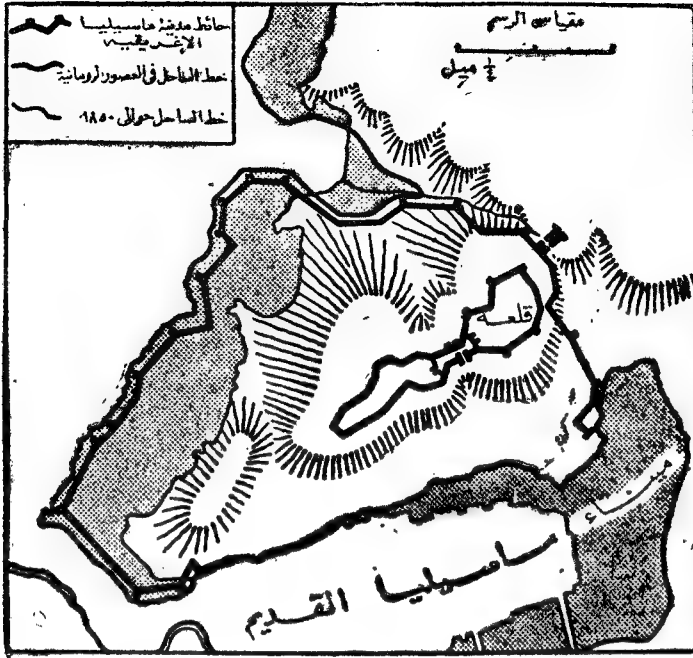
على خريطة Gough (حوالى ١٣٥٠) (١) - تقوم في بقعة مشابهة ، وإن كانت أهميتها احدث بكثير من هل Hull من الناحية التاريخية . وكانت تقوم لفريول عند مصب نهر يدعى ليفر Lever الذي كان يمثل خليجا تصل اليه موجات المد ولكنه يتمتع بالحماية ويسمى Bool وهو يربطها بمصب الميرزي Mersey المتسع (انظر شكل ٢٨) وكانت تختلف عن هل في انها تمتعت بمزايا بقعة جافة مرتفعة توافرت بفضل وجود هضبة صغيرة من الحجر الرملى ، وقد كان من العوامل الطبيعية التى ساعدت على نمو ميناء ليفريول ان خليج الميرزي يضيق من لفريول صوب المصب ، مما كان يضاعف من تأثير حركات المد فى تعميق المجرى ومن ثم فى توافر المياه العميقة . وقد اصبح من الضرورى فى كل من هل ولفريول تشييد الاحواض لتتسع لتجارها السريعة النمو فى القرن الثامن عشر

ويمكن ان نشير باختصار الى نوعين آخرين من انواع بقاع قيام الموانى مثلها بوضوح ميناء (ويتبى) Whitby الصغير الذى كان حافلا بالنشاط من قبل ، وميناء مرسليليا التاريخى (انظر شكل ٢٩ و ٣٠) . فكانت Whitby



شكل (٢٩) مدينة هوتين ومينائها في ١٧٤٠ م
(تدل الأرقام على عمق المياه بالاقحام عند الحد العالي،
أما الاسهم فتشير الى مواضع رسو السفن)

تقع عند مصب نهر تدخله موجات المد ويدعى ايسك Esk في منطقة ساحلية قليلة الخيرات تعوزها الخلجان الطبيعية ، وكان هذا النهر مهما سواء لصناعة بناء السفن التي قامت فيها او بالنسبة لوظيفتها كميناء تقيء اليه السفن ، ولذلك وجدت في البحر ايسر السبل لتسلكها للاتصال ، اذ كانت تطوقها من ناحية اليابس اراضي المور Moor المرتفعة الجذباء ..
كما كانت مسيليا Massilia (مرسيليا) التي انشأها المستعمرون من



شكل (٢٠)

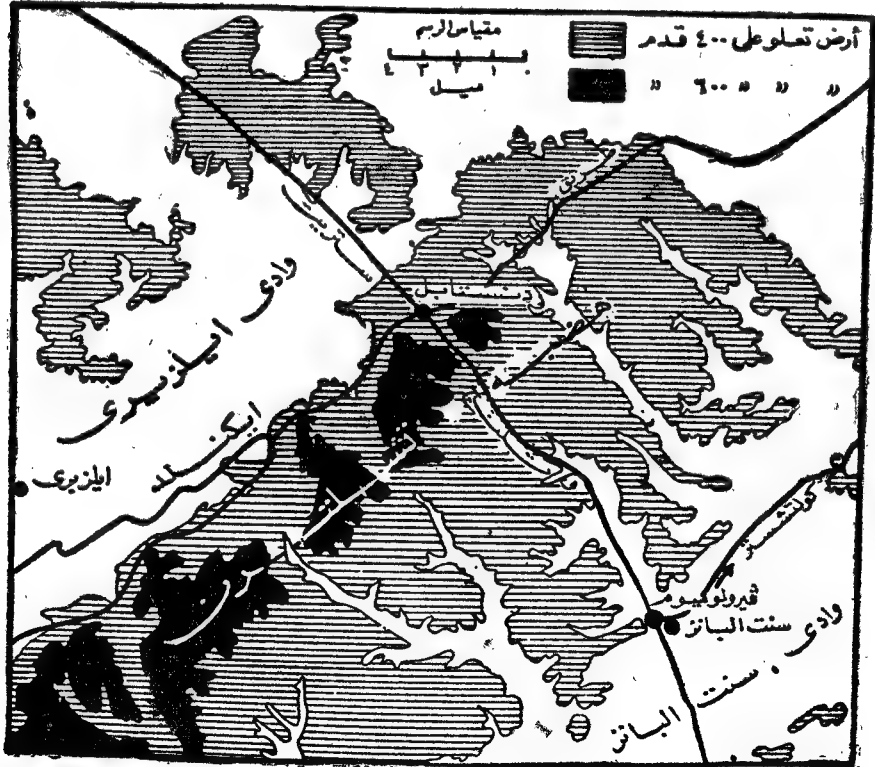
البقعة التي نشأت فيها ماسيليا (مرسيليا) في العصور القديمة
(نقلًا عن ديجاردن Desjardins مع التبسيط)

الاغريق حوالي ٦٥٠ ق . م في زمن مبكر ، تمثل موضعاً لميناء يشيع وجوده في البحر المتوسط البعيد عن تأثير حركات المد القوية ، وهذا الميناء يتألف من جزيرة ذات حواف منحدره جداً يمتد دونها حوض صغير يتمتع بالحماية ويكفي عمقه واتساعه لنشاط حركة شحن السفن في العصور السالفة ، بيد أن تراكم الطمي به قد جعله قليل الجدوى في العصور الحديثة ، مما دعا إلى ضرورة إقامة أحواض صناعية

ومما هو جدير بالذكر أن نضيف أن مرسيليا كغيرها من موانئ البحر المتوسط الكبرى ، تقع على قيد مسافة قصيرة من مصب نهر كبير (الرون) ، لان اختفاء حركات المد قد مكن الانهار من تكوين دالات تنتشر في أرجائها المستنقعات . هذا فضلاً على أنها تقع إلى الشرق من دلتا الرون الذي تحمل رواسبه التيارات البحرية التي تتجه صوب الغرب في اتجاه مضاد لحركة عقارب الساعة ، ذلك الاتجاه الذي يميز تيارات البحر المتوسط

وليست جغرافية البقعة أو المكان Site-geography مقصورة على المدن

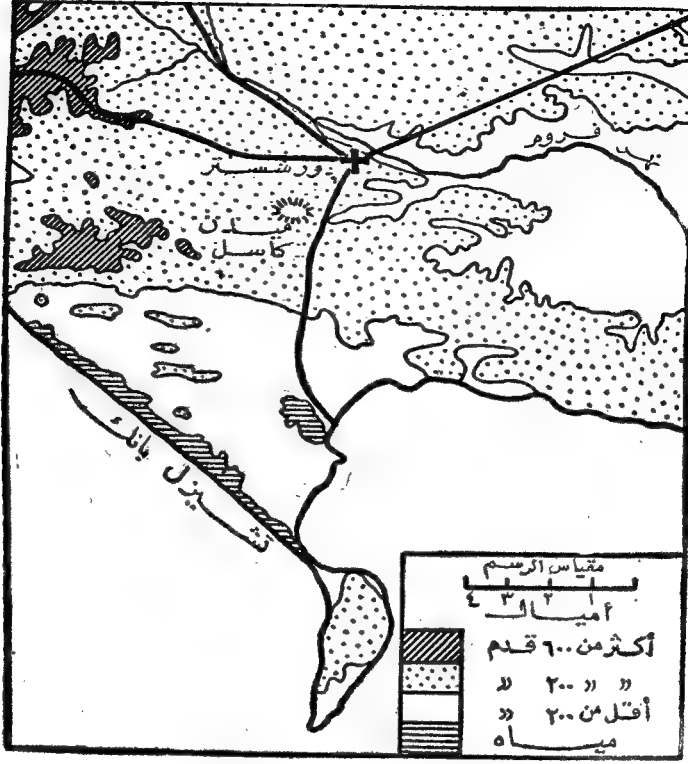
البحرية بل تشمل المدن الداخلية أيضا . فقد نشأت مجموعة من المدن تتمثل خير تمثيل في مناطق الحافات في إنجلترا الجنوبية ووادي اسكتلندا الاوسط - في مواضع تقع في الممرات الطبيعية التي تمتد من الفتحاح أو الثغرات أو على كتب منها ، تلك الثغرات التي تتخلل مناطق الهضاب ، ومن الأمثلة لتلك المدن دنستابل Dunstable (انظر شكل ٣١) التي تقع عند فرجة نحتها المياه ولكنها جافة الآن تخترق حافة هضبة شلترن Chiltern Plateau وهي تمثل مسلكا مدرجا سهلا يمتد في وادي ايلسبري Aylesbury كما يمثل ونستابل بالقرب من وادي نهر فير Ver نحو الجنوب من وادي سانت ألبان St. Albans ، مسلكا يقطع شلترن Chilterns متجها نحو وادي سنت ألبان Vale of St. Albans ونستطيع أن نذكر في هذا الصدد مدنا كثيرة مشابهة يمكن أن تسمى مدن المنافذ والثغرات Gap-Towns تقع في نورث وسوث دونز North & South Downs مثل دوركنج Dorking وجلدفورد Guildford وأرونديل Arundel ، ولويس Lewes ومن النقاط الطريفة التي يمكن أن يضاف ذكرها بصدد المواضع



شكل (٣١) دنستابل وفيروليموس وسنت ألبان

التي نشأت فيها هذه المدن قديما علاقتها بتقاطع الطرق القديمة التي نشأت قبل ظهور هذه المدن ، تلك الطرق التي كانت عونا على تحديد مواقع أو أماكن قيام المدن . وهكذا ظهرت ونمت دنستابل Dunstable التي أضحت مدينة في العهد الانجلو سكسوني فقط حيث كان يتقاطع طريق واتلنج Watling street الروماني مع طريق اكنيلد Icknield Way الذي سبق انشاؤه في العهد الروماني ، كما ظهرت مدينة (فيروليموم) Verulamium الرومانية التي نشأت بجوارها مدينة سنت البان St. Albans السكسونية فيما بعد - بالقرب من مركز قبيلة كلتية عند التقاء طريق واتلنج Watling Street بدرب يرجع الى عهد سابق للرومان يتجه شرقا نحو كولتشستر Cholchester (انظر شكل ٣١) وعلى هذا النحو كانت دوركنج Dorking وجيلدفورد Guildford مراكز للعميران الانجلو سكسوني اقيمت عند أو بالقرب من نقط تقاطع الطرق الرومانية التي كانت تربط لندن وساحل سسكس / Sussex وطريق الحج Pilgrims way الذي يرجع لعصر ما قبل التاريخ ، والذي كان يمتد على طول حافة North Downs من الشرق الى الغرب . وربما كان الوادي الذي قامت فيه مدينة دورشستر Dorchester التي أسسها الرومان فحلت محل مدينة ميدن Maiden Castle (١) التي أنشئت فوق قمة تل في زمن أقدم ، يمثل كذلك بقعة كان يعبر فيها طريق دورست دونز القديم Dorset Downs نهر فروم Frome (انظر شكل ٣٢) وربما كانت المسالك التي تمتد على طول حواف المرتفعات من الشرق الى الغرب في أوائل العصور الوسطى - كما كانت بدون شك في العصور السابقة للتاريخ - أكثر أهمية من المسالك التي تمتد من الشمال للجنوب ، ولكن هذه المسألة تحتاج للبحث

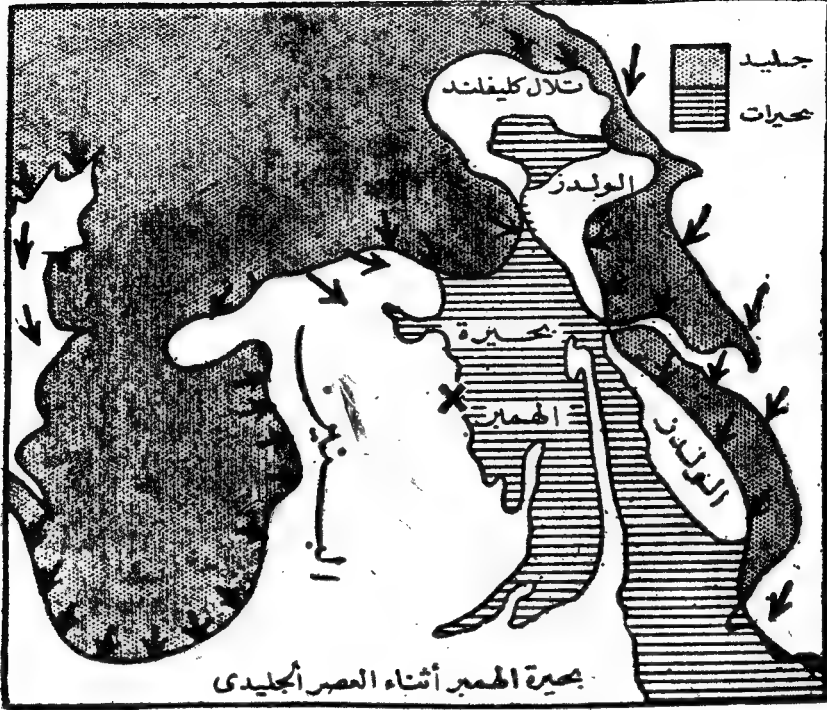
كما أن هناك ضربا آخر من مواضع قيام المدن لا يعد نادرا في أراضي انجلترا المنخفضة يمكن ان يطلق عليه (البقاع الجافة dry-point site) وهو اسم مناسب لان أهم مظاهرها انها كانت بمنجاة من طغيان الفيضانات ومن الممكن ان نعثر على مثل هذه المواضع في الاراضي التي تأخذ في الارتفاع داخل (سمرست) Somerset Levels أو عند حوافها أو أطرافها ، داخل نطاق هذه الرقعة الشاسعة من المستنقعات التي كانت من قبل تمتد في بعض اصقاع كامبردج Cambridgeshire ونورفولك Norfolk وهنتجتون Huntingdon ولنكولن Lincoln وبوركشير الوسطى ، وتتفق حدود المنطقة الاخيرة مع منطقة كانت تغطيها بحيرة واسعة كانت تسمى بحيرة الهمبر أثناء العصر الجليدي (انظر شكل ٣٣)



شكل (٢٢) دورستروم ومين كاسل (تظهر الطرق الرومانية ..
كان الطريق الذي يتبع سفوح الجبال قائما قبل الحكم الروماني)

وكانت هناك مدينتان تشغلان مثل هذه المواضع هما دونكستر Doncaster
والى Ely وكانت المدينة الثانية تقوم على تكوينات ظاهرة للعيان مما
يسمى بالرمال الخضراء Greensand تتوج ذراها الصلصال والجلاميد
(تكوينات ركامية من اثر الجليد) Boulder Clay التي كانت تظهر في شكل
تل يشرف على المناطق السهلة المحيطة التي تتكون من اللبد النباتي والتي
كانت دائما عرضة للفرق وبخاصة اذا اتفق هبوب العواصف الشمالية الشرقية
مع اوقات المد العالي وهطول المطر الغزير

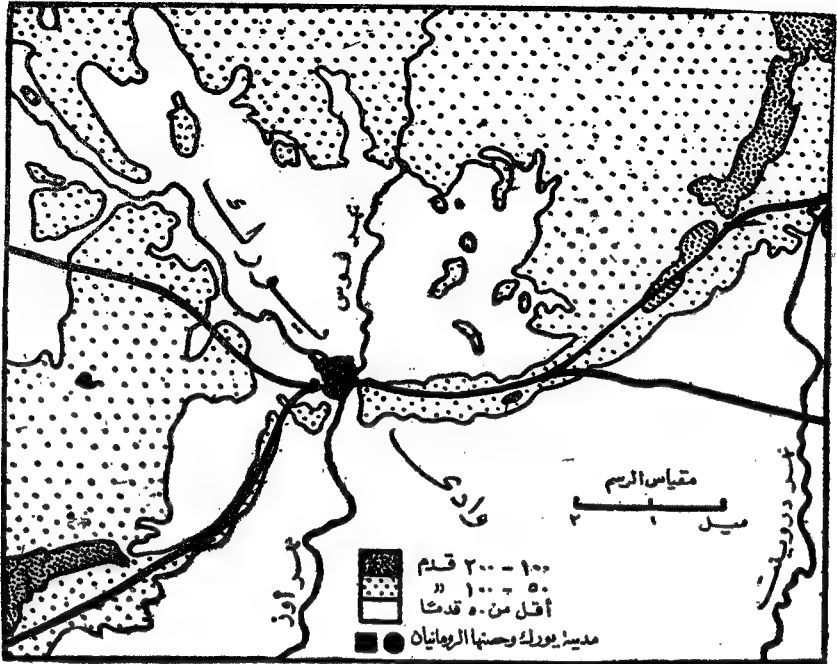
اما المدينة الاولى فقد نشأت على أرض مرتفعة فوق جسور الدون في بقعة
تبعد عن المنطقة المنخفضة المعرضة للفيضان والتي تقع الى الشرق بعدا كافيا .
وقد قامت دونكستر في اول أمرها على طريق الشمال العظيم Ermine Street
كمدينة رومانية ، مثلها في ذلك مثل كمبردج في موضع يتيح للمسالك التي
تمتد بين الشمال والجنوب الظروف المناسبة لتحف بالسهول التي تنتشر
بها المستنقعات



شكل (٣٣) بحيرة الهمبر أثناء العصر الجليدي
(الصليب بين موقع بلدة دونكستر)

وتقوم مدينة يورك التاريخية في بقعة تسترعى الانتباه ، اذ تنهض المدينة على نطاق ضيق من التلال يمتد معترضا وادي يورك Vale of York المنخفض (انظر شكل ٣٤) ، ويمثل هذا النطاق ركاما جليديا Moraine أى تكون من تراكم فتات الصخور التى أرسبتها الأنهار الجليدية أثناء العصر الجليدي . وكانت هذه التلال الركامية تمثل أكثر المسالك ملائمة لعبور الوادى بين Yorkshire Wolds فى الشرق وتلال بينين Pennine فى الغرب . فالى شمالها حيث كان يغطى الركام من الجلايد والصلصال معظم الوادى كانت تنتشر الغابات التى تشمل غابة جالترز Galtres ، أما الى الجنوب حيث كان الطمي من رواسب البحيرة يغطى قاع السهل فقد كان يعوق اختراقه مساحات من المستنقعات

وقد كان هناك فى الواقع طريق قد نشأ قبل العهد التاريخي يمتد على طول تلال الركام الجليدي من Wolds التى كانت تمثل منطقة مهمة للعمران والسكنى فى عصور ما قبل التاريخ ، وقد اختار الرومان الذين كانوا - دون ريب - يستخدمون هذا الطريق البقعة التى يخترق عندها نهر أوز Ouse



شكل (٣٤) : البقعة التي نشأت فيها يورك
(الطريق الذي يتتبع تلال الركام الجليدية بين الطرق الرومانية
يتفق مع مسلك كان مستخدماً في عصر ما قبل التاريخ)

تل الركام كما يتلقى رافده نهر فوس Foss لتشييد حصن بها ، وتشبه يورك دونكستر من حيث أن السفن المحيطة الصغيرة تستطيع أن تصعد في النهر لتصل إليها عن طريق الهمبر والأوز Ouse ، وقد أضحت بعد قيامها ملتقى مهما للمسالك . فقد كانت تمتلك حتى التسعينات من القرن الثامن عشر أول قنطرة عبر نهر أوز Ouse (١) ، إذ كان لا مندوحة لمن يرغب في عبور النهر نحو المصب من موقع يورك من أن يستخدم مركبا

ولا نستطيع أن نمضي أكثر من ذلك في سرد كل أنواع البقع أو المواضع التي تقوم فيها المدن الداخلية ، ولكن مما يسترعى الانتباه في إنجلترا علاقتها الوثيقة بالأنهار ، فبعض هذه الأماكن تمثل نقطا طبيعية لخوض مياه الأنهار مثل ولنجفورد Waulingford وقد أسسها الانجلو سكسون على نهر

(١) أقيم في التسعينات من القرن الثامن عشر قنطرة خشبية Leaf-bridge كانت تفتح لمرور السفن عبر نهر أوز Ouse نحو المصب من بلدة Selby من يورك ، فإذا أراد راكب السيارة الآن أن يعبر الأوز أسفل يورك ، فعليه إما أن يدفع رسما عند سلبى أو يعبر عند Cowood أو

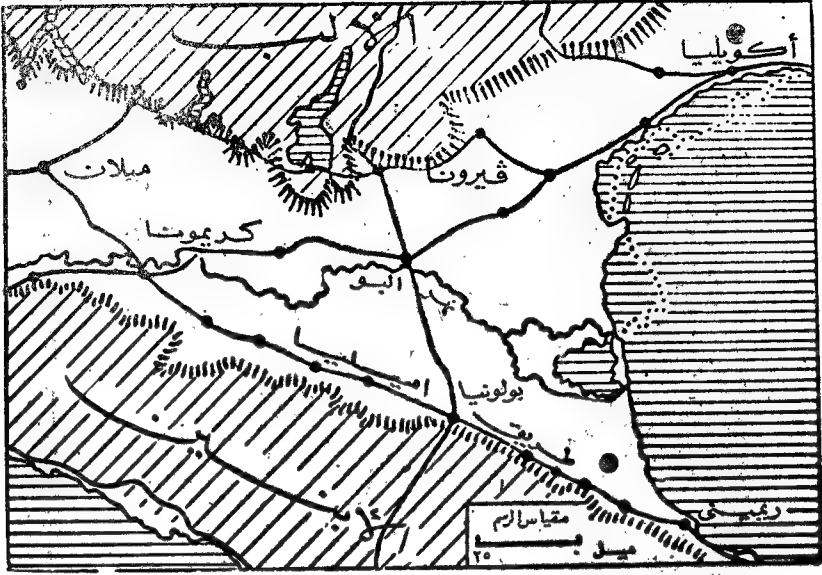
التيتميز (١) ، والبعض الآخر كشفيلد تقع عند نقطة التقاء الأنهار (٢) ، كما أن البعض الثالث مثل نورويتش Norwich وكنتربري Canterbury تشغل أرضا مرتفعة صلبة عند نقط بدء الملاحة أو بالقرب منها ، سواء أكانت ملاحا السفن الصغيرة التي تعبر المحيط أو السفن النهرية . ولكن رغم تباين الظروف الخاصة بشكل سطح الأرض أو المناخ تنأى المدن - رغم ذلك - عن الأنهار التي لاتصلح للملاحة والتي تتعرض للفيضانات العنيفة ، وينطبق ذلك على كثير من أراضي البحر المتوسط

وقد ذهبنا فيما سلف الى أنه يمكن ان نتبع مدنا منتظم صفوفا تمتد على طول منطقة التقاء بيئات طبيعية متباينة ، ويمكن ان نشير على سبيل الايضاح الى بعض أمثلة خاصة تظهر في شكل ٣٥ و ٣٦ ، فكثير من مدن السهل الشمالي في ايطاليا تمتد متراسة في صفوف على طول مناطق تتجه من الشرق الى الغرب في محاذاة محاور الالتواء الالبي والابنين فقد أنشأ الرومان على طول النطاق من الأراضي الصالحة للزراعة والتي تتوافر فيها موارد المياه الواقعة عند سفوح الابنين السفلى - طريق Aemilia كما أسسوا مدنا كثيرة (انظر شكل ٣٥)

وقد قامت هذه المدن على ضفاف الأنهار التي تهبط من الجبال صوب السهل اذ تمتعت بمواقع بديعة لتصبح اسواقا لقاطنى الجبل والسهل على السواء . ومما له دلالة نادرة المدن التي نشأت على ضفتى نهر البو الذى يذهب متعرجا ببطء فى وسط سهل فيضى مترامى الجوانب كثير المستنقعات . كما يبدو قيام المدن على شكل نطاقات تمتد على حافة سهل اسكتلندة الاوسط حيث تحف بأراضي المور في مرتفعات اسكتلندة الشمالية واسكتلندة الجنوبية ، كما يمكن ان نلاحظ امتداد المدن في خطوط عند حدود ويلز بالقرب من التقاء هضبة ويلز بما فيها من مراتع الاغنام ومراعى الماشية من جانب ، والمنخفضات التي تختلط فيها حرفة الرعى والزراعة من جانب آخر ، وتعد أوزوستري Oswestry وركسهم Wrexham من أمثلة تلك المدن (انظر شكل ٣٦)

ونستطيع ان نذكر في هذا الصدد كثيرا من المدن التي تقع عند السفوح السفلى للتلال ومدن الاسواق التي تحيط بهضبة دارتمور Dartmoor المرتفعة وبحافتى جبال البنين التي تضم فيما تضمه ليدز Leeds وويكفيلد Wakefield ومنشستر Manchester (انظر شكل ٣٧) ، ورغم ان الأنهار التي تقع بالقرب منها هذه المدن الثلاثة غير صالحة للملاحة ، فقد

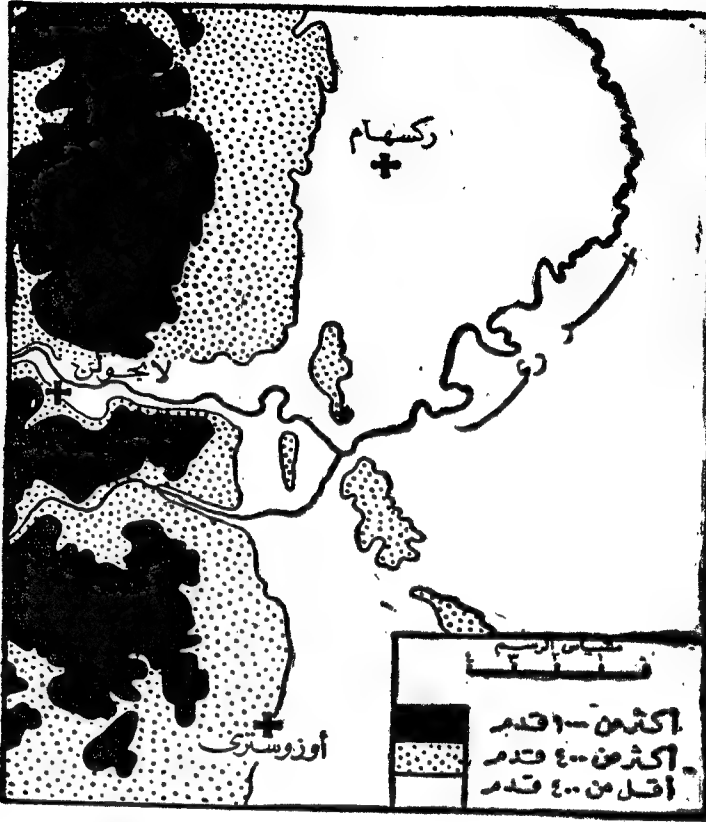
(١) انظر هيلير بلوك Hilaire Belloc في الكتاب المسمى Historic Thames (١٩٠٩)
(٢) وقد كان للأنهار التي تلتقى عند شفيلد أهمية لا باعتبارها طرقا ملاحية ولكن بوصفها مصادر للقوة المحركة



شكل (٣٥) يبين توزيع المدن الرومانية في سهل ايطاليا الشمالي . (الخط المـ) من النقاط يمثل خط الساحل الحالي ، لان الأرض قد تكونت من رواسب البو وغيره من الانهار)

أفادت في تحديد المسالك التي تصعد الهضبة في انحدار منتظم
واخيرا اذا تطلعنا الى البيئات الطبيعية التي لا تتمثل في أوروبا ، فيمكن أن
نلاحظ مثلا المدن التي تمتد عند التقاء الجبال والصحراء ، وهكذا قامت مدن
حوض تاريم Tarim Basin في آسيا الوسطى وهي قشغر Kashgar
ويرقند Yarkand وخوتان Khotan وتشرشن Cherchen واكسو Aksu
على منطقة هضبية Piedmont Zone من الحصى عند المنحدرات
السفلى للجبال في بلاد يكاذ يسودها الجفاف تمتد في صحراء تكلامكان
Taklamakan (انظر شكل ٦١) وقد أصبح من الممكن ممارسة الزراعة في
البقاع المحيطة بالمدن بفضل انبثاق الينابيع التي تنتشر على طول نطاق الهضبة
الى جانب المجارى المائية التي تهبط من الجبال في الربيع

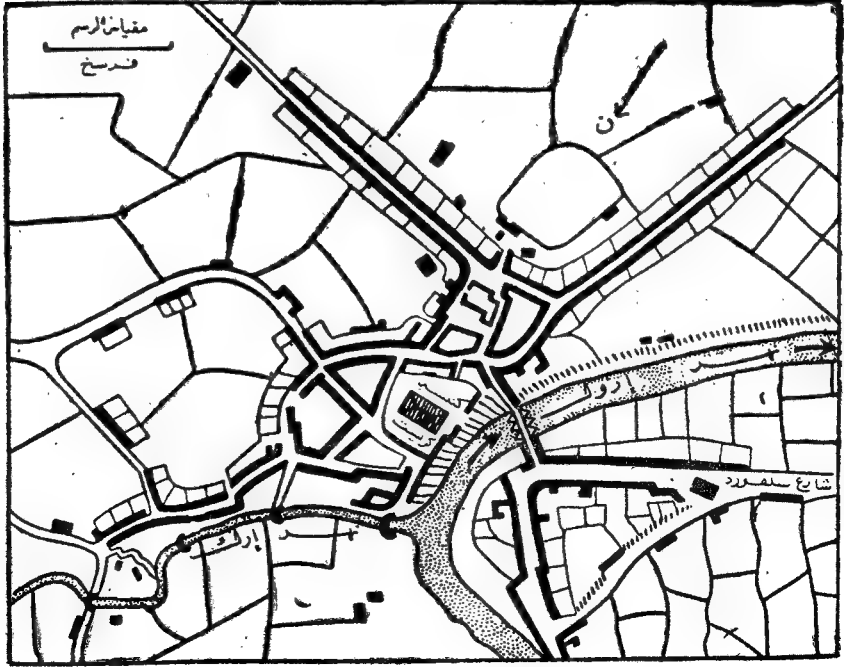
لقد ذهبنا من قبل الى أن اختيار الاماكن التي تقوم فيها المدن ومواقعها
يدل ضمنا على بعض الوظائف - على الأقل - التي تقوم بها هذه المدن ، اذ
يبدو أنه كان من الضروري أن تظهر مدينة في البقعة التي نشأت فيها مدينة
طروادة أو قريبا منها في الازمنة القديمة حين كان بحارة بحر ايجة يفامرون
باقتحام البحر الاسود عن طريق عبور مضائق الدردنيل وبحر مرمرة
والبوسفور التي تنتشر بها الالتواءات وتتناثر فيها الصخور ، وكانت هذه
المخاطرة تعد عملا تكتنفه المشقة ، فقد كان هناك تيار مندفع في سرعة على



شكل (٣٦) موقع مدن لانيجون وركسهام وأوزوستري

سطح المياه خلال المضائق من البحر الاسود الى بحر ايجة ، كما كانت الرياح السائدة هي الشمالية والشمالية الشرقية فيما عدا فصل الصيف، وقد كانت السفن تجد عند مصب النهر الذي كانت تقع مدينة طروادة عليه الامن والحماية ، كما كانت تنتظر حتى تهب الرياح الملائمة وتتزود بالماء وتحصل على المؤن

ولكن هل كان لابد للندن - بحكم البقعة التي نشأت فيها وموقعها - ان تصبح عاصمة لانجلترا ؟ حقا انه بفضل تقدير الرومان لمزاياها الجغرافية أصبحت المركز الرئيسى لالتقاء المسالك في جنوب بريطانيا ، حين وضع لها الرومان لأول مرة نظاما يجعل من هذه المنطقة وحدة سياسية ، ورغم ذلك فلم تكن لندن بل يورك عاصمة بريطانيا تحت الحكم الرومانى لانها كانت اقرب الى الاسوار الرومانية ، ولم تصبح لندن او بالاحرى وستمنستر Westminster



شكل (٢٧) منشستر وسالفورد حوالى ١٦٥٠ م
(طبقا لاين Aikin .. فقد كانت نواة منشستر في العصر الروماني تقع على أرض مرتفعة بين نهري Irwell, Irk ، يلاحظ بداية ظهور العمران في شكل مناطق ضيقة أو اشربة وظهور الحقول التي تحيط بمراكز السكنى كما تتخللها)

عاصمة للبلاد الا في القرن الثاني عشر حين أصبحت المقر الدائم تقريبا للحكومة والمحاكم . فضلا عن مزاياها كملتقى للطرق (١) وكميناء فقد كانت لندن تمتاز بنشأتها في منطقة منخفضة تعد بفضل ماتوافر فيها من ظروف التربة والمناخ والسطح أكثر مناطق بريطانيا سكانا وإنتاجا سواء من حيث أحوالها القائمة أو إمكانياتها ، وذلك في العصور الوسطى حين كانت الزراعة تمثل أساس نظام هذه البلاد الاقتصادي (انظر شكل ٢٨) . ومما يسترعى الانتباه انه في المدة التي مرت بين عهد Domesday Book (١٠٨٦ م) حتى حوالى ١٧٥٠ حين أخذت الثورة الصناعية تغير من نظام توزيع السكان ، ظل نصف إنجلترا الجنوبي الشرقي اكتفأ اصقاعها سكانا (٢)

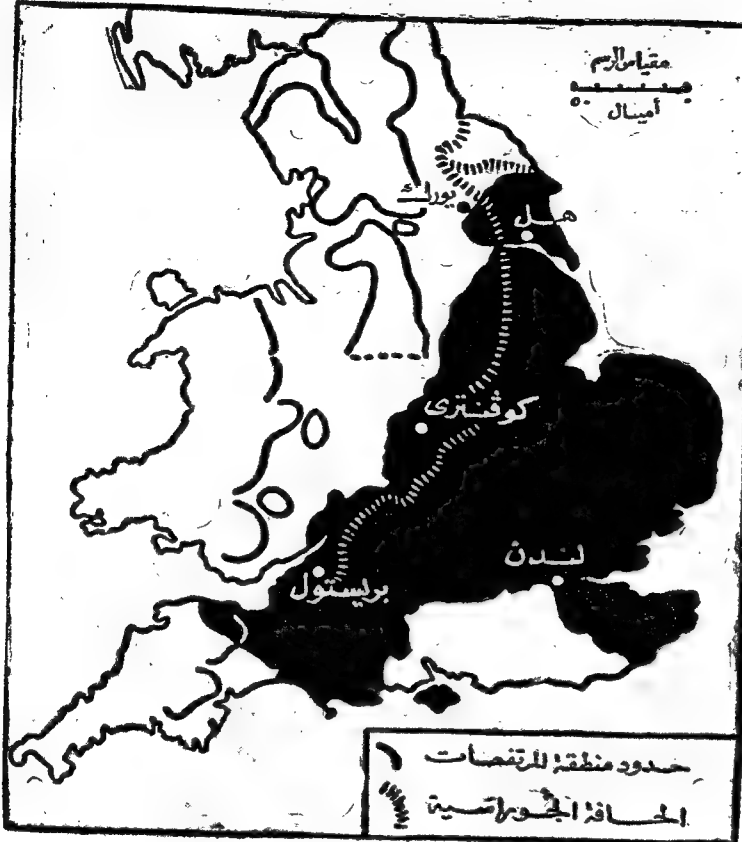
(١) انظر أشكال ١٧ ، ١٨ ، ١٩ السالفة

(٢) انظر خرائط السكان في كتاب An Historical Geography of England before 1800 H. C. Dorby الذى صدر بإشراف (١٩٣٦)

وقد ذكر كامدن Camden الانثرى الانجليزى ان « المدن والحوضر لا تقل فيما تلقاه من اضطراب وعدم استقرار عما يكتنف ظروف حياة الناس وسعادتهم منها » ويمكن ان نسوق كثيرا من الامثلة لنجلو كيف تؤدي التغيرات الطبيعية الى اضمحلال أو اختفاء مدن كانت مزدهرة وهى فى ذلك لا تقل فى اهميتها عن الثقبات التى تحدث لاسباب تتصل بالكائنات البشرية

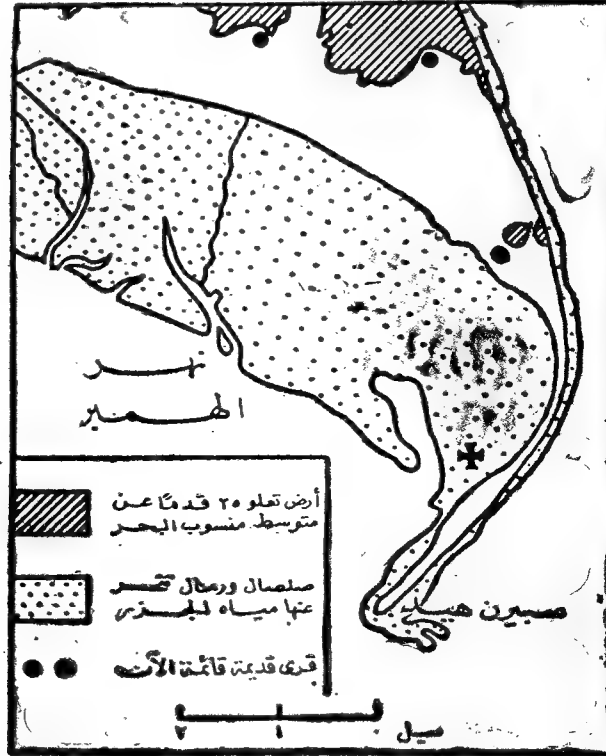
« مدن اندثرت وكانت قائمة من قبل بجانب تل أصبح يخيم عليه السكون أو خليج زايله النشاط والحركة »

فمدينة بروج Bruges التى أصبحت الآن مدينة صغيرة الشأن كانت تحتل مكانة مرموقة بين مدن شمال غرب أوروبا من قبل ، فقد أكرهت على أن تتنازل عن مكانتها لانتروب التى انتزعت منها قصب السبق ، لأن الطريق المائى الذى كان يقضى اليها قد طمره الطمي فأخذت السفن تبحث عن مياه



شكل (٢٨) بين اكتشافات بريطانيا الجنوبية سكانا (حوالى ١٢٠٠ م)
(طبقا لـ R.A. Polkam بعد تعليقاتها)

الشلد الامينة العميقة ، كما ان مدينة رافنزر أود Ravenser Odd التي لم تظل باقية على الزمن الا مدة قصيرة استتمعت بالرخاء الاقتصادي أكثر من قرن ، فقد تحكم في تاريخها الذي يشير الاسي تحكما قاسيا الظروف الطبيعية ، اذ قامت المدينة على حاجز رملي صغير تكون من رواسب بحرية على مقربة من رأس سبرن Spurn (انظر شكل ٣٩) ، فوجد فيه صائدو الاسماك ضالتهم لتجفيف شباكهم وانزال ما يصيدونه من الرنجة الى البر ،



شكل (٣٩) البقعة التي نشأت فيها رافنزر أود من قبل
(يبين الصليب هذه البقعة نقلا عن J.R. Boyle ، ولكن T. Sheppard يرى انها كانت تقع الى شمال شرق موقع سبرن هيد الحالي)

ثم اجتذبت التجار ، اذ بلغت من الازدهار مبلغا أدى الى أن أحست جرمسبي Grimsby الواقعة على الجانب الآخر للهمبر وجة منافستها الحادة ، وكشفت عن امتعاضها بوضوح ، ورغم انها منحت ميثاقا يتضمن حقوقها من التاج بل كانت ترسل ممثلها الى البرلمان ، فقد اندثرت تماما في منتصف القرن الرابع عشر حين أغرقتها موجات المد التي أرسبت التكوينات التي

قامت عليها المدينة من قبل

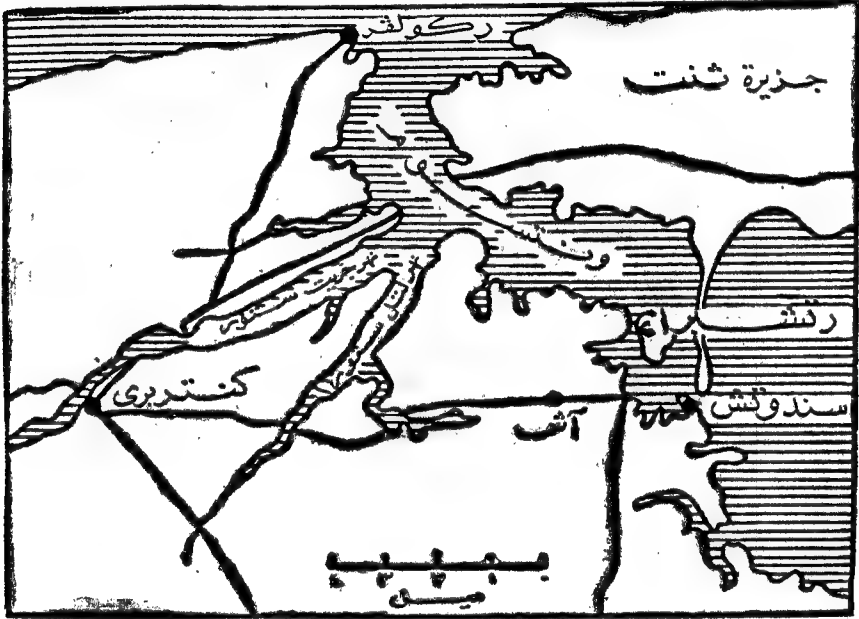
ولم يكن المصير الذى انتهت اليه ما عرف باسم الموانئ الخمسة Cinque Ports الواقعة فى سسكس Sussex وكنت Kent أقل عنفا من ذلك فى العصور الوسطى (١) ، اذ كانت هناك قوتان من قوى الطبيعة تعملان فى تضافر على طول هذه السواحل ، مما أفضى آخر الامر بعد تجفيف المستنقعات الى اضمحلال النشاط البحرى ..

وكانت احدى هاتين القوتين الطبيعيتين تيارا ينقل الحصى على طول ساحل سسكس فى اتجاه الشرق مما أدى الى تكوين ارسفة بحرية كاذبة False Beaches أما القوة الاخرى فقد كانت نحت البحر للرؤوس البارزة فاخفت تماما نتيجة لذلك بعض المدن وبخاصة أولد هاستنج Old Hasting ، وأولد وينشلسى Old Winchelsea وهما من المدن التى أسسها السكسون ، على حين اخذت المياه العميقة الممتدة خلف ما تكون من الارصفة الحصوية تزداد ضحولتها تدريجيا فى بعض المدن مثل راى Rye و (رومنى) Romney حتى اصبحت « موانئ الكبرياء المتطامنة » Ports of Stranded Pride كما أصاب سيفورد Seaford حدث غير مألوف حين فقدت مرفأها الطبيعى ، اذ تحول خليج سسكس أوز Sussex Ouse نحو الغرب ، وبهذا انتزعت منها نيوهافن Newhaven وظائفها ونشاطها البحرى ، الذى كان اختيار هذا الاسم ليطلق عليها موفقا لانها نشأت اثناء حكم الملكة اليصابات على ضفة الخليج الذى تحول عن مكانه الاول (٢)

ولا يتبادر الى الذهن على ضوء الظروف الراهنة أن مدينة Richborough فى كنت ، كانت تمثل ميناء بحريا هاما فى بريطانيا اثناء الحكم الرومانى لانها تقع فى الداخل تماما تحيط بها المروج التى تنمو فى المنخفضات Low meadows ، ولكنها رغم ذلك نشأت فى أول الامر فى جزيرة تقع وسط قناة وتنتسوم Wantsum Channel الذى كان حينئذ مياها معرضة لحركات المد لتفصل جزيرة ثانت Thanet عن اليابس (انظر شكل ٤٠) وقد تراكم الحصى الذى كون حاجزا امتد ليغلق المدخل الشرقى لونتسوم Wantsum الذى قام على كسب منه ميناء ساندوتش Sandwich السكسونى ، وقد أفضى ظهور هذا الحاجز أو اللسان الحصوى الى تحول نهري Great Stour و Little Stour من القاء مياههما فى وونتسوم Wantsum الى القاء رواسبهما

(١) انظر J. A. Williamson فى مقاله « The Geographical History of the Cinque Ports » فى History of the Cinque Ports المجلد الحادى عشر (١٩٢٦) صفحات ٩٧ - ١١٥
(٢) انظر F. G. Morris, Newhaven and Seaford فى Geography المجلد السادس عشر (١٩٢١) صفحات ٢٨ - ٣٣

من الطمي فيه ، فضلا على ان مياه المد قد اوضحت عاجزة عن تعميقه تعميقا فعلا ، فلم يأت منتصف القرن الخامس عشر حتى أصبح ونتسوم Wantsum يحتوى على الطمي أكثر مما يجري فيه من المياه ، وهكذا اختفى المجرى الذي كان يتمتع بالحماية ، وتحول الى مراعى مفيدة بفضل أعمال الاصلاح « وهكذا أصبحت الاغنام الساذجة ترعى الآن حيث كانت السفن التجارية الايطالية التي كانت تفد من البندقية وأرجوزا وغيرهما تغازل النسيم »

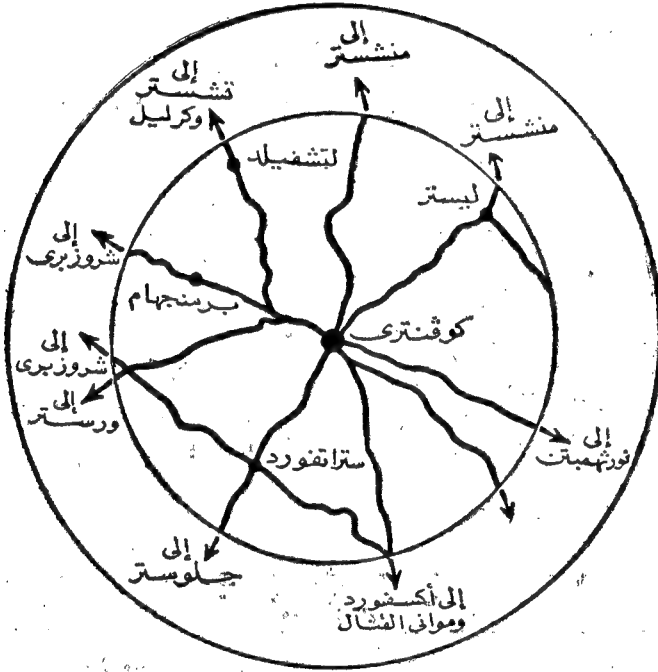


شكل (٤٠) ونتسوم تشائل (بين الطرق الرومانية)

ولسنا بحاجة في هذا المقام لان نذكر الكثير من الامثلة لحدوث تغيرات تمخضت عن اضرار كالسابقة ، وقد ختمت تشستر نشاطها منذ منتصف القرن الخامس عشر ، رغم انها قد نهضت في موقع ملائم على الحافة المطلة على البحر Midland Gate of England لتستخدم كميناء يربطها بايرلندة ، ويعزى ذلك الى تراكم الرمال في خليج نهر دى Dee بل ان بعض الموانى البحرية الواقعة على بحار لا تتأثر بحركات المد كثيرا قد قاست اضرارا مشابهة ، فقد أصبحت رافنا Ravenna وأكويليا Oquileia اللذان كانا من موانى الادرياتيک في عهد الامبراطورية الرومانية .. مدينتين داخليتين يفصلهما عن البحر مستنقعات قد جففت ..

كما ان ما يصيب الامطار التي تسقط في البقاع الجافة من ذبذبات الى

جانب العوامل البشرية قد يفسر ماتعرض له المدن من اضمحلال أو هجرة، فقد أقل نجم مدينة تدمر التي كانت تعج بالنشاط التجارى مثلا ، وهى مدينة تقع فى هضبة سوريا الشرقية رغم ما بلغت من سطوة وسلطان بعيد وما تمتعت به من ثروة طائلة فى القرن الاول الميلادى ، ولم يحدث هذا نتيجة لمنافسة مصر التجارية فحسب بل ربما يعزى كذلك الى حدوث فترة امتازت بجفاف أشد وطأة



شكل (٤١) كوفنتري ملتقى الطرق فى القرن السابع عشر

وأخيرا يمكن ان نشير الى « شكل ٤١ » لانه يمثل ما ذكرناه بصدد مايصيب المدن من صروف الدهر القلب وما يعترى مصائرهما من تغير ، فرغم ان سهولة اتصال المدينة بالخارج لا يدل دائما أو من الضرورى ان يشير الى أهميتها النسبية أو مدى اتساع العلاقات التى تربطها بالعالم الخارجى ومبلغ قوتها ووثاقه أوأصرها فانها تلقى أضواء قوية مع ذلك ، فاذا القينا نظرة على شبكة الطرق التى كانت منتشرة فى القرن السابع عشر لتبين لنا كيف كانت كوفنتري التى أسست فى القرن الحادى عشر أهم بكثير من مدينة ليستر Leicester الرومانية القديمة ومدينة ليشفيلد Lichfield الانجلوسكسونية ومدينة برمنجهام الوليدة التى كان مستقبلها لايزال مكنونا فى صدر التاريخ

التخوم والحدود

« حقا ان الحدود كمنصل الموصى ، يتوقف عليها نشوب الحرب أو استقرار السلم ، وحياة الشعوب أو فناؤها »
تورد كيرزون - الحدود

مهما تباينت الحقائق التي تميز المنطقة التي خضعت للتنظيم السياسي في أية دولة ، فان هذه المنطقة تمثل وحدة جغرافية لها موقع معين محدود ، وتضم رقعة متفاوت وضوح حدودها . وتبدو الدول خلال التاريخ كأنما انشئت انشاء مصطنعا ثم نمت وتباعدت أرجاؤها بل وزالت ، ولكن الواقع انها في معظم الاحيان - بوجه عام - تولد وتنمو نتيجة لاحتلال الارض وتعميرها واشاعة النظام فيها . .

فهناك حدود معروفة ومتواضع عليها لكل دولة في جميع ادوار تاريخها وذلك الى حد ما ، حيث تتاخم مناطق لا تتبع قوانينها ولا تسير فيها الشئون وفقا لرغباتها ، وتضم مناطق الحدود تخوم الدولة التي يجرى فيها خط الحدود الذي قد يكون محدودا معروفا وقد لا يكون كذلك . وتحشد الدولة في منطقة التخوم عادة شطرا كبيرا من قواها الدفاعية ، كما تتركز حصونها وقلاعها لان الغرض من وراء هذه التخوم هو ان تقيم الدولة سياجا قويا تستطيع الدولة ان تمارس داخل نطاقه وظائفها ، كما يستطيع مواطنوها ان يعيشوا في كنفها في أمن وطمأنينة

وعندما نتناول بالحديث حدود الاراضي التي تدخل في حوزة الدولة ، علينا ان نفرق بين استخدام كلمة تخوم Frontier وهي تعنى منطقة ، وبين كلمة حدود boundary التي يقصد بها خطا . وعلى حين ظهرت التخوم بهذا المعنى في كل عصور التاريخ ، فان الحدود التي لا بد ان تسمح وتبين على الخرائط ، بل وربما توضع علاماتها على سطح الارض تعد شيئا جديدا ظهر في عصر حديث نسبيا ، وأول مثل نعرفه بوضوح بشأن وضع الحدود وتخطيطها طبقا لشروط معاهدة ، ماحدث في القرن التاسع حين قسمت امبراطورية شرلمان بين أحفاده الثلاثة (انظر شكل ٤٢) ولكن مع ذلك لم يكن هناك تخطيط واضح لهذه الحدود على اديم الارض

وفي سنة ١٧١٨ رسمت حدود ثابتة حقا على الخرائط بين كل من فرنسا

والأراضي المنخفضة النمساوية ، ولكن ظل الأمر مقصوراً على تبيان التخوم فحسب حتى آخر القرن الثامن عشر في أوروبا ، ولم تعرف الحدود على وجه التحقيق إلا نادراً ، وبفضل تقدم علوم المساحة والخرائط واختفاء التعقيد والتداخل في حقوق ملكية الأرض أضحت من الممكن تعيين حدود الدول الأوروبية ببعض الدقة ، ولكن في الوقت الحاضر بعد أن رسمت حدود الدول الأوروبية بدقة - شأنها في ذلك شأن الولايات المتحدة - فلا زالت الحدود التي تظهر في شكل خطوط غير قائمة دائماً في جهات العالم الأخرى التي تعد أقل سكاناً والتي لم تمسح أراضيها إلا قليلاً



شكل (٤٢) بين تقسيم امبراطورية لوشير
بمقتضى معاهدة فيردون في ٨٤٣ م

ولكن الى أي حد أصبحت دراسة تخوم الدول مما يدخل في نطاق الجغرافيا ؟ يجب أن نذكر أن هذه الحدود إنما تمثل نوعاً واحداً من بين عدة أنواع من التخوم المختلفة التي يألها الجغرافي - بل أن بعضها يعني الجغرافي من النواحي الجغرافية مباشرة أكثر مما تعنيه التخوم السياسية ، فتوجد مثلاً تخوم طبيعية بمعنى الكلمة تمثلها الدلتا التي تمتد في بحر معرض لحركات

المد ، كسواحل البحر التي تصبح حيناً جزءاً من البحر وحيناً آخر جزءاً من اليابس ، فهي تمثل منطقة انتقال بين منطقتين تختلفان من الناحية الطبيعية ، كما ان الجغرافى يتصور وجود تخوم مناخية ونباتية وعمرانية

وفى كل من الحالات ليست التخوم الا منطقة انتقال ، فلا تعد فاصلاً حاداً صارماً واضح السمات ، ولما كانت هذه التخوم تمثل رقعة من سطح الارض فان من الواضح ان تقدر اهميتها الجغرافية ، ومن اليسير ان نبتين أهمية التعرف على الاسس الجغرافية لتخوم الدولة ، فلا شك ان الظروف الطبيعية التي تسود التخوم مما يعنى الدول الملاصقة لهذه التخوم كثيراً ، لان لها علاقة بما تمتاز به طرق المواصلات ووسائل النقل والدفاع من صعوبة أو يسر

فلو ذهبنا الى القول - ولا ينطوى ذلك على زراية أو سوء ظن - بأن الدول تؤثر دائماً أن تتخذ تخوماً لتفصل بينها وبين جيرانها ، فانا نستطيع ان نبتين أن هناك ظروفًا طبيعية معينة تصلح لهذا الغرض تماماً ، فقد كانت المحيطات والصحراوات والسلاسل الجبلية ومناطق المستنقعات والغابات .. تعد خير انواع التخوم الفاصلة وبخاصة فى الازمنة السالفة ، وذلك لاسباب مقبولة تلخص فى أنها تمثل صعوبات تعرقل انتقال الانسان كما أنها لاتعول عدداً كثيفاً من السكان

وقد أصابت الامبراطورية الرومانية فى اختيار التخوم التي اتخذتها لتفصل بينها وبين العالم الخارجى فى القرون الاولى للميلاد وذلك طبقاً لهذه الوجهة من وجهات النظر ، فكانت أمواج المحيط الاطلسى الذى تعذر اجتيازه تتلاطم على شواطئ بريطانيا الرومانية وبلاد الغال واسبانيا ، كما وقفت فتوح الرومان فى الجنوب عند شمال افريقيا وسوريا وفلسطين على اطراف الصحارى الشاسعة التي تضم الصحراء الكبرى وليبيا وبلاد العرب ..

أما فى الشرق فقد كانت حدود الامبراطورية تمتد على طول الفرات الاعلى الذى كان يشق طريقاً عميقاً قد حفر فى جبال أرمينية ، كما كانت تصل فى الشمال الشرقى حيث كانت تمتد على شواطئ البحر الاسود .. الى اطراف الاستبس الروسية ، أما فى أوروبا القارية فلم تكن الطبيعة قد حبت تخوم الامبراطورية بمثل هذه الحماية الطبيعية ، مما أفضى فى النهاية الى انهيارها أمام زحف جحافل الغزاة من الجرمان ، كما كانت تمتد التخوم عبر نهرين كبيرين أو على طولهما وهما نهر الراين والدانوب اللذان كانا - كما هو شأن الانهار عادة - أصلح كاداة للربط منهنما كعقبتين طبيعيتين ، إذ كان السكان ينزلون على ضفاف هذين النهرين الا حيث تتعذر سكنهم فى السهل الرسوبى

الفيضي ، فضلا على انهما كانا صالحين للملاحة

وقد توخينا حتى الآن الا نستخدم كلمة « التخوم الطبيعية » لانها ماثار كثير من البلبلة وسوء الفهم ، فمن الخطأ أن ندعى أن تخوم للدول من املاء الطبيعة ، فكثيرا ما كانت تخفق العقبات الطبيعية الحقبة في أداء وظيفة تخوم للدول . فرغم ما يبدو من أن الجزيرة ذات المساحة المتوسطة أو الصغيرة تمثل اطارا يصلح أن تقوم في نطاقه دولة ، فكثيرا ما ظلت مثل هذه الجزيرة تمزقها الانقسامات السياسية كما حدث في بريطانيا حتى سنة ١٧٠٧ ، كما أن خط تقسيم المياه في جبال البرانس الذي يكاد يفصل الآن تماما بين فرنسا واسبانيا ، لم يكن حدا سياسيا فاصلا خلال عصور التاريخ

و « التخوم الطبيعية » تعبير يطلق أحيانا على العقبات الطبيعية كالهيمالايا التي توفر الكثير من أسباب الامن والطمأنينة ، كما استخدمت كرداء أو ستار يخفي وراءه الاطماع السياسية ، فتسمى بهذا الاسم التخوم التي من شأنها أن تضيف الى رقعة الدولة ، وهكذا ادعت فرنسا أن تخومها الطبيعية تمثل الرين والالب والبرانس التي كانت تحيط ببلاد الغالة الرومانية ، وهي تمثل منطقة أكثر اتساعا نشأت منها فرنسا في القرن التاسع (انظر شكل ٤٣)

ونستطيع أن نستمد من ممالك انجلترا الانجلوسكسونية، في أول عهدها بالظهور أمثلة توضح كيف كانت التخوم في العصور القديمة تميل الى أن تسير أو تتفق مع امتداد الاراضي « السلبية » حيث المواصل صعبة والعمران نادر الى حد بعيد (انظر شكل ٤٤) وكانت تقع حدود هذه الممالك وتفصلها بعضها عن البعض الآخر أراضي الغابات والمستنقعات والاراضي المور Moors وساحل البحر . ولا يزال بعض هذه الممالك يمثل مقاطعات تحمل الآن الاسماء القديمة مثل كنت Kent ، سسكس Sussex ، فقد ساعدت المنطقة المتسعة من الاراضي المنبسطة التي تغطيها المستنقعات والبلد النباتي والظمى والتي تقع حول واش Wash على عزل ايسل انجاليا East Anglia عن مرسيا Mercia ، كما فصلت الغابات الكثيفة التي كانت تنمو في التربة الرطبة الصلصالية في الويلد والرومني مارش Romney marsh, weald مملكة الجوت في كنت Kent عن مملكة السكسون الجنوبية South Saxon Kingdom - كما كانت تمتد تخوم نورثمبرلند Northumberland وهي أكثر الممالك تطرفا نحو الشمال - بين الهمبر حتى تشرف على الساحل الجنوبي Firth of Forth وتصل حدودها الغربية الى المنطقة القليلة السكان في أراضي المور المرتفعة في البنين ومرتفعات اسكتلند الجنوبية

وكانت هناك في العصور الوسطى منطقتان من مناطق التخوم تتباين ظروفهما



شكل (٤٤) بين الممالك الانجلوسكسونية في القرن الثامن
(ظلت المنطقة المظلمة ككتبة في لغتها وتنظيمها السياسي)

ولم يتم توحيد بريطانيا السياسية الا ببطء ، فلا زال هناك الكثير مما يذكرنا بالوحدات السياسية السابقة التي اندمجت في بريطانيا القائمة الآن - كالحدود الادارية لانجلترا واسكتلندا وويلز ، وبقايا اللغات الكتبية في ويلز ومرتفعات اسكتلندا ، وبازدياد الوعي القومي بين سكان ويلز واسكتلندا . وتعد دراسة الجغرافية التاريخية للتخوم في بريطانيا موضوعا على جانب كبير من الاهمية ، ولكن لم يتناوله البحث الا في بعض نواحيه ، وسنحاول هنا

ان نستعرض بايجاز تاريخ الحدود بين انجلترا وويلز من الناحية الجغرافية ولنبدأ بذكر الحقائق الطبيعية ، فهل هناك اقليم طبيعي يمكن تمييزه عن بقية بريطانيا الجنوبية ، يقابل بوجه عام ويلز كما تظهر الآن في شكل وحدة ادارية ؟ يبدو ان الاجابة هي نعم ، رغم ان الحدود البرية لمثل هذا الاقليم موضع خلاف وتحتاج الى بعض المناقشة ، اذ تبرز شبه جزيرة متسعة ممتدة من بريطانيا نحو الغرب بين خليج دي Dee في الشمال وقنال بريستول Bristol Channel في الجنوب ، واذا كان شكل الساحل يبين بوضوح حدود ويلز في جوانبها الثلاث ، فهل يمكن تعيين حدودها البرية من النواحي الطبيعية ؟ هل تمتد ويلز كوحدة طبيعية الى وادي نهر واي Wye الادنى او حتى الى خليج السفن ؟ وهل تمتد أيضا حتى وادي دي Dee او الى ما وراءه ؟

ويمكن ان نلاحظ انه من الممكن وجود عدة حدود طبيعية لويلز في جانبها الشرقي ، ويبين شكل « ٢٤ » الحدود الشرقية للمنطقة التي تظهر فيها صخور الزمن الاول او البليوزوي وهي صخور على جانب كبير من القدم ، وتنتشر في كل أنحاء ويلز بحدودها الحالية تقريبا ، وان كانت تظهر على سبيل الاستثناء فحسب في مناطق متفرقة منعزلة في اطراف الاقليم الذي يعرف لدى الجغرافيين باسم السهل الانجليزي English Plain ، ولكن هل لهذا الخط او هذه الحدود أهمية جغرافية وجيولوجية ؟

اما من الناحية الجيولوجية فله أهميته اذ يفصل بين صخور الزمن الاول وبين صخور الزمن الثاني ، ولكن لا يمكن ان يكون له أهمية من الناحية الجغرافية الا اذا فصل بين بيئات طبيعية متميزة ، وليس هذا صحيحا ، لان الجزء الشرقي وبخاصة الجنوبي الشرقي من منطقة صخور الزمن الاول تمثل بيئة مختلفة عن بقية هذه المنطقة لاسباب متعددة ، فهي تمتاز بأنها اقرب للأراضي المنخفضة منها للهضبة ، كما يصيبها قدر من المطر أقل ، وتنتشر بها أنواع من التربة أكثر جودة

فلو تناولنا دراسة ارتفاع الارض داخل منطقة صخور الزمن الاول ثم انتقلنا الى دراسة توزيع المطر ، فسنبتين وجود خط او خطوط ذات أهمية جغرافية لا مراء فيها . ويبين شكل « ٣٤ » بجلاء الاختلافات بين الهضبة والبلاد الجبلية التي يعلو سطح أكثرها عن ٨٠٠ قدم وبين منطقة حدود منخفضة السطح نسبيا رغم ما يتخللها من كتل التلال الصغيرة المنفصلة ، كما ان شكل « ٤٥ » يؤكد الاختلاف في الظروف المناخية بين المنطقة المرتفعة التي تنعم بالمطر الوفير والأراضي المنخفضة التي تقع (في ظل المطر) وتلقى قدرا من المطر أقل كثيرا

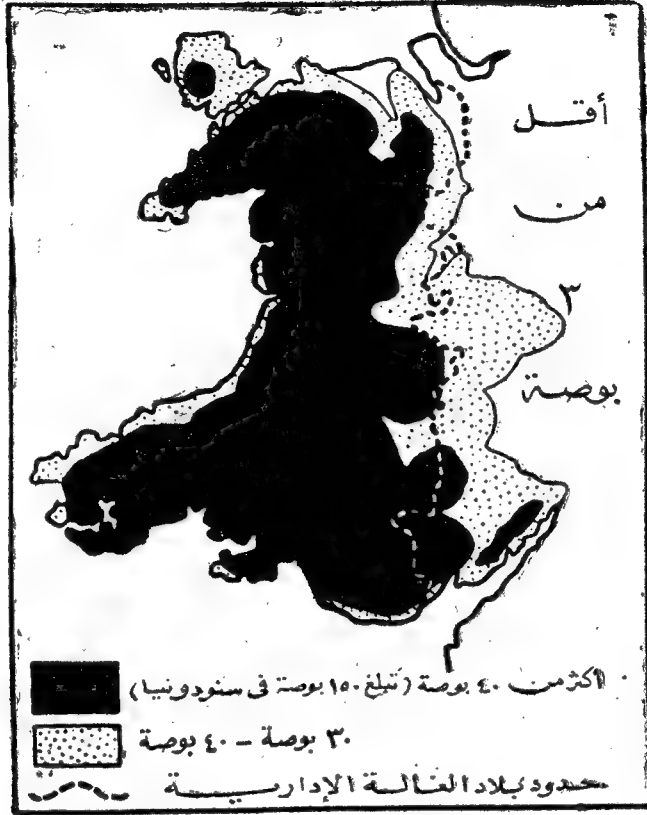
وأخيراً - حتى نستكمل رسم صورة ويلز كما تحددها الظروف الطبيعية - من الأهمية بمكان تتبع تأثير ظاهرات المناخ وسطح الأرض والارتفاع على امكانيات المنطقة الاقتصادية ، فنجد فيما ذكرناه ما يبرر ان نتصور ان ويلز على ضوء ظروف الارتفاع أو السطح والمطر السائدة - أى كما حددناها من الوجهة الطبيعية - ثلاثم حياة الرعى قبل أى شىء آخر ، اذ توجد الحشائش فى تربتها الرطبة غير المسامية الرقيقة فى أكثر الاحيان كما تتمتع بالشتاء المعتدل ..

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى توجد كثير من العوامل التى لا ثلاثم قيام الزراعة من برودة الصيف وتجاوز الرطوبة القدر الملائم وجذب التربة وصغر مساحة السهل . فلو كانت الوديان فى العصور السالفة تغطيها الغابات ويغطى قمم الهضبة غالباً مستنقعات اللبد النباتى boggy فقد كانت تتوافر المراعى لرعى الماشية والخيول والماعز والإغنام فى مناطق متسعة تنتشر بها التلال وجوانب الهضبة بل والمراعى الجبلية فى الصيف . أما زراعة الحبوب - وهى أساس الزراعة فى أنحاء السهل الانجليزى - فقد كانت تحتل مكاناً ثانوياً فى ويلز ، بل لقد كانت تربية حيوان اللبن واقتناء الماشية - حتى فى شمال غرب ويلز وجنوبها الغربى وبخاصة فى انجلىسى Anglesey وبمبروك Pembroke حيث تتوافر مساحات واسعة من الاراضى المنخفضة - مهمة فى العصور الوسطى شأنها اليوم ..

وكان الشوفان يمثل نوع الحبوب التقليدى فى ويلز ، كما فى اسكتلندة - وهو نوع من الحبوب شديد الاحتمال مما يجعله ملائماً تماماً لظروف المناخ المحلية . ولدينا أمثلة عديدة خلال التاريخ تشير الى وجود تباين بوجه عام بين طرق المعيشة فى ويلز المرتفعة وانجلترا المنخفضة ، فقد قدم لنا جيرالد من Gerald the Welshman ويلز الذى وضع كتابه فى القرن الثانى عشر صورة جديرة بالتصديق عن أسلوب المعيشة فى ويلز (١)

« يعيش السواد الأعظم من السكان معتمدين على منتجات قطعانهم والشوفان الى جانب اللبن والجبن والزبد ، فيتناولون من اللحم قدراً أكبر مما يأكلون من الخبز . ولم يكونوا يعنون بالتجارة أو النقل بالسفن أو الصناعة .. فالجانب الأكبر من أرضهم تنتشر فى أرجائه المراعى ، اذ يزرع القليل منها . كما انهم لم يقيموا المدن والقرى والقصور الحصينة ولكنهم كانوا يعيشون فى عزلة فى الغابات »

(١) انظر كتابه The Itinerary through Wales and the Description of Wales, by Giraldus Cambrensis. فى مكتبة « Everyman's Library » (١٩٠٨)



شكل (٤٥) خريطة المطر في بلاد الغالة ومنطقة الحدود

كما ورد ذكر تمرد الجنود من الانجليز الذين كانوا يشتركون في الحملات التي كانت تجرد للقتال عند حدود ويلز في القرن الثالث عشر ، لان غذاءهم كان من اللحم واللبن ، على حين كانوا قد اعتادوا بوصفهم سكان السهول ان يطعموا الخبز والجعة Ale ، واخيرا كان نوع السكن الشائع في ويلز هو السكن المنعزل كما ذكر جيرالد ، على حين كان الامر على النقيض في السهل الانجليزى اذ كانت القرية المكتظة مألوفة ، وان لم تكن هي وحدها التي تمثل نوع السكن . ويبدو ان للظروف الطبيعية علاقة وثيقة بانتشار المساكن المبعثرة التي كانت ولا تزال تمثل أكثر انواع السكن ومواطن العمران شيوعا في ريف ويلز اذا قورنت بالقرى . وموارد المياه كانت موفورة في كل مكان تقريبا ، كما كانت المزارع المتفرقة أكثر صلاحية لممارسة حرفة الرعى التي تفرضها الظروف الطبيعية . واخيرا من الواضح ان مرتفعات ويلز قد ظلت - لقسوة ظروفها الطبيعية وفقرها - حتى تم أول تعداد سنة ١٨٠١ من أكثر مناطق بريطانيا

الجنوبية التي تمتاز بندرة سكانها

وصفوة القول اننا نستطيع ان نجد في نطاق الاراضى المنخفضة الذي يمتد من Cheshire خلال مقاطعات Flintshire و Shropshire و Worcistershire و Herefordshire و Gloucestershire الشرقية - في ضوء الظروف الطبيعية على الاقل - منطقة تخوم تلتقي فيها مرتفعات ويلز بالسهل الانجليزى وتأخذ طرق المعيشة في التباين ، كما كانت تنمو الغابات المتسعة في هذه التخوم في العصور القديمة لانتشار التربة الصلصالية في هذه الارحاء ، فوقفت الغابات عقبية أمام السكان النازحين من انجلترا . ولكن رغم ذلك فقد كانت البقاع المنخفضة المتاخمة للحدود تمثل منطقة سهلة الاتصال اذا قورنت بداخل ويلز ، فكانت منطقة احتكاك في الحرب والسلم بين الشعوب من سكان التلال والسهول ، ومما جعل الاتصال سهلا أن الانتقال من ويلز الى منطقة الحدود كان أيسر من التحرك داخل ويلز نفسها (انظر شكلى ٢٣ و ٢٤)

قد ذهبنا فيما سلف الى الرأى القائل بأنه كان يوجد اقليمان طبيعيان متجاوران ومختلفان تماما من نواحى الجغرافية الطبيعية هما مرتفعات ويلز والسهل الانجليزى ، ولكن متى وفي أية صورة ظهرت هذه التخوم بين الدول والثقافات المتميزة المختلفة لأول مرة ؟ لقد أوضحت آثار ما قبل التاريخ كما تدل على ذلك خرائط توزيع الحضارات المتتابعة (١) ان هناك ما يشير الى وجود منطقة تخوم ثقافية بين الجهات المنخفضة والمرتفعة في بريطانيا الجنوبية، فقد تلقت بريطانيا الشعوب والافكار من كل النواحي .

وربما كان من أقدم المداخل المختلفة المدخل الذى يمر بويلز وبعض جهات غرب بريطانيا ، (انظر شكل ٢١) فتطالعنا أدلة تشير الى وجود مناطق حضارية ذات حدود غير واضحة في كل العصور ، تقع واحدة في الغرب بوجه خاص تتفق حدودها وامتدادايرلندة وبريطانيا الغربية ، وأخرى قائمة في السهل الانجليزى ، ولكن لم تكن هناك حدود فاصلة واضحة ، أى لم تكن هناك حضارة خاصة بويلز مقصورة عليها ، فقد كانت ويلز تولى وجهها شطر البحر بوجه خاص في عصور ما قبل التاريخ أى نحو ايرلندة ، وكورنويل وبريتانى والبحر المتوسط ، ولكنها لم تنج رغم ذلك من تأثير الحضارات القائمة في السهل الانجليزى . وربما كانت هناك اختلافات عنصرية بين سكان ويلز وانجلترا في القرن الاول الميلادى حين غزا الرومان جنوب بريطانيا .

ورغم ان الجزائر البريطانية كانت تسكنها شعوب تتكلم الكلتية في ذلك الحين ، الا ان هذه الشعوب كانت خليطا من عناصر متعددة وصلت الى

شواطئها في عصور ما قبل التاريخ ، من بينها جماعات تنتمي لجنس البحر المتوسط الذي نزل على السواحل الغربية ومن ضمنها ويلز ، ومن المحتمل انه دخل بريطانيا من بابها الغربي لان هذا العنصر كان معدوما الى حد كبير في انجلترا المنخفضة



شكل (٤٦) التقسيم الثقافي في بريطانيا الجنوبية حوالي ٢٦٥٠
(منطقة الاستعمار الانجلو سكسوني مظلمة باللون الاسود
نقلا عن S. W. Wooldridge كما ظهر اتجاه Offa's dyke)

ظهرت أدلة واضحة تشير الى قيام تخوم لويلز أثناء الاحتلال الروماني لبريطانيا ، ورغم أن الفرق الرومانية أكملت غزو انجلترا في أربع سنوات فقد استغرق اخضاع ويلز نحو أربعين عاما لصعوبة تنظيم وتوجيه الحملات وسهولة الدفاع عن هذه البلاد التي تنتشر في أرجائها الجبال والتلال ، بل ظلت ويلز حتى بعد أن تم غزوها واخضاعها تمثل منطقة تخوم أو منطقة عسكرية كما كان شأن انجلترا الشمالية واسكتلندا الجنوبية - مختلفة ومنعزلة عن

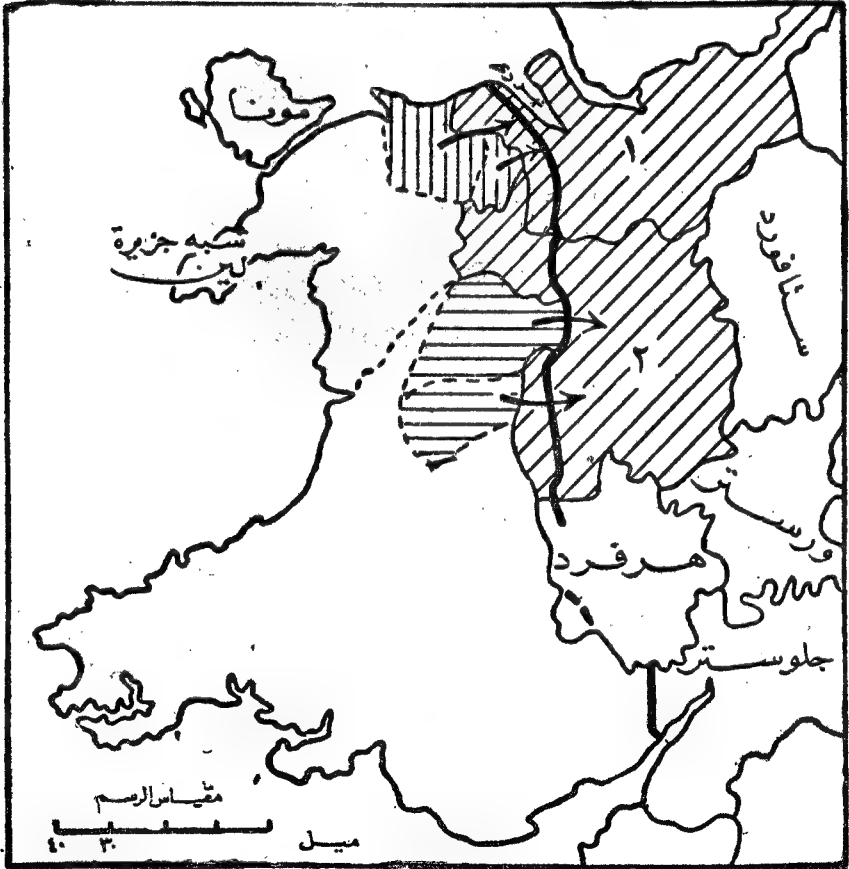
الحضارة الرومانية التي سادت إنجلترا المنخفضة .. تقوم في عزلة عنها
أما من حيث الآثار التي خلفها الرومان وراءهم في ويلز فقد كانت مقصورة
على قلاعهم ، وما رصفوه من طرق حربية ، لان مدنها (مزارعهم أو مساكنهم
الريفية Vileas) كانت مركزة في إنجلترا الجنوبية بوجه خاص على حين
كانت ويلز تكاد تخلو منها . (انظر شكل ٢٤) ، ومما زاد الاتصال بين ويلز
وانجلترا امتداد مناطق الغابات عند التخوم التي ظهرت في أرجائها بعض
مراكز العمران والسكنى التي تأثرت بالطابع الروماني

ولكن تخوم ويلز بدت أكثر وضوحا في الفترة التالية حين استعمر إنجلترا
الانجليز Angles والسكسون Saxons والجوت Jutes ، وربما كانت
الفترة بين ٤٥٠ - ٦٥٠ م تمثل أول أدوار سكنى الانجلوسكسون ، فقد
أصبحنا على حق منذ ذلك الحين فقط في التحدث عن إنجلترا كبلد منفصل
عن ويلز . فكلمة ويلزى أى من سكان ويلز Welsh « كلمة بربرية » كما
أشار الى ذلك Gerald the Welshman فقد اشتقت من كلمة Wealhas
(أو الاجانب) التي أطلقها السكان من الانجلوسكسون على شعوب ويلز
وكورنوال وغرب ديفون Devon . وقد وصل الاستعمار الانجلوسكسونى
- كما يبدو في شكل ٤٦ - سنة ٦٥٠ م الى وادى السفن Severn Valley
وان لم يكن قد بلغ مرتفعات ويلز . فهل استنفذ هؤلاء المهاجرون من الجرمان
قوتهم ؟ أم هل كانت تبدو جبال ويلز وهضابها منفرة يصدف عنها المستعمرون ؟
أم كان غزو ويلز عملا غير مأمون العواقب ؟

ولكن أيا كان الامر ، فقد وضعت لويلز حدود واضحة وذلك حين قامت
ممالك الانجلوسكسون في العهود التالية في البقاع التي أخضعت وأمتد اليها
العمران ، كأقليم سد أوف Offa's Dyke كما أطلق عليه بحق - على طول
الحدود الغربية لمملكة أوف ملك Mercia في القرن الثامن ، وكان
يبدأ في الشمال عند بقعة تقع غرب دى Dee لينتهى في الجنوب على طول
وادي واى Wye الأدنى ، ولكن هذه التحصينات لشئون الدفاع - وهى
تتألف من خندق وحائط حصين - لم تكن متصلة تماما ، اذ لم تنشأ في
سهل هرفورد Hereford حيث كانت الغابات الكثيفة تمثل عقبة طبيعية ،
وقد كانت هذه التحصينات تمتد وسط أراضى مرتفعة تعلو أكثر من ٨٠٠
قدم فيما عدا Eastern Monmouth and Flint فالى الغرب من سد أوف
كانت تقوم ويلز بسكانها ممن يتحدثون الكلتيه ، أما الى الشرق فقد كانت توجد
مملكة مرسيا Mercia بسكانها من الانجليز ممتدة حتى الهمبر وأعالى
التيمنز . وايسر انجليا East Anglia وقد كانت مرسيا Mercia مملكة
تخوم March كما يبدو من اشتقاق اسمها ، تسودها لفظة الانجليز

وحضارتهم وتناظر ويلز التي كانت تمثل قلب النطاق الكلتى الغربى ، ولم يتضح بعد الى اى مدى كان سد أوفّا Offa's Dyke يمثل الحدود الغربية لمناطق سكنى الانجليز .. هذا اذا صح هذا القول

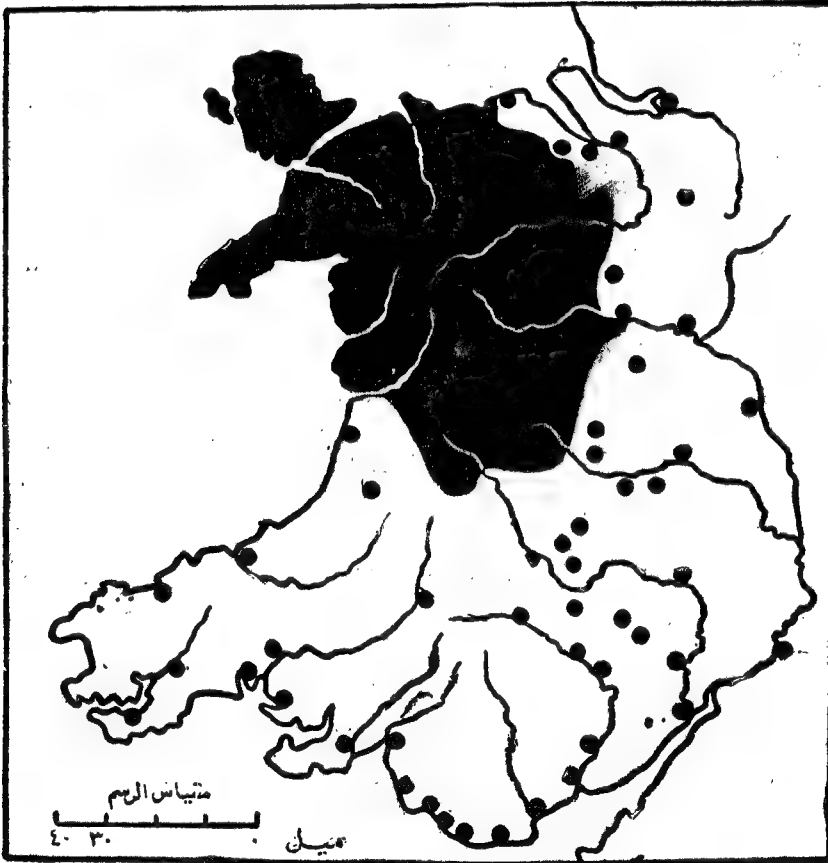
وكان يبدو للنورمانديين كما كان شأن الانجلو سكسون ان غزو ويلز اما صعب جدا او غير مفر ، ولذلك كانت سياستهم ترمى بدلا من ذلك الى خلق امارات Marcher Lordships على طول حدود ويلز او فى داخلها ، وقد كان ينتظر من لوردات امارات التخوم الذين منحوا استقلالا حقيقيا ان يهبوا للدفاع عن هذه التخوم ، وان يوسعوا رقعتها باقتطاع اراضى امارات ويلز كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا (انظر شكل ٤٧)



شكل (٤٧)

املاك لوردات مناطق الحدود فى تشستروسالوب فى ١٠٨٦ م
(يشار اليها بـ ٢٤١ على التوالى ، كما يظهر Offa's dyke)

وقد أسفرت هذه السياسة عن نجاح كبير، فشيدت القلاع كلما أضاف حكام مناطق الحدود أراضي لآماراتهم وذلك لحكمها ، كما أخذ المستعمرون من الانجليز ينتقلون في أثرهم نحو الغرب (شكل ٤٨) فاستقر المهاجرون في جنوب ويلز بوجه خاص ، كما أقيمت القرى الانجليزية التي تستخدم نظام الحقول التي لا تحيطها الاسيجة او الاسوار Open-field system ، ذلك النظام المعروف في Midland England في South Glamorgan Carmarthen Pembroke



شكل (٤٨) يبين توزيع قلاع النورمان في ويلز ومنطقة الحدود
(أشير الى Gwyned بالظل الاسود)

وتزودنا توزيع أسماء الأماكن الانجليزية - المناظرة للكلتية - بأدلة ترشدنا في تتبع هذا الاستعمار ، وقد ظهر أن أماكن العمران الانجليزية الجديدة كانت تنتشر في الجهات المنخفضة من ويلز بوجه خاص ، وهي التي تقع عادة على

مستوى ينخفض عن كنتور ٦٠٠ قدم فى الجنوب و ٨٠٠ قدم فى رادنور Radnor (١)

وقد تم اخضاع ويلز على يد الملك ادوارد الاول اثناء الفترة ٧٨ - ١٢٨٤ ، وقد اتخذت القوة الوطنية فى ويلز حينئذ جونيد Gwyned ، الواقعة فى الشمال الغربى معقلا لها (انظر شكل ٤٨) ، وقد كانت هذه المنطقة تتألف من انجلى Anglesey و Carnarvon و Merioneth وتتمتع بميزتين جغرافيتين ، فكانت منعزلة ويصعب الوصول اليها الى حد ما وذلك بفضل امتداد جبال سنودونيا Snowdonia ، كما كانت تضم مونا Mona أو انجلى Anglesey وشبه جزيرة لين Llyn التى توجد بها اراضى منخفضة « فقد كانت وجود بها القمح عن أية جهة أخرى فى ويلز » أو كما يذكر مثل مأثور قديم « ان مونا Mona هى أم ويلز التى تغذيها » كما اثر فى القرن الثانى عشر أن لغة ويلز فى الجزء الشمالى الغربى كانت أكثر غنى ونقاء ورقة عنها فى أية بقعة أخرى ..

وقد انشأ الملك ادوارد مقاطعات جديدة يطبق فيها قانون المقاطعات الانجليزى ويتولى شئون ادارتها - كما هو الشأن فى انجلترا - حكام المقاطعات وهم اكبر الموظفين بها ويدعون Sheriffs ومندوبو الملك القضاة Coroners « وهم موظفون يعينهم التاج للتحقيق فى الوفيات الفامضة وحوادث الانتحار وغيرها من الجرائم الخطيرة » ووكلاء الملاك Bailiffs ، كما جعل من امارة ويلز Principality (٢) التى اختص بها اكبر انجاليه الذى أصبح أول امير لويلز (انظر شكل ٤٩) . فاختفت ويلز سنة ١٢٨٤ كامارة مستقلة وأصبح اسمها يطلق على المقاطعات الجديدة ، بجانب اراضى أكثر اتساعا لا تنفذ فيها أوامر الملك . وانما كانت تطفى فيها سلطة لوردات أو حكام التخوم على كل ما عداها . أما حدود ويلز التى كانت قائمة حينئذ فقد كانت تحيط بها الحدود الغربية لمقاطعات Chester Salop ، Shropshire ، Hereford و Gloucester الانجليزية التى كان يقع بعضها الى الشرق من مواقعها الحالية

وقد مرت مرحلة أخيرة من تطور حدود ويلز اثناء حكم هنرى الثامن وذلك طبقا لمرسوم برلمانى صدر فى سنة ١٥٣٦ ، فقد اندمجت ويلز كلها من الناحية السياسية فى مملكة انجلترا ، كما قسمت اراضى لوردات منطقة الحدود الى مقاطعات وأدخلت تعديلات على حدود مقاطعات

(١) انظر الخرائط فى South Wales and the March 1284-1415 تأليف W. Rees (١٩٢٤) صفحات ٢٨ و ٢٩

(٢) حين تطلق كلمة Principality ينصرف الدهن الى ويلز حتى الان « المترجم »



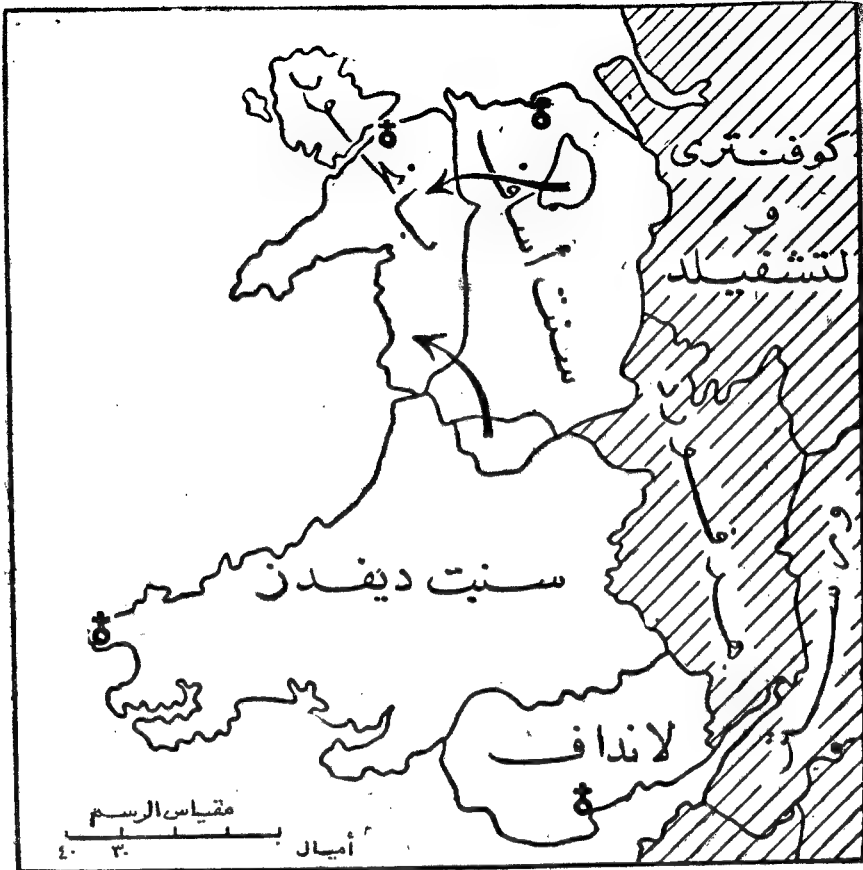
شكل (٥٠) بين المقاطعات الجديدة للملك هنري الثامن
(المناطق المظلمة بالأسود أضيفت الى مقاطعات الحدود في عام ١٥٣٦)

والتاريخية أو اللغوية « (١) »

ان من المؤكد ان هذه الحدود أصبحت تضم بلدا تصغر مساحته عن الاراضي التي تشملها امارات الحدود والمقاطعات التي أنشأها ادوارد الاول ، ولكن يبدو ان النفوذ الانجليزي قد اخذ يطفئ في جميع انحاء الحدود ، فضلا على ان هذه الحدود نفسها تضم مساحة اصغر من المنطقة المتسعة التي تشمل مقاطعات ويلز الاربعة الخاضعة لحكم الاساقفة (انظر شكل ٥١) . فاذا كان هناك حقا ارتباط قائم بين الحدود الجديدة وتوزيع لغات ويلز وانجلترا ،

(١) أنظر Tudor Policy in Wales تأليف J. F. Rees Historical Association

Pamphlet رقم ١٠١ (١٩٣٥)



شكل (٥١) بين أملاك الكنيسة في العصور الوسطى في بلاد الغالة ومنطقة الحدود

فان تحديد مدى هذا الارتباط ليس واضحاً ، ولكننا نعرف أنه لم يحل عام ١٥٣٦ حتى كانت اللغة الانجليزية قد انتشرت كثيراً وبخاصة في الجنوب الغربي وفي أوساط أعيان الريف في ويلز Welsh Squirearchy

ومما ساعد دون شك على وقف تدهور لغة ويلز التي يقل نسبة من يتحدثون بها اليوم عن ٤٠٪ من سكان ويلز . . ترجمة الأنجيل الذي طبع سنة ١٥٨٨ الى لغة ويلز (١) . . ولكن لاتخلو حدود ويلز من دلالة جغرافية . فهي تتفق مع الخط الذي يفصل بين الجهات المرتفعة والمنخفضة اذا استثنينا Flint و Monmouth بوجه عام ولكن هذا الخط لا يعد كما ذكرنا فاصلاً بين بيئات متباينة فحسب ولكن بين ظاهرات اقتصادية وثقافية مختلفة أيضاً

(١) أنظر مقالة A linguistic Map of Wales في D. T. Williams في The Geographical

البيئة والاقتصاد

« ما الذى يحمل الانسان على أن يركب البحر ؟ .. دعى من
هذا وهات سؤالا آخر . هكذا يقول بيلى ماجى Billy Magee
C. Fox Smith, Follow the Sea

لم يعد هناك من يعتقد انه لا مناص من أن تمر المجتمعات بثلاثة أطوار
في حياتها الاقتصادية في تتابع الواحد منها تلو الآخر، وهى دور الصائد ، فدور
الراعى ، فدور الزارع . فلا ريب أن الجماعة البشرية قد استطاعت أن تقيم
أودها في العصر الحجري القديم بصيد الحيوان الوحشى وجمع كل ما يصلح
لأن يتخذ طعاما من النباتات البرية ، أو مما يلفظه البحر على شواطئه ، بل
لا تزال هناك جماعات متأخرة حتى اليوم كالاستراليين من السكان الاصليين
الذين يسرون حثيثا في طرق الانقراض .. لم تشب عن طوق هذا الضرب من
الاقتصاد الذى يقوم على « جمع الغذاء »

ومن الخطأ ان نعتقد ان الزراعة قد أعقبت تربية الحيوان بصفة مطردة
وبدون استثناء ، أو ان الناس في بقاع معينة قد مارسوا هذين النوعين من
أنواع انتاج الطعام في وقت واحد أو متتاليين ، بل الاخرى بالتبصديق - كما
يبدو - أن بعض المناطق كانت تصلح للرعى دون الزراعة ، هذا وان كان البعض
الآخر كان أوفر حظا اذ يصلح للحرفتين معا ، أو بمعنى آخر فان الاقاليم
المختلفة كانت تصلح بحكم ظروفها الطبيعية لطرق معينة من الحياة

ولكن الانسان يقف دائما بين ظروف البيئة وبين ما يمكن أن نصفه بأنه
رد الفعل الاقتصادي وذلك بفضل استعداداته ورغباته ونزواته الخاصة ،
حتى انه لا يمكن التماس أسباب هذه الاستجابة الاقتصادية ودوافعها في ضوء
الظروف الطبيعية ونطاقها وحدها فحسب ... فرغم أن الطبيعة تحد من
نطاق ابتكار الانسان وافتنانه ، فهي ليست متباعدة الظرف الى حد كبير
فقط .. ولكنها على جانب كبير من المرونة ايضا ..

ومن ثم كانت الحلقة الجغرافية التى تربط بين طرق حياة شعب ما وظروف
بيئته الطبيعية وان كانت قائمة بادية للعيان فهي ليست دائما مطلقة أو
واضحة من تلقاء نفسها بالقدر الذى يعتقدده أو يتصوره أنصار الحتم البيئى
المتزمتون ، فضلا على أن طبيعة هذه الاسباب تثير كثيرا من المشاكل المهمة

فقد رأى أن تدخل الانسان بعمله وما يترتب عليه من نتائج مباشرة يمثل الحلقة الحقيقية التى تربط الجغرافيا بالتاريخ ، فلو وجدنا السبيل للتعرف على هذه الحلقة بين العلمين ، لادرنا وضع الجغرافيا بالنسبة للتاريخ الاقتصادى

وان ما يزعمه القلاء ممن يؤمنون بتأثير البيئة . . بأن طريقة الحياة التى تحياها الشعوب المختلفة انما هى من املاء الظروف الطبيعية فى بيئاتهم تبسيط كبير للمشكلة لا نجد عناء فى دحضه ، فسكان الجزائر مثلا لا يتجهون دائما نحو البحر ، وان كان يبدو ان البحر يدعوه اليه ، فلم يكن اليابانيون أو الانجليز أو الكورسيكيون بحارة مهرة لعدة قرون ، كما لم تجذب الآخرين من بينهم الحياة البحرية كثيرا . . كما ان توافر الموارد الطبيعية من القمح والحديد لم يغير من اتجاه الصينيين الذين كانوا ولا يزالون زراعا ارتبطوا بالارض بوشائج وثيقة ، كذلك فان المناطق الفسيحة التى تنتج القمح فى الوقت الحاضر فى جنوب روسيا والولايات المتحدة كانت مناطق يسودها الرعى كما هو شائع ، وتقوم عليها نظم اقتصادية تعتمد على ممارسة صيد الحيوان والرعى ، ومن جانب آخر لا يستطيع احد أن يقطع بصواب الراى القائل - بأن الناس كانوا يختارون طرق حياتهم فى الماضى دون اعتبار لامكانيات بلادهم - وذلك دون أن يتورط فى الخطأ

وعلى هذا الضوء ، اخذ الجغرافيون يقفون موقفا وسطا او موقفا « امكانيا Possibilist » بين هذين الرايين المتطرفين . فيذكر انصار هذه النظرية المعتدلة فى معرض الدفاع عن راىهم ان أية رقعة من سطح الارض تتيح لساكنيها امكانيات متفاوتة نطاقها ضيقا واتساعا ليختاروا من بينها ما يريدون تبعا لحاجاتهم ومقدرتهم واهوائهم . وقد دافع عن هذا الراى دفاعا مجيدا قوية (ل. فيفر L. Febvre) فى مؤلف يبعث على التفكير (١) ، وهو راى ينطوى على كثير من سلامة التفكير والحصافة من الناحية المنطقية ، وان كان يبدو انه فى حلبة الجدل والمساجلة قد اغرق فى الاندفاع بعيدا اثناء معارضته لنظرية الحتم أو الجبر القديمة . .

فما يسترعى الانتباه ان طرق الحياة الرعوية فى بعض جهات الارض وبخاصة فى البقاع الجافة وشبه الجافة . . قد ظلت دون أن يطرأ عليها تغيير جوهري الا قليلا منذ فجر التاريخ ، ومن هذا القبيل التشابه فى أساليب الحياة التقليدية فى جهات الصحارى الباردة ، وبعبارة أخرى فان الجهات التى تفرض نمو أنواع محدودة من النباتات يصبح مجال النشاط الاقتصادى

(١) مقدمة جغرافية التاريخ A Geographical Introduction to History, English translation الترجمة الانجليزية (١٩٢٥)

الذى يمكن ان يمارسه الانسان في ربوعها محدودا ايضا ، على تقيض عروض الوسطى حيث يصبح المناخ أكثر ملاءمة لوجود الحياة النباتية والحيوانية مما يتيح للانسان مجالا أوسع لبذل الجهود لكسب رزقه

وان تبان طرق المعيشة تباننا كبيرا في بلاد لا يبعد بعضها كثيرا عن البعض الآخر ، لبدو واضحا من العالم القديم الذى عرفه الاغريق القدماء . فقد فطن عدد كبير من المؤلفين الاغريق - مثل هيرودوت واصطرابون - الذين جمعوا في مؤلفاتهم بين النواحي الجغرافية والتاريخية الى وجود الاختلافات الثقافية بين الشعوب المعاصرة لهم ، واستنتجوا ان هذه الاختلافات ترتبط كثيرا بالاختلاف في البيئات ، وهكذا اذا كانت طرق معيشة الاغريق المصريين والاثيوبيين والفرس والاسكيديون شديدة التباين فلم تكن أسسها الجغرافية بأقل اختلافا وتباينا

وسنوضح بعض نواحي التباين في أساليب المعيشة بالإشارة الى بلاد الاغريق القديمة واسكيديا Scythia : فكانت بلاد الاغريق القديمة تضم مساحة أصغر بكثير من شبه جزيرة الاغريق الحالية ، وأهم أجزائها شبه جزيرة تقع الى جنوب خط يمتد من خليج Arta في الغرب الى سالونيك في الشرق فضلا عن جزائر متعددة (انظر شكل ١) . وقد كانت هذه البلاد تمثل عالما صغيرا على جانب كبير من التباين ، يضم البحر والجبال والصخور العارية والسهول الصغيرة ، قد قطعت الطبيعة الى بقاع صغيرة متعددة منعزلة ..

وكانت تعد المظاهر الآتية مميزة لبلاد الاغريق .. وهى وقوعها على كُثب من البحر الذى تغلف فيها ، وسيادة مناخ البحر المتوسط فيها ، وما يقوم بين الجبال والتلال والسهول فيها من ارتباط وثيق . ولكن كانت الحضارة الاغريقية تذوى على عتبة العالم المتبرير ، حيث كان يمتد اليابس بعيدا عن البحر ، وحيث كانت توجد مناطق منخفضة واسعة كما في تساليا ومقدونيا ، اذ يفقد مناخ البحر المتوسط خصائصه المثالية النقية ، كما كان نظام الاقتصاد الاغريقى يتصل اتصالا وثيقا بطبيعة بلادهم التى كانت تحد من تطور هذا الاقتصاد .. فكان أهم ما يواجههم من الصعوبات ، المنطقة الجبلية الواسعة التى تتألف من الحجر الجيرى المسامى بوجه خاص والذى يغطى نحو ٨٠٪ من سطح البلاد ، وان كانت غابات الصنوبر والتنوب Jir والبلوط الدائم الخضرة التى تعد موردا للاخشاب ومرعى خشنا للحيوان تغطى في بعض العصور مساحة أكبر مما تغطيه الآن وقد كان المناخ أهم ما حبيت به .. فرغم جفاف الصيف ، فإنه كان

يسمح بنمو عدد كبير من النباتات المفيدة في السهول الصغيرة ومنحدرات التلال ، كما كان من الأهمية بمكان أن الاغريق استطاعوا زراعة القمح والشعير شتاء وان لم يكن يسد حاجتهم ، وقد تمكنوا من زراعة الكروم والتين والزيتون على المنحدرات الجافة المشمسة ، هذا فضلا على أنهم وجدوا المرعى للماعزهم واغنامهم بانتقالهم بين قمم الجبال ووديانها أى النجعة Transhumance اثناء فصول السنة المختلفة ، رغم أن المراعى الجافة الخشنة قلما كانت تكفى أو تصلح لتربية الماشية

ومما نلاحظه ان هذه النجعة كانت امرا مألوفاً دائماً في بلاد الاغريق شأنها في ذلك شأن بلاد البحر المتوسط الأخرى وغيرها ، ورغم ان الظروف قد قضت باختفائها من بعض الجهات (١) فلا زالت قائمة . وهى تمثل حالة تكيف فيها الانسان تبعاً لظروف أملاها المناخ أو النبات الطبيعى ، أما في الجهات المنخفضة فقد كانت المراعى الطبيعية متوفرة اثناء أكثر الفصول مطراً فحسب أى في الخريف والشتاء لان الصيف كان حاراً جافاً معاً ، أما على قمم الجبال فعلى عكس ذلك لان المراعى تتوافر في الربيع والصيف نتيجة لتأثر المطر والحرارة بالارتفاع ، على حين تحول البرودة والثلوج دون نمو المراعى شتاء . ومن ثم أصبح الانتقال الموسمى للقطعان بين المراعى في الجهات المنخفضة والمرتفعة ضرورياً في تلك العصور التى لم يكن العلف الصناعى فيها معروفاً

وقد استثمر الاغريق البحر أيضاً ، اذ كانوا يأكلون منه لحماً طرياً مما يصيدونه من أسماكها وبخاصة التونة ، الى جانب صنفين آخرين من الصدف يمدانهم بمواد تستخدم في الصباغة ، كما يبدو لهم البحر سبيل الاتصال اليسير ، لان الجبال التى تمتد نحو اليابس كانت تقف حائلاً يعوق كل انتقال أو حركة ، وكانت الانهار لا تصلح للملاحة لأنها كانت تفيض بالسيول المندفعة أحياناً وتصبح جافة أحياناً أخرى ، وقد ركب الاغريق البحر وسلكوا الطرق البحرية كتجار ينقلون منتجات صناعتهم الى الاسواق الواقعة وراء البحار . ومجمل القول ان البيئة الطبيعية لبلاد الاغريق قد وفرت الاسس المادية للحياة المتحضرة بعد ان بذلت جهوداً طائلة لكي تجود بها ، وقد تطلب ذلك - كما قيل - أن يقوم الاغريق بتدعيم الحضارة الاثينية ، اذ يعجز عن النهوض بهذا العبء الاغريق خارج بلاد الاغريق أو أى عنصر سوى الاغريق في بلادهم ..

وتعد بلاد الاغريق القدماء مثلاً يدعم ما ذهب اليه الجغرافى الالماني ريتشر Ritter حين ذكر أن لبعض البلاد تأثيراً تثقيفياً على الشعوب . أما بلاد

(١) أففى استخدام الاعلاف الصناعية وتحويل أراضى المراعى المنخفضة للزراعة الى تضييق الخناق الى حد ما على انتشارها

الاسكيديين التى كانت اكثر اتساعا من بلاد الاغريق القدماء فقد كانت تبدو للاغريق كعالم غريب ، استرعى انتباههم سواء لما كان يشقه من أنهار عديدة كبيرة يمكن استغلالها أو لاتساع « سهوله المستوية ذات التربة العميقة » (١) (أنظر شكل ١ ، ٢١)

وكانت تمتد هذه البلاد بجبهتها على البحر الاسود وبحر آزوف بين دلتا نهر الدانوب ومصب نهر الدون ، أما فى الداخل فتمتد لمسافة يقارب طول سواحلها - أى لمسيرة عشرين يوما - وكانت تنتهى بلاد اسكيديا شمالا حيث تنتقل استتبس جنوب روسيا الى الغابات أو استتبس البساتين ، فتشتد وطأة برودة الشتاء كما يصبح الصيف أكثر برودة من الجهات الجنوبية

وقد لاحظ هيرودوت أن ما يصيب اسكيديا من المطر صيفا أغزر مما يسقط بها شتاء . وهى ظاهرة مناخية لا تميز بلاد الاغريق ، ولو أنها من مميزات النظام القارى فى أوروبا ، وكان الشتاء فى اسكيديا أيضا طويلا قارس البرودة ، تقسو فيه البرودة حقا على حيوانات الحمل التى تستخدم فى بلاد الاغريق كالبلغل والحمار ، وإن لم يكن مما يتعذر على الحصان أن يحتمله ، حيث يجد فى السهول المتسعة المكشوفة فى اسكيديا بيئة ملائمة له ، وكان أكثر انحاء اسكيديا كما هو الحال الآن خلوا من الغابات

ومن النتائج الطريفة التى تمخضت عن ذلك ما ذكره هيرودوت - إذا صدقنا روايته - من أن الاسكيديين كانوا يستخدمون عظام الثور كوقود لطهى لحمه ، كما كان نظامهم الاقتصادى يختلف تماما عن نظام الاغريق ، إذ ظلوا متشبثين بأهداب الحياة الرعوية التى نقلوها معهم من آسيا الوسطى ، فرعوا الماشية والخيول فى مراعى الاستتبس الغنية كما اعتمدوا الى حد كبير على البان الخيل وصناعة الجبن والزبد منها لكى يقيموا أودهم ، على حين كان سكان الجهات الجنوبية القصوى من اسكيديا التى تصل حدودها الى شواطئ البحر يزرعون القمح والذرة الرفيعة والعدس والبصل والثوم ويقتاتون منها ، بينما كان البعض الآخر ممن يعيشون غربيهم يزرعون القمح ليستخدموه « لا فى طعامهم ولكن للتجار فيه »

ولا ريب فى أن الإقلاع عن حرفة الرعى يعزى الى تغلغل نفوذ الاغريق انثقافى وما أتيح لتجارة القمح من فرص نقله بسهولة عن طريق البحر ، وكانت الانهار الكبرى فى جنوب روسيا قرب مصباتها الخليجية تزودهم بصنف من السمك يستخرج منه البطارخ sturgeon يسمى الدخس ، وكذلك بالملح

(١) هذا الوصف لحياة الاسكيديين مستمد أكثره من تاريخ هيرودوت Herodotus' History Bohn's edition (١٨٥٤) وقد كتب هيرودوت تاريخه فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد زار فعلا ساحل اسكيديا

«وقد كان الحصان وسيلة الاسكيديين في النقل ، وكانت قوافل التجارة تتكون من عربات تجرها الخيل ، اذ كانت التجارة البرية تمثل ناحية مهمة من نواحي نشاطهم الاقتصادى شأن غيرهم من الرعاة بوجه عام ويجمل بنا ان نذكر بصدد طريقة البدوى في التفكير وما تمتاز به حياة البداوة من مميزات استراتيجية ما ذكره ملك الاسكيديين لخصمه داريوس ملك فارس ، انه ليس بحاجة ان يشتبك في معركة قد استكمل فيها عدته وعتاده لانه كما قال « ليست لدينا مدن ولا اراض زراعية » . فالاسكيديون الذين لا توجد لديهم اماكن للاستقرار ثابتة - لان الخيمة وهى مسكنهم المألوف يمكن نقلها كما ان ثروتهم من الخيل والماشية يمكن ان تنقل في وقت الحاجة فضلا على ان استخدامهم الحصان كوسيلة للانتقال السريع - كل ذلك يمكنهم من التمتع بمزايا دفاعية ضد الاقوام المستقرة من الزراع الذين لا يستطيعون ان ينقلوا الكثير من ممتلكاتهم الى مكان امين ، كما انه اذا لحقها الدمار لا يصبح من اليسير تعويضها . فالتلف الذى يلحق اشجار الزيتون فى بلاد الاغريق مثلا يعنى خسارة رأس المال نفسه ، فلا تعود الاشجار لتنتج الثمار الا بعد ان يعتنى بها نحو عشرين عاما

وهكذا يبدو جليا ان اسكيديا التى تختلف تماما عن مدن الاغريق التى أصبحت دولا - من النواحي الجغرافية والاقتصادية - اتاحت لهذه المدن المجال فسيحا قريب المنال لممارسة التجارة ، أما مدن الاغريق التى أسست بالقرب من منافذ الدانوب ذاتها جنوب روسيا فقد كانت حلقات للاتصال ومراكز للتبادل اذ كان يجلب الاغريق اليها نبيذهم وزيتهم ومصنوعاتهم على حين كان الاسكيديون يأتون اليها بحنطتهم وجلودهم ..

ولما أصبح الاغريقى الحق هو الزارع الذى يعنى بمزارع زيتونه وكرمه وقطعانه ، والاسكيدي المثالى هو الراعى أو مربى الماشية اتضح تماما الاختلاف البين في ظروف حياة كل منهما . وقد أسرف البعض في تقدير هذا التأثير مما حدا ببعض المؤلفين الاغريق وغيرهم ممن تبعهم الى الاعتقاد بأن البيئة الطبيعية تؤدي الى تباين ظروف المعيشة وأساليب الحياة . ولذلك فان اصطرابون الذى لاحظ التباين الكبير بين الثقافة المادية عند المصريين والاثيوبيين قال : (١)

« ان الاثيوبيين يحيون حياة رعى في أكثر الاحيان وهى تخلو من الموارد ، لفقر بلادهم وبعدها عنا ، على حين يصبح الامر مع المصريين جد مختلف من جميع الوجوه لانهم عاشوا حياة حضرية مهذبة منذ البداية ... يفلحون

(١) اصطرابون « جغرافيا » Loeb edition, by H. L. Jones Geography الجزء الثامن

الأرض وممارسون المهن

وقد كان الاغريق دائما يدركون جيدا أن مصر تدين بالكثير لفيضان النيل ، فعرف اصطرابون أن هذه الفيضانات لا تعزى الى « غيث السماء » كما قال هيرودوت بقدر ما يرجع الى ما يسقط من أمطار الصيف في اثيوبيا . ولكننا لا نستطيع أن نستنتج من دراسة البيئة الطبيعية وحدها - مهما افضنا في دراسة عناصرها المختلفة مثل المناخ والسطح والتربة والثروة المعدنية والموقع وغيرها - ما كان يميز الحياة الاقتصادية لتلك البيئة من مميزات في عصور معينة ، فلا نستطيع على ضوء دراسة طبيعية شاملة فحسب الا أن نصل الى تقديرات أو حقائق تحتمل الخطأ لأنها مجرد محاولة ، وذلك فيما يختص بما كان يسود قديما من ظروف اقتصادية ، فنستطيع أن نقرر مثلا أنه في منطقة معينة يمكن انتاج حاصلات معينة على حين يتعذر انتاج بعض الحاصلات الاخرى ، بينما يمكن الحصول على البعض الآخر بصعوبة أو بالاستيراد فحسب ..



كما يمكن أن نذكر أن الظروف الطبيعية قد جعلت النقل ميسورا أو صعبا في بعض الاتجاهات اما برا أو بحرا ، كما يمكن أن نعرف طريقة المعيشة التي تصلح منطقة ما لها بطبيعتها ، بل ونستطيع أن نؤكد أن المناخ عادة يحدد الموسم الذي يجب أن تزرع فيه المحاصيل التي يمكن زراعتها ، ولكن رغم كل ما قيل فإنه من الواضح جدا أن العامل البشرى الذى يختلف من شعب لآخر ومن عصر لآخر يضفى طابعا معيناً على الحياة الاقتصادية ، فالطبيعة تملئ وتفرض والانسان يسعى للفتك من ربقتها والتحلل من أسارها ، وتواجه أعمال الانسان نوعين من الحدود والقيود التي تفرض عليها .. مقدراته من ناحية والامكانيات الطبيعية من ناحية أخرى ..

فالبيئة الطبيعية التي تبدو كأنها تضع حدودا معينة لنشاط الجماعات البشرية في زمن معين ، لها في الواقع امكانيات يتسع مداها أو ينكمش تبعاً للروابط التي تقوم بينها من ناحية وبين الثقافة المادية لهذه الجماعات من جانب آخر . فكل بقعة من سطح الأرض هي في الواقع بقعة جديدة بالنسبة لكل قوم ينزلون في رحابها ، ويكاد يكون من البديهي أن كل بقعة تضم القوم الذين يجدر بهم ..

ولسنا بحاجة الى أن نذكر كيف تتفاوت القدرة الثقافية بين الشعوب الحالية من حضارة العصر الحجري القديم الى ما ألفنا أن ننعته بالحضارة الغريبة - لكي نؤكد أن اية منطقة يمكن أن تستغل بطرق متباينة تبعاً لاختلاف سكانها . ولا يصبح الاختلاف مقصوراً على اتباع الناس لطرق معيشة مختلفة ، بل أن سطح الأرض نفسه يبدو عليه معالم وآثار ثقافية متباينة

ولنتناول بالبحث الأكثر تقصيا الحدود الجغرافية لالوان النشاط الاقتصادي ، فتوزيع المعادن التي تشمل البترول أمر قد فرضته الطبيعة ، أما حيث لا توجد هذه الموارد ، فلا مندوحة للإنسان إلا أن يفكر في الحصول على بديل عنها أو يتبادلها مع بلاد أخرى حبتها الطبيعة بها

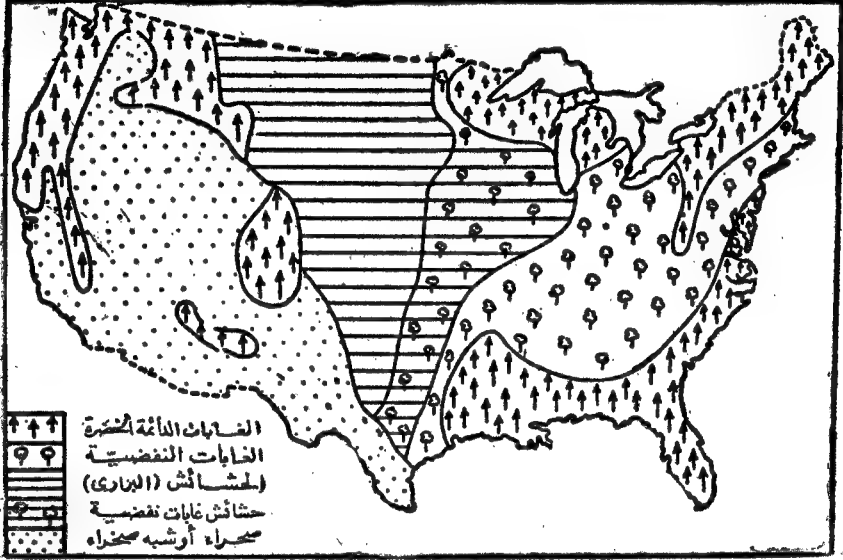
ويبدو أن الاتجار في المعادن قد ظهر منذ العصر الحجري الحديث ، كما اقتضت حضارة عصر البرونز التي تلتها نقل النحاس أو القصدير من بقعة لأخرى ، لأن هذين المعدنين الرئيسيين الضروريين لصناعة البرونز قلما كانا يوجدان معا في منطقة واحدة في العالم القديم ، كما أن مصادر القوة التي تمثل دعامة الصناعة الحديثة أما أن تحدد الظروف الجيولوجية المواطن التي تتوافر فيها تحديدا دقيقا كما هو شأن الفحم أو البترول ، أو تعتمد على الظروف الطبيعية في إنتاجها كما هو الحال في توليد القوة الكهربائية من سقوط المياه ، بل أن حركات المد والعواصف التي يمكن أن تصبح - إذا نظرنا نظرة بعيدة المدى - قوة محرركة في المستقبل حين نستنفد الفحم والبترول لا تتوزع توزيعا عادلا منتظما متجانسا من مكان لآخر

وتفرض الظروف الطبيعية وفي مقدمتها المناخ آثارها المهمة على النباتات التي تمدنا بالمواد الغذائية والخامات ، فالناس يعتمدون عليها بطريق مباشر وغير مباشر لأنها تمد الحيوان بغذائه ، ذلك الحيوان الذي تتنوع وتعدد طرق الاستفادة منه ، إذ يستخدم كطعام وكحيوان للحمل وكقوة محرركة وكمصدر للمواد الخام . وتعني دراسة النبات الطبيعي كما نسميه . فدراسة خريطة مهمة في بحث أية منطقة رغم أن علاقتها محدودة بتوزيع الغطاء النباتي القائم الآن ، إلا إذا استثنينا بعض مناطق التندرا والصحراء والمناطق الاستوائية (١) حيث كان تدخل الإنسان أكثر صعوبة ، وأقل تأثيرا ، إذا قورن بغيرها ، وقد أزيل غطاء الغابات السابق في أكثر أصقاع الولايات المتحدة وبخاصة أثناء فترة الثمانين سنة الأخيرة (انظر شكل ٥٢)

ولكن الخريطة التي تبين النبات الطبيعي ذات قيمة من الناحية التاريخية لأنها ترسم صورة واقعية في خطوطها الرئيسية للمسرح الذي كان مجالا لنشاط الإنسان في الزمن الماضي . فهي تلقى ضوءا على مآصده من صعوبة أو يسر أثناء حركته وتنقله ، وعلى الفرص التي أتاحت له حين حاول استغلال التربة ، كما أن هناك علاقة وثيقة بين توزيع النبات الطبيعي وبين وضع واتجاه نطاقات وإقليم المناخ ، ولكن لم تؤد الظروف المناخية المتشابهة

(١) يعتقد أن القليل جدا من الغابات المدارية في أفريقية يعد الآن - بحق - يمثل الغطاء الأول للنباتات

مع ذلك الى تشابه ظروف النبات الطبيعي في كل مكان ، اذ لم تستطع النباتات أن تهاجر بنفس السهولة من مكان لآخر ، وبصدق هذا القول على أنواع الحيوان أيضا فرغم أن هناك فصائل معينة ترتبط في توزيعها بأقاليم نباتية معينة ، فهناك أنواع مختلفة من الحيوانات المتوحشة تعيش في جهات متشابهة في ظروف حياتها النباتية ، كما يبدو أن العالم الجديد فقير في حياته الحيوانية الطبيعية



شكل (٥٢) يبين النباتات الطبيعية في الولايات المتحدة (عامة ومبسطة)

وقد أخذ الإنسان منذ العصر الحجري الحديث على الأقل في ادخال تعديلات أو تغييرات في الحيوانات والنباتات البرية في بيئته ، فقد أعلن حربا شعواء على بعض أنواع النباتات الطبيعية والحياة الحيوانية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أخذ في زراعة بعض نباتات برية واستئناس حيوانات معينة . وقد صادفته في هذا المجال فرص وظروف مختلفة في الأقاليم المناخية المتباينة، ففي أقصى شمال أوراسيا مثلا لم يتح المناخ للإنسان الا فرصة محدودة سواء لممارسة الزراعة أو استئناس الحيوان ، ففي هذه العروض العليا التي تتجمد تربتها السفلى دائما يتعذر نمو الأشجار والحبوب ، كما أنه لا يسد النبات الطبيعي المحدود - كحشيشة البحر وبعض الشجيرات والقليل من حشائش الصيف - الا رمق بعض الحيوان قليل الاهمية ، وأهمها الرنة الذي اهتدى الإنسان لطريقة استئناسها واستخدامها في الأغراض الكثيرة كالحصول على اللبن واللحوم والجر والحمل والركوب ..

ولم تكن الفرص المتاحة له أقل تحديدا أو ضيقا في العروض الدنيا حيث

كان الفنى الطبيعى للغابات المدارية لتوافر الحرارة المرتفعة والامطار الغزيرة يمثل عقبة كآداء وبخاصة انها كانت تاوى حياة حيوانية عاتية تتغذى من هذه الثروة النباتية وحشرات تنفث الاخطار . وقد وجد الانسان فى بعض بقاع الاراضى المتسعة التى تقع بين الصحارى الحارة والباردة مجالا أوسع لنشاطه وابتكاره وبخاصة فى البلاد دون المدارية حيث يحد فصل الجفاف من نمو النبات وانتشار الحشرات

وقد اتاحت هذه الجهات للانسان مزايا كثيرة من حيث ثروة النبات الطبيعى ، فلم تبلغ النباتات هنا مبلغا من الكثافة يقف حائلا دون اختراقها كما هو الحال فى الغابات فى العروض الاستوائية ، لان هناك فترة ركود فى موسم النمو ، فضلا على أن هذه الجهات التى تقع فى العروض الوسطى كانت غاصة بصنوف الاشجار والنباتات الاخرى الى جانب الحيوانات التى يوجد من بينها انواع من الممكن أن يفيد منها الانسان كما انها كانت صالحة للاستئناس كما أظهرت الاحداث . وأخيرا كان المناخ يسمح فى بعض هذه الجهات بانتاج محصولين بل ثلاثة محاصيل فى العام ، ولذلك فان ظروف المناخ الموسمى الذى يتألف من فصل ممطر يأتى فى أعقاب فصل الشتاء اللطيف شبه الجاف تسمح بوجود دورتين أو فترتين للمياه خلال السنة

ويمكن أن نميز عدة مساحات شاسعة قد نمت بها النباتات التى زرعها الانسان فى حالة برية قبل ظهور الحضارة ، رغم أننا لا نستطيع أن نعرف بوضوح المواطن الاصلية لبعض نباتاتنا المهمة مثل قمح الخبز أو الشعير (١) . فكانت آسيا الصغرى وفارس وبلاد القوقاز ، وبعض جهات آسيا الوسطى المواطن الاصلية التى نمت فيها انواع القمح اللين والشيلم وبعض انواع الكتان والخضروات وأشجار الفاكهة التى تشمل الكروم ، وفى بلاد البحر المتوسط التى تشمل الاراضى الساحلية من آسيا الصغرى وفلسطين وسوريا كانت تنمو قليل من النباتات البرية التى تصلح للزراعة وهى الزيتون البرى Oleaster والتين وقمح أمر Emmer wheat ونوع خشن من الكتان وبعض صنوف الفاكهة

ويعتقد بعض الاخصائيين ان الحبشة كانت الوطن الاول لانواع القمح الصلب والشعير والبن كما كانت المصدر الذى استمدت منه مصر فى وقت مبكر القمح والشعير اللذين زرعا بها (٢) حقا انه مما يلفت النظر تعدد أنواع

(١) انظر بمدد هذه المسائل Habitat, Economy and Society تأليف C. D. Forde

Benn's The Origins of Cultivated Plants (١٩٣٤)

Sixpenny Library. H. Peake

(١٩٢٨)

(٢) انظر الفصل الثامن

الحبوب البرية التي تنمو في الجبشة اليوم ، كما تستطيع ان تدعى الهند المدارية بأنها كانت أيضا موطننا لنباتات كالارز وقصب السكر وبعض أنواع القطن ، فضلا على ان البرتقال والليمون والخوخ والتوت والشاي وفول الصويا والذرة والشوفان تنتمي أصلا الى الاصقاع الجبلية من الصين الشرقية والوسطى . واخيرا فان بعض النباتات التي انتشرت زراعتها في مناطق متسعة وبخاصة الذرة والقطن والطباق والطماطم والبطاطس كانت تنمو في موطنها الاول في الجهات المدارية من العالم الحديث ، والواقع ان النبات الاخير ينمو أيضا في الجهات الاستوائية من أمريكا الجنوبية لان المناخ يصيبه من التعديل في هضبة الانديز الشاهقة لهذا الارتفاع ما يسمح بنمو هذا النبات المعتدل

ويجب ان نلاحظ ان كل مجموعة من النباتات لا تنمو دائما في اكثر الجهات صلاحية لنموها ، كما انها لا توجد في كل البقاع التي يصلح مناخها لنمو هذه النباتات ، فعلى حين كان الكتان دون القطن ينمو في مصر والعراق اثناء العصر الحجري الحديث ، فقد كان القطن دون الكتان ينمو في سهل السند في شمال غرب الهند . كذلك رغم ان مناطق مختلفة كانت ملائمة بصفة خاصة لاستئناس حيوانات معينة لظروف السطح والنبات التي تسودها فلم تكن كل هذه الجهات الملائمة مسرحا لها ، ويعزى ذلك الى ما ينشعب من تنافس بين الفصائل المختلفة من الحيوان من جانب ، وما ينقصه من وسائل الهجرة في نطاق واسع ميسور من جانب آخر ، وهكذا ظهر الحصان في وقت مبكر في اراضى الاستبس المكشوفة في آسيا الوسطى وارضى المرامي الاكثر ضيقا في اوروبا ، ولكن ظهور الحصان بعد ذلك في بلاد العرب شمال افريقيا كان بفضل الانسان

وقد يكون من الامور التي تسترعى الانتباه ندرة عدد الحيوانات التي استؤنسنت والنباتات التي زرعت ، وقد تكون على حق اذا قلنا ان الناس اقبلوا على زراعة كل انواع النبات التي كانت مجزية ، وانهم استأنسوا - وان كان غالبا في بادئ الامر لاسباب غير اقتصادية - اكبر عدد من الحيوان وجدوا ان استئناسه كان مجزيا من الناحية الاقتصادية (١) ومن الممكن استئناسه من الناحية العملية ، وقد كان اتقان الناس لفنون استئناس الحيوان والزراعة - وهى فنون عرفت تقريبا منذ نحو خمسة آلاف سنة في العالم القديم - مما مكنها من استغلال الامكانيات الاقتصادية لبيئتهم التي

(١) نعتقد ان استئناس الحيوانات كان عادة لاغراض اقامة حفلات او كشمائر او طقوس للعبادات .. فالديك الرومى الذى كان مستأنسا في المكسيك مثلا ، كان طائرا ايضا يستخدم لاغراض الحفلات وقلما كان يؤكل . انظر C. D. Forde المرجع السابق

ظلت دون استغلال حتى ذلك الحين ، فقد ادخلوا انواعا جديدة من النباتات والحيوانات محاولين بدون شك اقلمتها في البيئات الجديدة بطريق التجربة والخطأ ، وهكذا ادخلت أكثر الحيوانات التي تميز أراضي البحر المتوسط اليوم في ازمئة مختلفة ، واستوطنت نباتات القمح والزيتون المزروع والكروم والمواالح وأشجار التوت وكثير من أنواع الفواكه القوية الاحتمال بفضل نشاط الاغريق والرومان والعرب والامم التي جاءت متأخرة عنهم ، وهو يشبه ادخال النباتات الغذائية والمحاصيل الصناعية في الاراضي التي استثمرت حديثا ، وذلك في مساحات واسعة حيث حلت محل غطاء النبات الطبيعي السابق

ولم يكن نصيب محاولة اقلمة النبات في اراضي لم تعرف فيها بعد ظروف المناخ والتربة السائدة الا قليلا سوى الاخفاق ، ولا زال الرائد من الزراعة في الولايات المتحدة حتى الآن لا يجد مندوحة من الاقدام بحذر مالم يكن قد أدرك ماهية الدبذبات المناخية والظروف المحلية الاخرى، ولكن الصعوبات التي تعترض استغلال الاراضي الجديدة غالبا ما تتطلب بذل جهود وتسفر عن ابتكارات ، وتصف احدي القصص بوضوح (١) كيف حاول المهاجرون من الاسكتلنديين زراعة اراضي البراري حول ونيج Winnipeg في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فقد حدثت صعوبات قلبت مشروعاتهم رأسا على عقب ، اذ فتكت بمحاصيلهم اسراب من الطيور المهاجرة وأرجال من الجراد وعصابات الهنود الحمر ، فضلا على ان هذه المحاصيل لم تكن تلائم ظروف المناخ المحلي في اول الامر ، ولكن جهودهم كللت في نهاية الامر بالتوفيق ، اذ اكتشفوا انواعا من القمح تحتاج الى فصل قصير للنمو ، ثم اعقب ذلك استنباط انواع جديدة من القمح يمكن زراعتها في براري كندا في مدة تبلغ نحو مائة بل تسعين يوما تخلو من الصقيع . .

وهكذا استطاع الكنديون مغالبة المناخ الى حد ما وأن يوسعوا نطاق زراعتهم شمالا في ارض كانت تسودها الغابات من قبل . كما ان استخدام طرق الري في كثير من اصقاع العالم : في كاليفورنيا واسبانيا وايطاليا والتركستان الروسية والهند ، قد أدى الى تحويل مناطق واسعة من الاراضي البور الجافة الى مناطق منتجة الى حد كبير ، ولكن حين تنفذ مشروعات الري يجب أن توضع الظروف الطبيعية موضع الاعتبار ، أولا يجب ان يكون من الممكن لمنتجات الاراضي التي تروى ان تنافس منافسة ناجحة محاصيل البقاع التي لا تروى في المناطق الاخرى . . وذلك كقاعدة عامة . ثانيا ، أن يكون من الممكن توفير الماء الضروري اثناء فصل النمو وأن يكون نوع التربة وانحدار الارض والتربة السفلى كلها

(١) انظر The Farm and the Nation تأليف Sir John Russell (١٩٢٣)

تلائم حاجات الري

ولما كان للنباتات والحيوانات حاجات بيولوجية معينة فقد وضعت الطبيعة أمام الانتاج الاقتصادى فى اية بقعة حدودا ، وعلى حين تكون الحدود المناخية لنمو النباتات صارمة غير مرنة كما فى نبات الزيتون ، تصبح أحيانا مرنة كما هو شأن شجرة التوت ، وعلى اية حال فانه يمكن ان نبين ان لكل نبات حدودا مثالية واخرى يستطيع ان ينمو داخل نطاقها ، او بمعنى آخر تجود زراعته فى بعض البقاع داخل المنطقة التى يستطيع ان ينمو فيها ، ويتبين صدق ذلك بعد ان أصبح لكثير من المنتجات سوق عالمية ، وتبعه ظهور تخصص على نطاق واسع فى الجهات الملائمة من النواحي الجغرافية فى أمريكا الشمالية ، وينطبق هذا القول الى حد معين على الماضى

ونستطيع ان نتخذ من زراعة الكروم فى أوروبا الغربية وقيام صناعة الحرير التى تعتمد على زراعة أشجار التوت مثلين لنبين كيف استوطنت بعض الصناعات فى الماضى : فقد كانت الكروم بدون ريب تزرع ولو فى مساحات صغيرة - الى الشمال من حدود المنطقة الحالية لنموها (انظر شكل ٥٣) وقد أدخلت زراعتها فى فرنسا الجنوبية على يد المستعمرين من الاغريق ثم امتدت بعد ذلك على يد الرومان الى الازراس ووادي الموزيل ، كما كانت تزرع حول بروج Bruges فى أواخر العصور الوسطى ، وفى جنوب انجلترا تبعاً لما ورد فى Doomsday Book ، ورغم ذلك فقد ظهرت نزعة للتخصص فى زراعة الكروم فى بعض جهات معينة تصلح لذلك الغرض اثناء الحقبة الاخيرة من العصور الوسطى ، ولذلك فان القرويين فى مقاطعة أوكسير Auxerre بأعلى نهر Yonne بفرنسا « لم يزرعوا ولم يحصدوا » بل كرسوا جهودهم لزراعة الكروم وصناعة النبيذ ..

وقد استطاعوا ذلك لعوامل جغرافية ، فقد مهد النهر أمامهم السبيل الملائم لنقل النبيذ الذى كان يحتمل ان يتعرض للتلف ، اذا نقل بطريق غير معبد ، فضلا على ان النهر كان يربطها بسوق باريس . ويشبه ذلك ما حدث فى منطقة بوردو Bordeaux وان كانت أكثر اتساعا ، وكان يستخدم نهر الجارون وميناء بوردو فى نقل النبيذ ، الذى كان يرسل جانب كبير منه الى انجلترا التى ظل ملوكها يحكمون غسقونيا Gascony قرنين اثناء العصور الوسطى ، وقد اقتضى ذلك استيراد القمح بالسفن الى ميناء بوردو لان السكان المحليين - بعد التخصص فى زراعة الكروم - لم يعدوا قادرين على انتاج ما يكفيهم من الحبوب ، وخلاصة القول انه رغم ان الكروم كانت تزرع على نطاق واسع فى أوروبا الغربية لتوافر ظروف المناخ والتربة والانحدار الملائمة ، فان وجود وسائل النقل المائى الى أسواق كبيرة ، قد

أسفر عن ظهور نوع من التخصص لانتاج محصول زراعى واحد فى بعض البقاع

ولقصة صناعة الحرير مغزى مماثل ، فقد كانت تربية فراشة الحرير احتكارا للصين الوسطى والجنوبية ، اذ كانت البلد الوحيد الذى يعرف حرفة صناعة الحرير التى تحتاج لبراعة عظيمة ، كما كان لشجرة التوت فيها - فى ظل ظروف المناخ الموسمى - دورتان للحياة فى العام تنتج محصولين من



شكل (٥٣) الحدود الحالية لزراعة الكروم فى فرنسا

الاوراق الطازجة ، ولكن شجرة التوت أصبحت الآن شديدة الاحتمال لظروف المناخ ، فانتشرت زراعتها شمالا حتى النرويج وجنوبا حتى خط الاستواء ، كما انها لا تتطلب نوعا معينا من التربة لتفقس فيه ، وان كانت لا تصلح التربة التى توجد بها كمية كبيرة من الصلصال أو التى تنتشر بها المستنقعات لنموها ، فما ان عرفت الاعمال الدقيقة التى تتطلبها صناعة الحرير ، حتى أخذ سكان أوروبا فى مزاولتها على نطاق واسع

والواقع أن تربية دودة القز كان مقصورا على جهات أوروبا الجنوبية : بلاد اليونان وإيطاليا وفرنسا الجنوبية وإسبانيا ، وتوضح الدراسة الدقيقة أن المناخ كان في الواقع من العوامل التي وضعت حدودا لهذا النشاط ، فمن الضروري أن يكون الجو خلوا من الصقيع حين تظهر الفراشة في الربيع لأول مرة ، فضلا على توافر كمية كبيرة من أوراق التوت الطازجة لغذائها حينئذ ، وتتوافر هذه الظروف بوجه عام في أراضي البحر المتوسط إلا في الجهات المرتفعة ، ولكن تختفى في الجهات الواقعة إلى الشمال من ذلك ، في أوروبا القارية ..

بل وحتى لو أصبح من الممكن توفير الحرارة الصناعية اللازمة لفقس البيض لتخرج الفراشة ، فإن ورق التوت يظهر متأخرا جدا في الشمال ، فإذا تذكرنا كذلك أنه يمكن الحصول على محصول واحد من الأوراق فحسب كل عام في بلاد البحر المتوسط لما يسود الصيف من جفاف ، لأصبح جليا أن هذه البلاد لا تتمتع بالمزايا الطبيعية التي تنعم بها الصين واليابان لقيام هذه الصناعة ، ولا زالت هذه الدول حتى اليوم وبخاصة اليابان تحتل مكان الصدارة كبلد ينتج الحرير الخام



فجر الحضارة

« اللمة بجاني الحضارة .. اذ كلما كانت البيئة ذلولا .. كلما كان البهاث على قيام الحضارة ضعيفا »

١ . ج . توينبي « دراسة التاريخ »

« ربما كانت تتمتع المواطن الاولى للحضارة حينئذ بأكثر أنواع المناخ انمائها وابعثها على النشاط في نصف الكرة الشمالي »

٢ . ب . بروكس « تطور المناخ »

من الخطأ أن نعتقد أن المظاهر المبكرة لطرق الحياة المتمدنية قد ازيج عنها النقاب تماما ، لقد أصبحنا حقا بفضل الكشف الأثري التي تمت في العصور الحديثة نعرف الكثير عنها ، أي أكثر مما كان يعرفه عنها العالم اليوناني الروماني دون مرء .. ومن الجلي أن البلد أو البلاد التي يغلب على الظن أنها كانت مهدا للحضارة لم تحظ بأنصبه متساوية من عناية عالم الآثار ، بل لم يكشف حتى الآن عما تحويه مصر من كنوز أثرية ، كما أن بعض البلاد الأخرى التي يمكن أن تكشف هذه الأيام عن أهميتها الكبرى في هذا الصدد ، لازالت تنتظر أن تصبح حقلا للقيام بأعمال تنقيب علمية أوسع نطاقا مما تم فيها

ففي شمال الهند لم تبدأ أعمال التنقيب إلا أخيرا ، وهي تكشف النقاب عن نتائج هامة ، بينما لا زالت مواضع كثيرة قد ترجع الى عصور ما قبل التاريخ لم ينقب عنها بعد في الجزيرة ، وما برحت آسيا الصغرى وشمال سوريا وفارس وآسيا الوسطى والصين ميادين بكر الى حد كبير لم تشاهد أعمال تنقيب واسعة النطاق بعد ، مما قد يسفر عن نتائج عظيمة الأهمية . وإذا كانت آراؤنا عن فجر الحضارة تتطلب إعادة النظر فيها الى حد بعيد ، وذلك أثناء حياة جيل واحد ، فانه يمكن الادلاء بنظريات أو فروض يستسيغها العقل والمنطق

ولنبسط بوضوح الأدلة التي يمكن بها أن تميز « الحضارة » عن غيرها من الكثير من الثقافات Cultures من النوع الأكثر بدائية ، فعلماء الآثار يحاولون الاقتناع بأن ثقافة العصر الحجري الحديث تمثل أول ثقافة جذيرة بأن توصف بأنها «متمدنية» ، أما أثناء آلاف السنوات العديدة في دور العصر

الحجرى القديم أو مايشبهه ، فقد كان الناس يعيشون تحت رحمة الظروف الطبيعية التى لم يكن لديهم المقدرة على كبح جماحها الى حد كبير ، فكانوا يعتمدون فى حياتهم على صيد الحيوان وصيد الأسماك وجمع الطعام ، ولكنهم كانوا يجهلون طرق انتاج الطعام بممارسة الزراعة واستئناس الحيوان ، ولكن بفضل بذل جهود كبيرة فى الابتكار قد اهتدى الناس اثناء العصر الحجرى الحديث الى طرق جديدة للمعيشة فى الفترة بين ٦٠٠ و ٣٠٠٠ ق م وبينما كان الاساس الاقتصادى لحضارة العصر الحجرى الحديث انتاج الطعام بمزاولة الزراعة والرعى ، فقد تمخضت هذه الحضارة فى نواحيها الاجتماعية عن ظهور القرية ثم المدينة بعد ذلك ، كما أحرز الانسان تقدما أصيلا فى الصناعات اليدوية . فقد عرف سكان العصر الحجرى الحديث كيف يصنعون الفخار باستخدام العجلة والأجر باحراقه فى الأفران ، وكيف يغزلون الصوف والقطن والكتان وكيف ينسجونها ، كما وفقوا الى طريقة صناعة المعادن وتشبيد الابنية الضخمة كالأثار ، والى طريقة الكتابة وعمل التقويم الزمنى ، وعرفوا تبادل التجارة وتنظيم الدول واخراج المنتجات الفنية ، ولقد كان ظهور بعض أو كل هذه المظاهر التى تميز الحياة التمدنية فى دور العصر الحجرى الحديث دليلا على انه أصبح لدى الناس حينئذ قوة جديدة - قد لا تكون قد استكملت أسبابها بعد - ليلانموا بين حياتهم وبين بيئتهم الطبيعية

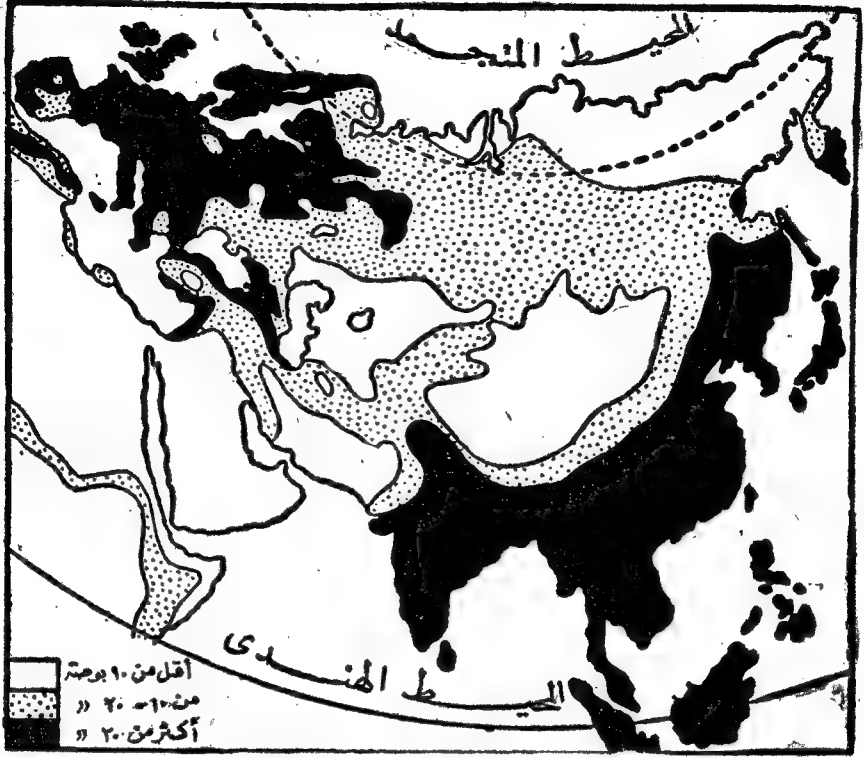
أين نشأت حضارة العصر الحجرى الحديث فى أول العهد بها ؟ والجواب على ذلك انها نبتت فى مصر والجزيرة السفلى اللذين يحتمل كثيرا ان يضاف اليهما شمال غرب الهند بعد فترة قصيرة . وهكذا يبدو أن الحضارة قد ولدت على كثر من اربعة انهار كبرى أو على ضفافها : وهى النيل والفرات والدجلة والسند ، ولكننا لانستطيع ان نقطع بأن حضارة من هذه الحضارات النهرية قد سبق الآخر ، فلا زال هذا امرا يكتنفه الغموض ، لانه يحتمل أن يكون أقدم ما عثر عليه من الآثار فى الجزيرة السفلى ومصر ترجع الى عصر واحد تقريبا والحق ان بعض المتخصصين يرى انه ربما نبتت الحضارة فى هذه الاقاليم الثلاثة من تلقاء نفسها كل منها على حدة مستقلا عن الآخر فى نشأته ، ولكن هل هناك اقاليم أخرى كانت موطنًا للحضارة قبلها ، تلقت عنها هذه الاقاليم حوافز ثقافية نشأت نتيجة لهجرة الناس أو لتدفق تيار الافكار والعادات ؟ ويوجه الذين يذهبون هذا المذهب وجههم شطر سوريا الشمالية وآسيا الصغرى الشرقية ، وهما فى نظرهم من المراكز المحتملة لقيام الحضارة ، كما انه من ناحية أخرى ليس هناك سبب قوى يدفعنا للايمان بأن ابتكار الانسان لا يمكن أن يحدث فى صورة مستقلة تلقائية فى بقاع عديدة متشابهة ويتوقف حل المشكلة التى نحن بصدد حلها الآن على تحديد الدور الذى لعبه

انتشار diffusion الحضارة في عصر ما قبل التاريخ . هل علينا ان نفترض انه لم يكن للحضارة سوى مصدر واحد انتقلت منه الى البقاع الاخرى ؟ الواقع أن هناك كثيرا من المطاعن توجه الى هذا الرأي المتطرف بشأن انتشار الحضارة ، وبخاصة أن كثيرا من مظاهر المدنية مثل الكتابة والزراعة قد تطور في أمريكا الوسطى ونما قبل اتصالها بالعالم القديم بزمان طويل وليس هناك ما يدعونا ان نمضي أكثر من ذلك في التبسيط في بحث مشكلة انتشار الحضارة ، وأهم ما يعيننا ويحقق هدفنا من هذا البحث أن نلاحظ ظهور البوادر الاولى للحضارة في بضع مناطق قد حبتها الطبيعة بظروف خاصة متميزة ، وذلك في زمن يتعذر تحديده ولكنه يحتمل أن يكون حوالى ٥٥٠٠ ق. م أو ربما قبل ذلك

وسنتصدى الآن لتحديد الظروف الجغرافية التي اكتنفت ولايست قيام هذه الثورة البشرية المفاجئة ، ثم نبحث عن المدى الذى يمكن لطبيعة هذه الظروف أن توضح أسباب قيام الحضارة هناك حين ظهرت

وقبل أن نتناول بالدرس المحصى وديان الانهار في مصر والعراق وشمال غرب الهند بصفة خاصة ، يجب أن نلقى نظرة عامة على الاراضى المتسعة التى تجرى فيها المجارى الدنيا لهذه الانهار ، ومن الاوصاف الموفقة لهذه الاراضى انها تمثل النطاق الصحراوى فى الكتلة الافريقية الاسيوية ، الذى يعد بدوره جانبا من نطاق أكثر اتساعا وجفافا يمتد عبر العالم القديم بين المحيط الاطلسى والصين الشمالية (انظر شكلى ١٤ و ٥٤) ، ويتألف نطاق الاستبس الصحراوى الافريقى الاسيوى من الناحية البنيوية من عدد من الكتل الصلبة المائلة من قشرة الارض ، تتشابه فى شمال افريقية وشبه جزيرة العرب وايران (فارس) ، وهى تمثل بوجه عام هضابا مستوية الاحيث تظهر بعض المنخفضات الكبرى والسلاسل الجبلية الالتوائية الحديثة

وأهم هذه المنخفضات هى السهول الرسوبية التى تتهادى فيها المجارى الدنيا من أنهار النيل والفرات والدجلة والسند ، وتحف أهم الجبال بهضبة ايران من الغرب والشرق ، الى جانب جبال لبنان فى سوريا وجبال اطلس فى شمال افريقية ، أما من النواحي المناخية فيسود النطاق كله بما يضمه من وديان الانهار مناخ جاف صيفه حار وشتاؤه معتدل ، أما وديان الانهار فتعد متشابهة من الناحية الطبيعية ، اذ يتكون كل منها من سهل رسوبى تحف به الصحراء أو الجبال أو هما معا ، كما يصل الى البحر ويطل عليه من أحد نواحيه ، وفي كل حالة كان كل نهر أو أكثر من الانهار الكبيرة - وهو عامل فى المقام الاول من الاهمية - يحمل الى الاقليم موارد غزيرة من المياه فى فصل



شكل (٥٤) خريطة عامة للمطر في العالم القديم
(نطاق الاستبس - الصحراء يتفق مع المنطقة التي يصيبها
أقل من ربع متر سنويا منه في المتوسط ...)

واحد من فصول السنة من منابعه التي تقع في اصقاع اغزر مطرا
لقد عرضنا بالبحث لمشكلة المناخ الذي كان سائدا في العصور الماضية في
الاستبس الافريقية الاسيوية (١) (انظر شكل ١٠) ، ولقد ذهبنا الى رأى يقول
ان نطاق الاستبس الصحراوي الافريقي الاسيوي كان يتلقى طول العام قدرا
معتدلا من المطر وبخاصة في طرفه الشمالي لبضعة آلاف من السنوات سبقت
اختفاء الانهار الجليدية الاسكنديناوية اختفاء تاما حوالى ٦٠٠٠ ق م . وقد
أدى ذلك الى نمو غطاء من النباتات الطبيعي مؤلف من الحشائش وبعض
الاشجار ، وقد انتقلت نطاقات المناخ الى الشمال من موقعها الجسالى بعد
٦٠٠٠ ق م تقريبا ، فأخذت أقاليم الحشائش تقاسى الجفاف تدريجيا في ظل
ظروف مناخية تشبه تلك التي تسودها الآن ، ومن ثم فان الزمن الذي ظهرت
فيه الحضارة واشتد ساعدها يقع كله تقريبا أثناء العصر الذى سادت فيه

ظروف المناخ الحالي ، ومما له دلالة أنه يرجح أن أقدم ما عثر عليه من الآثار يرجع كله تقريباً الى فترة الانتقال التي انقضت بين الفترة الممطرة وحلول الجفاف

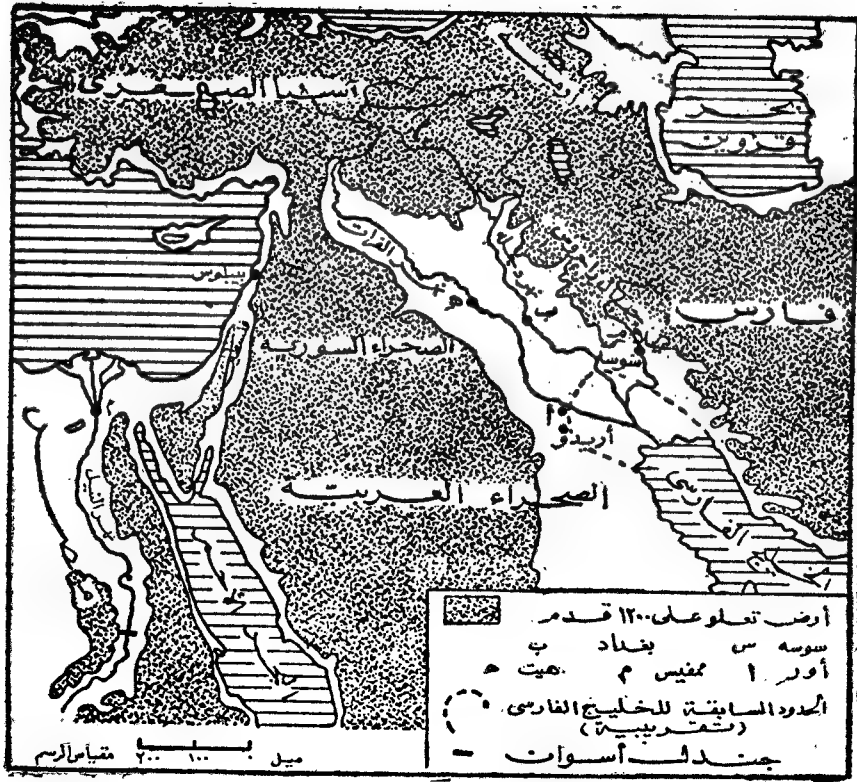
ولكننا لا نستطيع أن نحدد بصورة دقيقة قاطعة مدى الاتفاق الزمني المشار اليه ، لاننا نعتمد في ذلك على تواريخ فضفاضة يعوزها الدقة ، يستمد أحدها من الجيولوجيا ، على حين يعتمد تقدير الآخر على الآثار ، وكما سيبدو بعد ذلك فإن مواقع أقدم آثار العصر الحجري الحديث في مصر تدل على أن الفترة المطيرة لم تكن قد انتهت تماماً بعد ، ولكن كما عرضنا من قبل (١) فلدنا أسباب كثيرة تدعونا للاعتقاد أن أول تعمير جدى كان ميدانه وديان الأنهار قد وقع في عصر كان المناخ في مناطق الحشائش الأفريقية الآسيوية قد بلغ من الجفاف حداً تعذر معه أن تجد كل هذه الشعوب التي كانت تمارس الصيد فيها أسباب العيش ميسورة

وذلك بالإضافة الى ظاهرة مناخية أخرى سوف نشير إليها فيما بعد ، تلخص في أنه رغم ظهور الجفاف ، فيرجح أنه قد حدثت زيادة محدودة في المطر المتساقط أثناء بضعة آلاف من السنوات السابقة مباشرة للميلاد إذا قورن بما يصيبها الآن . وسنجتزئ الآن بدراسة الظروف الجغرافية القديمة في وديان الأنهار

لولا كثرة ما عثر عليه في الجزيرة السفلى من مواقع أثرية ترجع للعصر التاريخي وعصر ما قبل التاريخ ، وما أسفرت عنه هذه الكشف الأثرية ، فلا ينم ما يسود هذه الجهات من الظروف الآن عن الدور الكبير الذي لعبته في التاريخ القديم ، وبكاد يتفق امتداد هذه المنطقة تقريباً مع مملكة العراق الحديثة التي تعرف الآن بثروتها البترولية التي تفوق الزراعة أهمية

ويقصد بالجزيرة السفلى الجزء الجنوبي مما أطلق عليه علماء الآثار « الهلال الخصيب » الذي يضم الأراضي المنخفضة التي تمتد من فلسطين على حافة صحراء بلاد العرب حتى الخليج الفارسي (انظر شكل ٥٥) ويشمل الجذب الآن مساحات واسعة من الجزيرة السفلى التي تبدو خالية من الأشجار محرومة من المياه أو تمتد فيها أراضي المستنقعات التي لم تجفف

ويعزى ذلك الى حد ما الى إهمال الحكام من الأتراك الذين خضعت لهم بضعة قرون ، ولكن توافرت الأدلة . . سواء المدونة في السجلات أو من الآثار التي تكشف عن مقدرتها الإنتاجية التي امتازت بها ، وتشير الى حضارتها المبكرة التي ظلت باقية على الزمن لبضعة آلاف من السنوات قبل الميلاد مما يدعو للدهشة



شكل (٥٥) مصر وبلاد الرافدين

تتكون الجزيرة السفلى من سهل رسوبي متسع تبلغ مساحته نحو مساحة بريطانيا العظمى تقريبا ، ويمتد هذا السهل بين الاجزاء الدنيا لنهرى الدجلة والفرات والبقاع الواقعة الى الشرق منهما ، كما تصل حدوده الشمالية الى (بلد) على الدجلة و (هيت) على الفرات حيث تعترض طبقات الحجر الجيري قاع النهر فتعيق الملاحة ، وتعد من الناحية البنيوية أرضا هابطة Sunkland تمتد موازية لحافة كتلة شبه جزيرة العرب الانكسارية ، تكونت حين التوت جبال زاجروس في الزمن الثالث ، ثم أخذ يطمر المنخفض الذي تكون على هذا النحو بما حمله الدجلة والفرات من فتات الصخور ، وما جرفته سيول الربيع التي تنقض من جبال زاجروس منحدره من غرب فارس ، بل أسهمت صحراء بلاد العرب بنصيب منها لما سفته الرياح من رمال ، ثم أخذ الدجلة والفرات يلتقيان بحمولتهما من الرواسب عند مصبهما ، فطمرت مساحة كبيرة من أراضي المستنقعات اقتطعت من الخليج الفارسي وربما بلغ مقدار تقدم رأس الخليج الفارسي نحو الداخل نحو ١٥ ميلا

منذ فجر الحضارة (انظر شكل ٥٥) ، فبعض الاماكن الاثرية التي ترجع لعصر ما قبل التاريخ وبخاصة اور Ur ، وأريدو Eridu ، والتي أصبحت تقع نائية في الداخل ، كانت قد اقيمت على ساحل الخليج الفارسي . وهكذا كما تكونت الارض مما حمل من فتات صخور البلاد المجاورة ، كانت شعوب الجزيرة الاولى تضم عناصر قد أوغلت وافدة من الصحراء بوجه خاص وأن كانت تشمل الى جانب ذلك جماعات قادمة من الجبال أو من البحار



يتلقى الفرات والدجلة قدرا كبيرا من المياه ينشأ عن ذوبان الثلوج في الربيع في منابعهما في جبال ارمينية مما يعد رفدا لما يتجمع من مياه المطر الساقط ، كما يتزود الدجلة بمقدار من المياه يهبط الى مجراه من جبال غربي فارس ، فالجزيرة السفلى تكاد تكون جافة لان المطر يسقط في بغداد مثلا تسعة عشر يوما في العام ، يصيبها خلالها قدر من المطر شديد التغير وبخاصة في الشتاء ويبلغ متوسطه تسع بوصات في العام



ولذلك أصبح توافر فيضانات الربيع ضروريا لقيام الزراعة في الجزيرة السفلى ، وقد تكون عنيفة جدا بل ومدمرة كذلك ، ومن المحتمل جدا أن تكون سומר الواقعة في أكثر جهات الجزيرة انخفاضا هي المكان الذي حدث فيه طوفان نوح الذي ورد وصفه في سفر التكوين . وتحدث الفيضانات في دجلة والفرات في وقت يختلف عن موسم فيضان النيل مما يستدعى قيام نظام مختلف من الري ، فتصل طلائع فيضان النيل في يونيو ليمضي في ارتفاعه سريعا في يوليو وأغسطس ويظل كذلك حتى سبتمبر ، فكان نظام « ري الحياض » كما عرف ضروريا ، ولذلك كانت الفيضانات تترك لتغمر السهل الرسوبي ثم تنحسر عائدة للنيل ثم تلقى البذور - حتى دون حاجة الى خدمة الارض واعدادها - كما تظل التربة محتفظة بقدر كاف من الرطوبة اثناء موسم النمو

أما في الجزيرة السفلى من ناحية أخرى فقد كانت الفيضانات تحدث في مارس وأبريل ومايو ليعقبها صيف جاف شديد الحرارة ، ومن ثم كان يتعذر زراعة المحاصيل بعد انقضاء موسم الفيضان دون توفير مياه الري ، مما استدعى اتباع نوع بدائي بسيط من نظام الري الدائم الذي يستخدم الآن في مصر وأراضي السند ، وقد اقتضى ذلك ظهور الحاجة الى تخزين المياه وتوزيعها ، واستلزم بدوره تضافر وتنظيم الجهود وتوفير البراعة الفنية ولكن تنفيذ مثل هذه المشروعات - ولو في بقاع محدودة من السهل - كان كفيلا بانتاج محصولين في العام الواحد ، لان الشتاء المعتدل يكاد يكون خلوا من الصقيع كما كانت أجود أنواع التربة هي الطفلية الجيرية الغنية بغدائها النباتي ، فضلا على أن مياه الفرات والدجلة وبخاصة الاخير تساهم في تجديد خصوبة

التربة بما تحمله من الطمي الغزير ، بيد أن مياه الفيضان في هذه الانهار تحمل مواد أكثر خشونة مما يرسبه النيل في واديه الأدنى من الطمي الدقيق الحبيبات

ولم تكن للفرات والدجلة الا أهمية محدودة كطرق ملاحية ، فقد اعترضت مجرى النهرين عند بلدتي «حيت» و «بلد» على التوالي سدود صخرية بما يعوق الملاحة، واستغلت في تخزين المياه على الاقل، وقد ادخلت التحسينات على نظام هذه الخزانات الطبيعية التي جنت منها البلاد أجل الفوائد منذ عهود مبكرة ، ويصلح النهران للملاحة من هاتين النقطتين حتى المصب ، ولكن كانت تعترض الملاحة التي تصعد النهر أى تتجه صوب المنابع صعوبات لقوة التيار وبخاصة تيار الدجلة ، كما أن ضفافهما لم تكن تلائم رسو السفن

وكما كان نخيل البلخ ينمو في الجزيرة موطنه الاول ، فان الامر (Emmer) وهو القمح البرى الذى عثر عليه ينمو الى جانب الشعير في حالة برية ، فقد كانا يزرعان بدون شك منذ الالف سنة الخامسة قبل الميلاد ، كما كان من الميسور الحصول على الحجر والخشب والقار التي كانت معدومة في السهل الرسوبى - من جهات قريبة ، اذ كان ينقل من عيلام Elam - وهى منطقة التلال الواقعة شرقى سومر التي عثر فيها على أقدم مواطن العمران - الخشب والحجر - الى السهل ، كما كان يحمل القار على نهر الفرات من بلدة حيت نحو المصب . كما كان التجار يجلبون اليها محاصيل أخرى مثل التبيد والزيت فضلا عن المعادن وبخاصة النحاس والتوابل

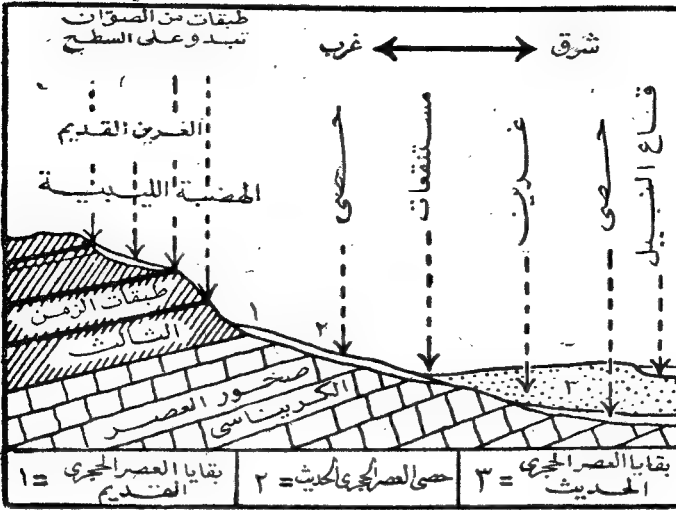
وكانت تقع بعض مراكز السكنى الاولى مثل أور Ur وايرتش Erech على حدود الصحراء عند سومر حيث كانت تقوم بوظيفة ثغور أو منافذ الصحراء . وقد كان الحمار أول حيوانات الحمل التي استخدمها السكان الاوائل لان الجمال ذا السنام الواحد والحصان لم يعرفا في الجزيرة الا في وقت متأخر نسبيا في عصر ما قبل التاريخ



كانت مصر تتكون طوال تاريخها المديد من اراضى وادى النيل ودلتاه أسفل شلال اسوان ، ورغم ان هذه الجهات كانت دائما تنقسم الى مملكتين أو مقاطعتين أو أكثر ، فقد كانت تتألف من وحدتين طبيعيتين دائميتين هما مصر العليا بواديهما الطويل الضيق الذى يترأوح عرضه بين اثني عشر ميلا كحد أقصى الى ميلين على الاقل أعلى طيبة ، أما الوحدة الاخرى فهى مصر السفلى أو مثلث الدلتا الذى تكون مما حمله النهر من طمي تقدم ليظمر البحر ، ويحف به المستنقعات والتلال الرملية عند ساحل البحر

أما مصر العليا التي تتكون من السهل الفيضى لمجرى النيل الأدنى فلا

تمثل واديا اخدوديا بدقة كما ينطبق على وادى الاردن ، وأن كان يقع رغم ذلك في منطقة هبطت هبوطا سحيقا بين قلاع الحجر الجيرى أو الحجر الرملى التى تحف به على الجانبين (انظر شكل ٥٦) وقد كان مجرى النيل الأدنى صالحا للملاحة حتى اسوان حيث يعترض قاع النهر كتل الجرانيت ، وعلى حين كان تيار النهر الذى يغلب عليه الهدوء يحمل السفن هابطة المجرى ، فقد كانت السفن الصاعدة تجد فى الرياح الشمالية (الرياح الاتيزيه عند الاغريق) وهى التى تسود فى الصيف بوجه خاص ، عونا لها . . كما كانت الصحارى التى يتناثر فى أرجائها عدد كبير من الواحات تحف بالسبل الرسوبى ، كما قد يحفر حافة الصحراء المرتفعة عدد كبير من الوديان التى تبدو الآن جافة ، ويمتد على الجانب الشرقى صحراء مرتفعة تعرف بالصحراء العربية ، وهى تمثل جزءا من الكتلة العربية الضخمة لما أصابها من عيوب وانكسارات



شكل (٥٦) النصف الايمن من قطاع لوادى النيل جنوب رأس الدلتا

وتطل على البحر الاحمر بساحل صخرى جاف يحترق متلظيا تحت اشعة الشمس اللافتحة فى الصيف . اما على الجانب الغربى فتمتد الصحراء الليبية التى وان كانت أقل ارتفاعا من الصحراء السالفة الذكر الا انها ليست بأقل منها جدبا وجفافا ، وان كان يخترقها رغم ذلك مسلكان طبيعيان ، يمتد الاول منهما خلف الساحل المنخفض الرملى المجدب حيث يسقط النذر اليسير من المطر ، أما الآخر الذى يقع فى الداخل كثيرا - فهو يتبع منطقة من الواحات التى تيسر اسباب الانتقال على مراحل

وهكذا أصبحت مصر جزيرة تحيط بها الصحارى التى لم تكن رغم ذلك تمثل دروعا لا سبيل لاختراقها . فقد كان سكانها من البدو الذين يضربون فى أرجائها ، يجتذبهم دائما السهل الزراعى العامر فى مصر ، كما كانت المسالك تخترق الصحراء الشرقية الى موانى البحر الاحمر او لتتجه نحو فلسطين وسوريا ، أما البحر المتوسط فقد كان يمثل طريقا للاتصال بكريت وسوريا منذ وقت مبكر يرجع الى منتصف الالف الرابعة قبل الميلاد على الاقل ، وأخيرا فى الجنوب كانت تمتد الصحراء حيث يصبح النيل غير صالح للملاحة وذلك لتفصل بين مصر وبلاد النوبة التى كانت تنمو بها الحشائش والأشجار ، ولم تكن فى الواقع تمثل الا منطقة ركود ثقافى منزوية قسوة

كانت مصر - التى لا يصيبها الا نذر يسير من المطر يسقط فى دلتا النيل فحسب - تصلح للسكنى منذ العصر الحجري الحديث بفضل فيضان النيل فى الصيف ، ذلك الفيضان الذى ينشأ لما ينهمر من المطر الموسمى الغزير فى مرتفعات الحبشة التى يحمل منها النيل الازرق والعطيرة المياه الغزيرة فى الصيف ، ففي مصر - كما فى الجزيرة السفلى - كانت الفيضانات تجدد خصوبة التربة كل عام بفضل ما ترسبه من الطمي حتى أصبح من الممكن ان تزرع الارض دائما بل وتغل محاصيل فى العام الواحد دون ان تترك الارض بورا كما كان ضروريا فى أوروبا



ولكن اذا كان انتظام فيضان النيل قد جعل من الممكن استمرار وجود حياة مستقرة فى مصر ، فقد كان يترتب على تذبذب كميته بين عام وآخر نتائج خطيرة . فاذا كان الفيضان الشديد الارتفاع يطفى على القرى والمدن ويقهرها ويفرقها مما يجر الدمار اليها ، فقد كان النقص فى مياه الفيضان يندر بحلول سنين عجاف بل قد يقضى الى حدوث مجاعة ، ومن ثم كانت مهمة توزيع مياه الفيضان تمثل دائما مهمة على جانب كبير من الخطورة ، كما ان القيام على ضبطه وحسن تنظيمه كان يستدعى وجود حكومة مركزية قوية تضطلع باعباء هذه المهمة

وكانت تربة مصر الخصيبة السوداء تجود بأطيب الثمرات ، وكان محصول مصر من الحنطة التى ذاع صيتها فى العالمين تتكون منذ عصر ما قبل الاسرات (١) من الشعير والذرة الرفيعة وقمح ايمر *Emmer wheat* لان زراعة القمح الذى يصنع منه الخبز قد أدخلت فى العهد الرومانى ، وقد عرفت زراعة الكتان منذ زمن مبكر جدا ، كما انه من المحتمل أن تكون مصر الموطن الاول لغاب البردى ونخيل البلح

ولم يكن البردى يستخدم في صناعة الورق فحسب بل في صناعة أقدم الزوارق أيضا ، وقد كان يفتقر السهل الرسوبى الى الخشب اذ اختفت منه الاشجار الخشبية المفيدة بعد ان جف نطاق الاستبس الصحراوى الافريقى الاسيوى ، كما كان يعوزه المعادن وبخاصة النحاس والحديد ، وقد ادخلت كثير من المحاصيل التى ظهرت اثناء تاريخ مصر مثل القطن وقصب السكر في وقت متأخر نسبيا ، وان كان قد زرع الزيتون على حافة الدلتا الغربية حوالى ٣٠٠٠ ق . م .

وأخيرا أماطت الكشوف التى تمت في العشرين عاما الاخيرة اللثام عن مركز ثالث من مراكز الحضارة الاولى ، ونعنى به سهل السند الرسوبى في بنجاب ومنطقة السند Sindh حيث كانت الظروف الطبيعية تشبه كثيرا ما كان يسود مصر والجزيرة السفلى ، فكان نهر السند يمد سهله الرسوبى بمياه الفيضان المخصبة في اول الصيف ، كما يظن ان مياه السند كانت تتلقى مياه نهر آخر وكانا يستمدان مياههما من ذوبان ثلوج الهيمالايا ، وتقطع الادلة الاثرية التى ترجع الى الالف الثالثة قبل الميلاد ان السكان كانوا يعيشون في خوف مقيم من نهر السند الذى كان معروفا دائما بفيضاناته العنيفة وتعرض مجراه الذى يمتد في سهله الرسوبى المنخفض للتغير



وربما لم تكن الفيضانات قد بلغت من العنف حدا كبيرا لان رافد نهر السند وهو نهر مهران Mihran كان يحتوى الجانب الاكبر من المياه في مجراه الذى يقع الى شرق السند ويمتد في موازاته (انظر شكل ٥٧) (١) . وقد أصبح لهذا السهل الفيضى شخصية جغرافية متميزة ، اذ كان يحد هذا السهل الرسوبى صحراء ثار ، كما كانت تمتد السلاسل الجبلية والاستبس المرتفعة في غربه

ولكى نستكمل هذا العرض للأسس الجغرافية التى نشأت في كنفها الحضارات المبكرة التى نمت في وديان الانهار ، علينا ان نحاول وصفها - لا كما تبدو الآن - ولكن في ضوء الظروف الطبيعية كما وجدها المستوطنون الاوائل سائدة في ربوعها . ورغم ما ينطوى عليه قول هيرودوت الشائع المأثور بأن « مصر هبة النيل » من حق صراح ، فانه قد يكون مضللا ، لان مصر التى يعرفها التاريخ لا تدين للانسان بأقل مما تدين للنيل من مآثر وافضل .. فسطح مصر يبدو الآن وقد انطبع بطابع انسانى Humanized Landscape كما كان الحال منذ العهد الرومانى ، اذ أصابها تغيير عنيف قوى بفضل

مبادلته الانسان من جهود طوال العصور المتلاحقة

كذلك كانت خصوبة « الهلال الخصيب » ثمرة نشاط « استعماري » عنيف . فكانت وديان الانهار تبدو للوافدين الاوائل من الصحارى أو المناطق الجبلية المجاورة كأنها قد أصبحت هدفا لتدمير الفيضان وما يجلبه من التخريب ولما يفرضه القحط والجفاف من حدود ، كما كانت اراضى المستنقعات المقفرة التى قد تنتشر فيها الاوبئة تضم مساحات واسعة وبخاصة فى اراضى الدالات ، كما كانت هناك بقاع يغطيها الغاب الكثيف المرتفع ، وبعض ما تخلف - على الاقل - من نباتات الادغال وساكنيها من الحيوانات - التى ازدهرت أثناء العصر المطير قبل ٦٠٠٠ ق . م . تقريبا

ولدينا الكثير من الادلة التى تشير الى ان كمية المطر التى كانت تسقط فى وديان الانهار أثناء فترة خمسة آلاف سنة قبل الميلاد - كانت أغزر مما يصيبها الآن وان كانت أقل مما كان يسقط فيها أثناء العصر المطير السابق ، ومما يدل على أن المطر كان أغزر فى مصر وانه كانت تنمو بها حشائش أشد كثافة مما عليه الآن ، ان البلاد والصحارى المرتفعة الواقعة على جوانبها كانت أقدر على اعالة الحيوانات والنباتات البرية التى لا يمكن العثور عليها الا فى عروض أقرب الى خط الاستواء كالنوبة العليا

ولم يجد سكان مصر الاوائل افراس النهر والتماسيح والخنازير البرية وعدد كبير من الطيور البرية من مختلف الانواع فيها فحسب ، بل كان يرتاد الواحات المجاورة القليلة والغزلان ، بل ظلت تعيش حتى عهد الاسرات أى بعد ٣٤٠٠ ق . م . تقريبا أنواع متعددة من الحيوانات الوحشية وتشمل الاسد والوعل (وقد كان أهم فرائسه) والغزال والنعامة وحمار الوحش وأغنام بلاد البربر Barbary sheep



ويستدل من اختفاء وانقراض هذه الحيوانات بعد ذلك من مصر وصحارى شمال افريقية على ما أصاب الواحات من جفاف متصل ، وان كان للعامل الانسانى تأثيره (١) ، كما كانت مصر أكثر غنى فى عهدها المبكر بأنواع الاشجار العديدة مما هى عليه الآن ، فكانت تنمو بها شجرة الجميز وصنغان من النخيل ، والاكاشيا acacia (مجموعة من الشجيرات الجافة الشوكية البقولية تنمو فى الجهات الجافة) والسنط والتمر هندی ، كما كانت تنمو

(١) يذهب البعض الى ان ادخال الابل على يد العرب الى شمال افريقية قد حمل الاسد على الانتقال جنوبا ، لان المرامى التى تعيش عليها الوعل وغيرها من الحيوانات التى يفترسها الاسد قد اصبحت حينئذ محدودة

بعض الاشجار الخشبية المفيدة وبعض الشجيرات المتلفة الكثيفة على حافة الاراضى الرسوبية التى يسودها الجفاف الآن ، وذلك فى اول مراحل الاستقرار كما يدل على ذلك ما عثر عليه من جذور الاشجار والفحم النباتى فى الفيوم والبدارى ، فضلا على ان المتخصصين قد بينوا ان مستوى المياه فى بحيرة موديس الواقعة فى منخفض الفيوم كان اعلى كثيرا منه الآن - رغم هبوطه - وذلك خلال فترة امتدت آلاف السنوات بين ٦٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م

ولو وضعنا موضع الاعتبار ما يتوافر من الادلة التى تسترعى الانتباه من بلوخستان ووادى السند ، لاتضح لنا أن سقوط مطر غزير نسبيا لم يكن يمثل ظروفًا محلية بحتة . وقد عثر فى جنوب بلوخستان على عدد كبير من القرى المزدهرة التى كان سكانها يمارسون الزراعة الى جانب السدود الضخمة، وذلك فى بقاع قد بلغت الآن من الجفاف حدا لا تصلح معه الا لحياة الرعى

وقد يكون صحيحا ما يقال فى تفسير سقوط الامطار الغزيرة نسبيا فى بلوخستان وسهل السند،والتي لم تكن - مع ذلك - تمتاز بالفرارة الكبيرة وحسن التوزيع على مدار السنة . . فى انها تعزى الى امتداد تأثير الرياح الموسمية بشكل ملموس فعال فى منطقة أكثر اتساعا . ويعد مثل هذا التعليل معقولا الى حد كبير لانه يلوح ان بضع تغيرات تناولت اطراف نطاق هبوب الرياح الموسمية قد حدثت . ومن ناحية أخرى فان سقوط المطر فى ذلك العصر فى نطاق الاستبس الصحراوى فى افريقية يجب أن يعزى الى تعرضه لمرور اعاصير المحيط الاطلسى التى كانت تصل الى بلوخستان بل تتجاوز ذلك الى شمال غرب الهند الى مدى اقل



وقد ترتب على هذه الزيادة اليسيرة فى المطر التى لم تكن قد بلغت حدا يكفى ليحجب ما أصاب المناخ من جفاف أصبح أكثر وضوحا مما كان عليه من قبل ، فأضحى الرى ضرورة لا مندوحة عنها . . ان أصبحت وديان الانهار غنية بحياتها النباتية والحيوانية فى فجر الحضارة،وكما كان يمثل ذلك عوننا من ناحية فكان عقبة من ناحية أخرى للرواد من المستوطنين ، اذ أصبح عليهم ان يكافحوا الحيوانات المفترسة ، وان يطهروا الارض من الغاب والاحراج وان يجففوا المناقع

وصفوة القول أن ظروف البيئة التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، كانت تتلخص فى ان الطبيعة قد سخت بقدر ما ضنت وجادت بقدر ما بخلت . واذا كانت مصر ووادى السند والجزيرة السفلى حيث يظن البعض أن جنة عدن كانت قائمة - تمثل اقاليم تفيض بمواردها الوفيرة من الغذاء ، فلم تكن هذه

الموارد منحة يسيرة من منح الطبيعة ، ولكنها توفرت نتيجة لبذل جهود قد أحسن توجيهها وتنظيمها لتكييف الظروف الطبيعية واستغلالها . ولنلق نظرة عجلى على ما خلفته من الآثار ، لنبين المراحل التى مرت فيها وديان الانهار حتى تم التغلب على صعوباتها واستغلالها ، ولنعرف ما استخدم فى سبيل ذلك من براعة ومهارة ومقدرة على الابتكار ، ولنذكر فى نفس الوقت الى أى حد كانت الاحداث التى كانت هذه البقاع مسرحا لها مهمة جدا للتاريخ البشرى

وقد عثر على أقدم آثار العصر الحجري الحديث فى مصر وعيلام التى تحف بالجزيرة السفلى ، ولو ان هناك أسبابا تدعو الى توقع العثور على آثار ذلك العصر فى وادى السند أيضا ، فكان سكان قرية سوسة Susa فى عيلام يعرفون حوالى ٥٠٠٠ ق.م الفخار الذى تستخدم العجلة فى صناعته ، والتيل ، كما كان لديهم فؤوس من النحاس وأدوات من الطران المهدب ، وربما كانوا يعرفون الزراعة وان كانوا يعتمدون على الصيد بوجه خاص

ويدل على مواقع قرى العصر الحجري الحديث عصرا بعد عصر كما هو الحال فى سوسة الاكوام والتلال التى نشأت نتيجة لتراكم اطلال القرى التى اقيمت عصرا بعد آخر من اكواخ الطين والقش ، والتى تشرف الآن على السهل المستوى المحيط بها ، وهكذا وقعت أول ثورة ثقافية فى الالف الخامسة قبل الميلاد فى الجزيرة السفلى وهو ما حدث فى مصر كما سنرى



ومن مميزات هذه الثورة ظهور حياة القرية والزراعة وصهر النحاس وصناعته وصنع المنسوجات والفخار ، فلو مضينا سريعا لتصور ما كان قائما حوالى ٣٠٠٠ ق . م فسنجد تقدما كبيرا فى المهارة الفنية والتنظيم الاجتماعى والاقتصادى . وهكذا قامت الثورة الثانية ، فقد حل محل القرى الصغيرة التى تنتج ما تحتاج اليه ، والتى يسكنها أناس يمارسون الصيد بوجه خاص ، مدن امتدت لتغطى مساحة واسعة ، لايزاول سكانها الزراعة فحسب ، بل تخصصوا كذلك فى بعض المهن ومارسوا التجارة الخارجية ، وكانت المباني الاثرية وبخاصة المعابد تشيد من الحجر المحروق فى الافران ، وكان قيام الرى يستدعى انشاء السدود وشق القنوات . كما شاع استخدام وتداول الفضة والبرصا والذهب واللازورد . . واخترع السومريون تقويما زمنيا شمسيا ، والكتابة المحفورة على الواح الصلصال ، فضلا على أنهم كانوا يملكون عددا من الحيوانات المستأنسة من الماشية والاعنام والحمير ، ولو أنه يرجح أن استئناسها تم على يد سكان التلال المجاورة أو سكان الاستبس وليس على يد سكان السهول أنفسهم

من الواضح أن قيام الحضارة السومرية يقتضى أن نفترض وجود تجارة خارجية ، أو على الأقل نقل الحاصلات من جهات نائية غالبا ، فنقل النحاس من عمان والاصداف من الخليج الفارسي ، واللازورد من أفغانستان ، وربما الفضة والرصاص من جبال طوروس في جنوب شرق آسيا الصغرى، والخشب من جبال زاغروس ، كما أنه من المعروف أن بعض منتجات السومريين قد وصلت الى مدن تقع في وادي السند ، وأخيرا نستطيع أن نلاحظ أن ماحققته شعوب الجزيرة السفلى من تقدم حضارى قد تم فى ظل نظام الدول المكونة من المدن City-states

وقد أسس سرجون حوالى ٢٥٠٠ ق . م . دولة تتفق في امتدادها مع الهلال الخصيب ، وهو عمل قد تم على وجه اكمل على يد حمورابى بعد قرابة ٥٠٠ عام

أما في مصر فإن أقدم ما عرف من مواطن العمران في العصر الحجري الحديث والتي ترجع الى عدة قرون قبل ٥٠٠٠ ق . م تقوم على الحافة الشمالية لبحيرة موريث التي تقع في منخفض الفيوم في جنوب غرب القاهرة . وقد أثارت المكتشفات الأثرية الحديثة في الفيوم اهتماما كبيرا :

« يبدو أننا قد حصلنا على أقدم الأدلة على زراعة القمح المعروفة حتى الآن من أهرام العصر الحجري الحديث التي وجدنا منها ١٧ في الفيوم ، ولكن لا يزال يكتنف الغموض الجهة التي نقلوا عنها معرفتهم بالزراعة في بادئ الأمر وبذور القمح والشعير أيضا (١) »

ولدينا أدلة على قيام حضارة مماثلة بعد ذلك ببضعة قرون في منطقة البدارى التي امتدت من نتوءات الصحراء عبر السهل الفيضى حتى نهر النيل . وقد كان سكان البدارى الذين كانوا يضمون بعض سلالات زنجية مستقرين الى حد ما ، كما كانوا يزرعون الشعير وقمح الايمر ويربون الماشية والماعز والأغنام وينسجون الكتان ويستخدمون النحاس الذى لم يكن يتوفر محليا ، وأصداف البحر الأحمر ، ومما له دلالة ان مواطن سكانهم كانت تقوم بالقرب من الوديان التي تنتهى في السهل الرسوبى (٢)



وقد اتحد الودادى والدلتا بعد ذلك بحقبة طويلة حوالى ٣٥٠٠ ق . م .

(١) انظر Miss G. Caton Thompson and Miss E. W. Gardner, « Recent-work on the الجزء (١٩٢٩) Problems of Lake Moeris » The Geographical Journal, XX iii صفحات ٤٠ - ٤١

(٢) لم يتضح بعد اذا كانوا قد زرعوا السهول الرسوبية ، لان الرواسب من شأنها أن تغطي آثار وشواهد العمران والسكنى

فتألفت منهما مملكة متحدة اتخذت ممفيس التي اقيمت في أعلى رأس الدلتا مباشرة في نقطة يسهل عبور النيل عندها .. عاصمة لها (انظر شكل ٥٥) وكان قد عرف على عهد الملك مينا (حوالى ٣٤٠٠ ق م) استخدام مقياس لقياس ارتفاع فيضانات النيل التي كانت تدون في سجلات محفوظة

ومن الواضح ان زراعة مزدهرة قد نشأت - كما كان الحال في الجزيرة السفلى - لتسد حاجة بلاد كثيفة السكان ، وتسمح بتراكم وادخار رأس المال والتخصص في كثير من الصناعات والمهن ، فضلا عن قيام تجارة خارجية نشيطة . وكان يستخرج الجرانيت محليا لينقل على النيل ، كما كان يجلب النحاس - او الفيروزج ، فلا يعرف تماما أيهما - من مناجم شبه جزيرة سيناء ، وكانت ترسل أخشاب السرو والصنوبر والعرعر والراتنج من جبال لبنان كلها الى مصر من بيبيلوس Byblos في سوريا عن طريق البحر ، فضلا على الذهب والتوابل التي كانت تأتي من بلاد النوبة

كشفت النقب حديثا عن حضارة مدن موهنجودارو Mohenjo-Daro وهراپا Harappa في وادي السند التي لم يعرف الا القليل عن عصر ما قبل التاريخ فيه ، ولا تقل هذه الحضارة شأنًا عن حضارة الجزيرة السفلى ومصر (انظر شكل ٥٧) . ويرجع ماعثر عليه في هذه المدن الى حوالى ٢٥٠٠ ق م ، وان كان من المعروف ان مراكز العمران قد ظهرت قبل ذلك العصر . وكانت « موهنجودارو » مدينة كبيرة تبلغ مساحتها ميلا مربعا أى نحو ضعف مساحة لندن في عهد الرومان ، كما كانت شوارعها مخططة طبقا لتصميم ، وتتألف منازلها من طابقين ، كما كانت تشمل مصانع صغيرة وحوائيت مشيدة من آجر أحرق في القمائن ، مزودة بمجارى ، كما كانت تقوم بها حرف تخصص ، وقد بلغ فن النحت فيها شأوا بعيدا من التفوق



وقد كانت تزرع فيها المحاصيل سواء اكانت من غلات المنطقة الاصلية او لم تكن كذلك وهى القمح والشعير والبلح ونوع خشن من القطن ، وكانت تربى فيها الحيوانات المستأنسة : الخنازير والاغنام والثيران المحدبة الظهر والجاموس ، ولاشك ان وديان الانهار في السند والبنجاب كانت تؤلف اقلية ثقافيا ، ولكن لازلنا نجهل اذا كانت قد نظمت في شكل دولة موحدة ، وكانت تصل اليها السلع من الخارج مثل خشب الدويدار (وهو نوع من الشربين ومن الفصيلة المخروطية) « deodara cedorwood » من الهيمالايا ، والسلك المجفف من ساحل البحر ، والكثير من المعادن والاحجار الثمينة من بقاع ابعد عن ذلك بكثير . فضلا على ان بعض مصنوعات مدن السند وبخاصة الاختام

المربعة » square seals « كانت تصل الى قرى بلوخرستان بل ومدن سومر Sumeria

ولانستطيع ان نبحت المشكلة التى تبين مدى نشأة كل من حضارات الجزيرة السفلى ومصر ووادى السند نشأة مستقلة ونمت نموا محليا بعيدا عن سواها ، ولكن يعتقد أن هذه الحضارات المدنية لم تنقل غراسها من مركز لآخر ، ولكنها كانت نباتا قد امتدت جذور كل فى وطنه ، ولأيعنى ذلك ان نفى وجود مميزات حضارية متشابهة بينها ، أو لم يتصل كل بالآخر رغم مايفصلها من المسافات الطويلة سواء عن طريق البر أو البحر

وأخيرا لنعد الى السؤال الثانى : الى أى حد يمكن أن تفسر الظروف الطبيعية فى أودية الانهار ظهور الحضارة فى تلك الجهات حين ظهرت ؟ ولنوضح تماما الآن اننا لانحاول أن نفسر نشأة الحضارة كنتيجة حتمية لتوافر ظروف طبيعية خاصة . وقد استلقت أ.ج. توينبى A. J. - Toynbee النظر الى وديان نهريه اخرى غير هذه مدعيا انها تشبهها ، ولكن لم تنشأ بها اية حضارة تعاصر تلك الحضارات

ورغم ان الامثلة التى ساقها لم تكن متشابهة تماما من الناحية الجغرافية كما ظن ، فلم يجد توينبى صعوبة فى دحض هذا التفسير . فضلا على انه تصدى للدفاع عن رأى القائل بأن وجود صعوبة كبيرة فى بيئة وديان الانهار كانت بمثابة تحد للساكن أو المستوطنين الاوائل استجابوا له استجابة تسترعى الانتباه ، فتغلبوا على بيئتهم الصعبة وادخلوا فيها ألوانا من فنون الحياة المتمدينة ، بفضل براعتهم وابتكارهم ، لان القحط والفيضانات والمستنقع والحيوانات المفترسة لم ترهب هؤلاء المستوطنين الاوائل ولكنها اثارتهم وولدت فى نفوسهم التحمس ، أو باختصار كما قال أ.ج. توينبى « كلما كانت البيئة سهلة لاتكتنفها صعوبة كلما ضعف الحافز على قيام المدنية »

ولكن هذا الراى لايقبل فى تطرفه عما ذهب اليه أنصار الحتم البيئى ، كما انه غير مقنع من نواحي عديدة ، فضلا على انه يعجز عن تفسير السبب الذى من اجله قبل الساكن تحدى البيئة فى بعض الجهات وتجاهلوه فى البعض الآخر ، ومن الواضح أن كل منطقة تختلف باختلاف الاقوام الذين نزلوا فيها ، ولكن الظروف الطبيعية تكيف وتحدد استغلال الساكن لظروف هذه البيئة والطرق التى اتبعوها لهذا الغرض ، فضلا على انها تؤثر فى مدى الشوط الذى قطعه الساكن فى سبيل ذلك



فلو كان صحيحا - ما يبدو محتملا - أن اول من هبط الاراضى الفيضية هم المهاجرون من أراضى الحشائش الافريقية الآسيوية التى كانت تجف

تدرجيا ، فقد وجدوا مزايا ونقائص في الظروف الطبيعية السائدة ، فكما كان القحط والفيضان والمستنقع حقا من العقبات التى اعترضت سبيلهم ، من جانب ، فقد كانت التربة الرسوبية الخصبة وفيضانات الانهار الضرورية وطول موسم النمو ، والطريق النهري ، والنباتات والحيوانات الاصلية يمكن الاستفادة منها جميعا من جانب آخر ، وإن كان لازال مذهب اليه س.أ.ب. بروكس من أن وديان الانهار كانت تتمتع في فجر الحضارة بأكثر أنواع المناخ تنشيطا في نصف الكرة الشمالى مجالا للشك وموضوعا للجدل ، فقد أوضحنا أن هذه الجهات كانت حينئذ لاتقاسى الجفاف الذى تقاسيه اليوم

فضلا على أنه قد يكون مما له دلالة أن وديان الانهار كانت محاطة في كل حالة بمناطق متباينة من الناحية الطبيعية وهى الصحراء والجبال والبحر التى وفدت منها شعوب قد الفت طرقا أخرى للمعيشة ومنتجات وافكار أخرى . ومن جهة أخرى فانه من حيث أن الاتصال والتبادل بين الشعوب المختلفة كان يمثل حوافز للتفكير والعمل المبتكر ، فقد حبت الظروف الطبيعية وديان الانهار من هذه الناحية . ومن هنا لم تعد حضارتهم تمثل ثمرة أو نتاج مقدرتهم على الخلق والابتكار الخاصة بهم فحسب ، ولكن كذلك ما اجتمع لديهم من الاختراعات والتجارب التى انتقلت اليهم من الشعوب المجاورة الاخرى أيضا



أوروبا والصين

« نحن وحدنا ننظر بعينين ، والأوروبيون يبصرون بعين واحدة ، أما بقية سكان الأرض الآخرين فلا يبصرون »
مثل من الصين

لا نزال ننظر الى أوروبا والصين كموطنين متميزين تسودهما تقاليد ثقافية لا ارتباط بينهما ، حتى بعد أن أوشكت طرق المواصلات والنقل الحديثة أن تلغى المسافة الآن ، هذا رغم ما يمزقها من الاختلاف والتباين السياسى واللغوى وغيره . فقد ظلت كل من أوروبا والصين حتى العصور الحديثة يمثلان عالمين منفصلين كقطة كيلنج Kipling ، فيسير كل منهما وحده ، واستمدت كل من أوروبا والصين حضارتها من مصادر مختلفة في وقت واحد تقريبا ، فسار تطور كل منهما على نحو مستقل ، كما كانت كل تنأى بنفسها عن الأخرى الى حد بعيد ، فعلى حين تدين الأولى بالكثير الى عالم بحر ايجيه وبخاصة لبلاد الاغريق القديمة ، فقد نشأت حضارة الصين الأولى على ضفاف نهر الهوانج أو النهر الاصفر في الألف الثالثة قبل الميلاد . وبينما اعتنق سكان أوروبا الديانة المسيحية ، اعتنقت الصين الديانة البوذية التى نقلتها من الهند ، فضلا عما وضعه كونفوشيوس أحد أبناء الصين من مبادئ اخلاقية

ولم تتعرض طرق الحياة الصينية والتفكير الصينى لتغير عنيف عميق نتيجة لتأثير الحضارة الغربية التى ظهر أثرها في زمن حديث نسبيا من الناحية التاريخية ، فقد بلغت هذه الحضارة أرض الصين مباشرة من أوروبا ، ومن اليابان والولايات المتحدة بطريق غير مباشر .

وهناك سؤال طريف ربما تقدم الابحاث الاثرية الجواب عنه في نهاية الامر ، وهو الى أى حد تلقت الحضارتان الصينية والأوروبية في فجرهما الاعمال والافكار من مصدر مشترك ، وبخاصة من مواطن الحضارة الأولى في آسيا الغربية ومصر ؟ اذ يغلب على الظن أن معرفة الزراعة والالام بفن صناعة الفخار واستخدام النحاس قد وصلت الى الصين الشمالية عن طريق آسيا الوسطى اما عبر التركستان الروسية ، أو من فارس حوالى ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق م . فلو صح ذلك فانه يمكن القول أن أول عهود الحضارة أو حضارة العصر الحجرى الحديث قد وفدت من المراكز القديمة في آسيا الغربية بطريق غير

مباشر ، أى من بلاد السند الدنيا أو الجزيرة السفلى ، وهى مناطق اندفعت منها تيارات الثقافة الى أوربا أيضا ، ولكن عقب هذا الدور المفرق فى القدم ، فانه يبدو ان الحضارة الصينية قد تطورت تطورا مستقلا تقريبا عن تأثير الغرب

ولدت الحضارة الصينية فى وديان وهضاب شمال الصين التى يشقها نهر الهوانج العظيم بواديه ذى الجوانب الشديدة الانحدار ، ويحف بالصين الشمالية من جهة الشمال الاستبس وصحارى جوبى وغابات منشوريا الجنوبية ، ومن الشرق البحر ومن الغرب والجنوب سلاسل جبال نان شان وتسن - لنج - شان Nan-Shan Tsin-Ling Shan وذلك على التوالى (انظر شكل ٥٨) . وتغطى رواسب سميكة من اللويس وطمى الانهار جانبا كبيرا من هذه المساحة ، ويعتبر اللويس نوع من الطمي الدقيق الحبيبات حملته الرياح الغربية من الصحارى المجاورة مما أدى الى تكوين مايعرف بالارض الصفراء Yellow-Earth الفنية بغذاء النبات ، والتى يسهل فلاحتها ، كما تخلو من الغطاء النباتى الطبيعى الكثيف



ولما كان متوسط المطر السنوى يقل فى شمال الصين عن ثلاثين بوصة ، فضلا على انه شديد التذبذب من عام لآخر ، فان توافر كمية كافية من الرطوبة للزراعة لم يكن دائما شيئا ميسورا ، ولذلك فان القحط وفيضانات الانهار تفضى الى وقوع مجاعات مدمرة لاتنقطع . وقد كان أول من استوطن شمال الصين سكان العصر الحجري الحديث ، الذين كانوا يقطنون مناطق لا يزيد ما يسقط فيها الآن عن عشر بوصات فى العام

وكانوا قد عرفوا استخدام الفأس فى الزراعة ، كما تمكنوا من صيانة خصوبة التربة باتباع طرق بسيطة فى الرى . ومما له دلالة من الناحية الجغرافية أن مناطق السكن فى العصر الحجري الحديث وعصر البرونز الذى تلاه كانت تقع بمناى عن السهل العظيم الذى كان نهر الهوانج يشق طريقه عبره الى البحر فى مجارى دائمة التغير . ويتعرض الهوانجو الأدنى أو مايسمى « أسى الصين » China's Sorrow لفيضانات عنيفة فى الربيع

ومن ثم أصبح بذل جهود عظيمة منظمة ضروريا ، لا لحصر المياه بين ضفتيه فحسب بل كذلك لاصلاح الادغال والمستنقعات التى كانت تغطى من قبل مساحة كبيرة من السهل العظيم لزراعتها ، وكانت أقدم ولاية صينية تعرف عنها ، التى تمثل الثروة التى نمت حولها الحضارة الصينية وانتشرت . . تمتد من وادى نهر الهوانج الى الحافة الغربية من السهل العظيم (انظر شكل ٥٨) وكان وادى البوى هو Wei-Ho الذى تغطى رواسب اللويس قاعه والذى يمثل أحد فروع نهر الهوانج - قلب الصين من الناحية الجغرافية فى عهد حكم



شكل (٥٨) خريطة تاريخية شاملة للصين

أسرة هان (٢٠٦ ق م) كما كان يمتد على طوله الطريق الذي يتجه غربا الى حوض تاريم (التركستان الصينية) وكان يمثل القاعدة التي خرج منها الصينيون لاختضاع ونشر الحضارة بين سكان الصين الوسطى والجنوبية التي كانت مشجرة وملائمة تماما للزراعة فكان الارز المحصول الرئيسى فى هذه المنطقة اذ يغلب على الظن انها

كانت وطنه الاول ، على حين كانت الفرة الرفيعة والقمع من المحاصيل الرئيسية في الصين الشمالية (انظر شكل ٥٨) - وأخيرا حمل أباطرة أسرة هان لواء الحضارة الصينية الى الجنوب في الجانب الآخر من نهر اليانجتسى والى المناطق الساحلية وتخوم انام الجبلية



ظهرت في القرن الاول الميلادى حضارتان متقدمتان لكل منهما خصائص متميزة ، وذلك في أطراف الكتلة الأوراسية في الغرب والشرق (انظر شكل ٥٩) . ففي الغرب كانت تقوم الامبراطورية الرومانية ويحفظها المحيط الاطلسى الذى لم يكن قد جرى أحد على شق عبابه بعد ، وكان محور هذه الامبراطورية يمتد على طول « بحيرة » البحر المتوسط ، اما في الشرق فقد كانت تنهض الولايات الصينية أو الدول الصينية التى يقع دونها المحيط الهادى ذلك الخضم الترامى الاطراف ، وتسودها ثقافة مشتركة رغم أن الظروف السياسية قد مزقتها

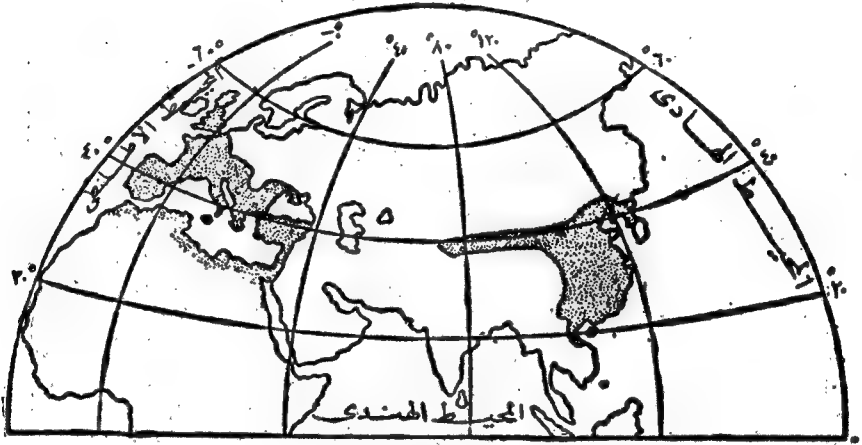
وبينما كانت كل من الامبراطورية الرومانية والصين تمتد بين خطوط عرض معتدلة دفيئة ، إلا أنه على حين كانت تصل الاولى الى العروض المعتدلة الباردة ، فقد كانت تمتد الثانية في الاقاليم المدارية ، كما كان كلاهما يمتد في اتجاه طولى ، والواقع ان امتداد الصين غربا بين خطى طول ١٠٠ و ٧٠ شرقا كان يمثل الاراضى التى ضمتها الصين من ربوع الاستبس في آسيا الوسطى ، حيث كان يسود نظام الحياة الرعوية ، هذا فضلا على أن الامبراطوريتين كانتا آهلتين بالسكان ، فقد ذكر احصاء ١٥٦ م في الصين أن عدد الصينيين قد بلغ أكثر من ٥٠ مليون نسمة ، وهو العدد الذى يقدره الدارسون المحدثون لسكان الامبراطورية الرومانية (١)

وتدل خريطة المطر المبسطة (انظر شكل ٥٤) أن كلا من أوروبا والصين كان يمتد بوجه عام حتى حافة نطاق الاستبس - الصحراء ، حيث كان يكفى المطر حاجة الزراعة ، ولذلك فقد كانا يصلحان من الناحية الجغرافية لاستقرار سكان على جانب من الكثافة نسبية ، ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن استخدام الرى كان غالبا مرغوبا فيه ، بل ضروريا لممارسة الزراعة في شمال الصين شأنها في ذلك شأن بعض أجزاء الامبراطورية الرومانية

لماذا تطورت كل من أوروبا والصين تطورا مستقلا ؟ ولماذا كانت كل منهما في عزلة عن الاخرى الى هذا الحد ؟ ان الظروف الجغرافية كفيلة بأن تقدم لنا الجواب عن هذا السؤال : ان هذا البعد الكبير وحده كان يمثل عقبة كأداء تعوق الاتصال بينهما ، وبخاصة اذا تذكرنا أن طرق النقل التى كانت ميسورة حينئذ ، هي القوافل في البر والسفن الشراعية بالبحر ، وذلك بالإضافة الى

(١) كما يتساوى تقريبا في الوقت الحاضر عدد السكان في الصين وأوروبا ، فكل منهما يمثل نحو ربع سكان العالم على وجه التقريب

وجود منطقة قارية متسعة من الجبال والاستبس والصحارى تحف بها الغابات المتسعة والمستنقعات من الشمال ، تمتد في آسيا الوسطى لتعترض الاتصال بين أوروبا والصين ، حيث كانت تنتشر في أرجائها السهول والهضاب والوديان والأنهار ، وتسقط بها أمطار كافية وينزل بها زراع مستقرون (انظر شكل ١٤) ورغم أنه من الصعب تعيين الحدود البرية لأوروبا والصين أثناء عصور التاريخ المختلفة ، فلا يخالفنا شك في أن مراكز القلب في أوروبا والصين كانت تضم تلك الجهات التي كانت تسمح بقيام حياة زراعية تختلف اختلافا واضحا عن الحياة الرعوية في الاستبس الآسيوية

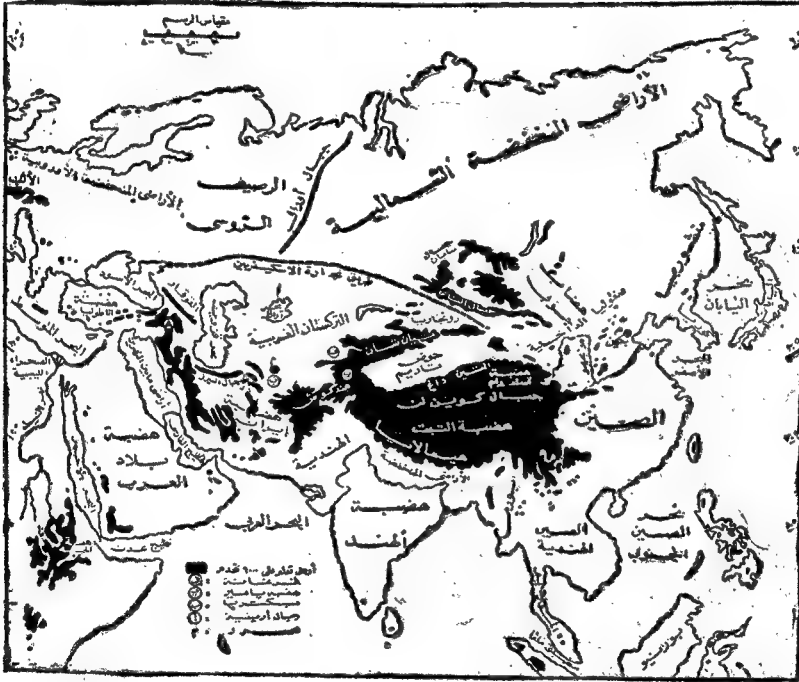


شكل (٥٩) الامبراطورية الرومانية والصين في القرن الاول الميلادي

وان نظرة عجلية نلقيها على خريطة العالم او الكرة الارضية تجلو - ولو من الوجهة النظرية على الاقل - أنه يمكن أن تسلك أربعة سبل للوصول من أوروبا للصين ، وكان الطريقان اللذان يسلكان البحر فحسب ، والذي يمتد أحدهما عبر المحيط الهادى ويدور الآخر حول رأس الرجاء الصالح - هما في الواقع آخر ما عرف من هذه السبل ، أما الطريق الثالث الذي يبدو أنه كان أول ما استخدم منها فقد كان طريق البر الذي يجتاز آسيا الوسطى ، أما الآخر فقد كان يمتد للصين من سواحل البحر المتوسط الشرقية ، باستخدام البحر في أكثر أجزاء الطريق باتباع البحر الاحمر أو الخليج الفارسي

اما الطريق البري فقد كان يقتضى القيام برحلات طويلة عبر الاستبس المرتفعة والصحارى التي تمتد من جنوب روسيا وفارس حتى حدود شمال الصين . فالاستبس والصحارى في آسيا الوسطى كجوبي وزونجباريا وحوض تاريم والتركستان الغربية مثلا - إنما هي هضاب مرتفعة تحدد بها في أكثر

جهاتها سلاسل جبلية شاهقة (شكل ٦٠) . وهى لا تقاسى التجمد والاعاصير الباردة فى الشتاء فحسب ، ولكن تعاني من فروق حرارية كبيرة بين فصلى الصيف والشتاء بل وبين النهار والليل أيضا . ويندر سقوط المطر الذى يقل عادة عن عشر بوصات فى العام ، ويبلغ من الندرة فى بعض الجهات حداً يؤدى الى وجود الصحراوات التى تكاد تكون خلوا من الحياة تماما ، كما هو شأن صحراء تكلمكان Taklamakan الرهيبة التى تقع فى حوض تاريم ، وهى تمثل منطقة مهبوجة متسعة قاحلة ، وان كانت تغطيها « رمال » على جانب كبير من الخصوبة الحقيقية (انظر الشكل ٦١) .



شكل (٦٠) الأقاليم الطبيعية الرئيسية فى آسيا
(تبين طرق قوافل الاسكيزيين)

وقد كان اختراق هذه الهضاب المكشوفة ميسورا بفضل القوافل التى تستخدم فيها الجياد لان الموطن الاصلى للحصان - كما نذكر - هو الاستبس الاسيوية . فلم تكن تجتاز القوافل مساحات واسعة تتناوبها الحرارة اللافحة والبرودة القارصة التى تقضى للتجمد فحسب ، بل كانت تضطر أيضا لاختراق العقبات من الجبال التى كانت تعترض طريقها . وتخرج من هضبة بامير المرتفعة المشققة السلاسل الجبلية متشعبة فى كل الاتجاهات تقريبا ، مثل جبال

هندكوش والهمالايا والتين تاغ Altyn Tagh وكون لون Kun Lun وتيان شان Tien Shan والتاي Altai وهذه أهمها (انظر شكل ٦٠)

وقد نشأت بعض المدن عند سفوح الجبال حيث تتصل بالهضاب مثل سمرقند وكشغر وخوتان ، فقامت كمحطات في مواقع مناسبة للوقوف بها على طول المسالك البرية (انظر شكل ٦١) ، ولكن علينا أن نؤكد أن العقبات الطبيعية التي تعترض الرحلة عبر آسيا الوسطى لم تكن لتقف حائلا بين التجار والقيام برحلاتهم اذا توافرت فرص الاتجار ، فالواقع - كما عرضنا لهذا الرأي من قبل - كانت هذه المساحة الشاسعة مما يسر النقل لان العقبة الكبرى لاستخدام هذا الطريق كانت بشرية أكثر منها طبيعية ، فالانقسام السياسى والمنافسات التي كانت تحدث بين جماعات الرعاة من سكان آسيا الوسطى كانت تكتنف هذا الطريق بالاحطار ، ولا زالت الظروف السياسية حتى الآن تجعل القيام برحلة برية صعبا ان لم يكن محفوفا بالخطر



أما المسالك التي كانت تمر بالبحر الاحمر والخليج الفارسى فقد كانت أهم من الناحية التاريخية من الطريق البرى ، ويوضح (شكل ٦٢) ما سمى بحق « خصر » آسيا فمياه البحر الاحمر والخليج الفارسى ترتطم بالسواحل الغربية والشرقية على التوالي للكتلة الصلبة التي تتكون منها هضبة بلاد العرب ، كما تتوغل متعمقة من البحر العربى نحو البحر المتوسط ، فلا يحول دون الاتصال البحرى المباشر بين أوروبا والهند التي تقع في مركز متوسط للصين سوى برزخ ضيق يقع في مصر الشمالية وآخر أكثر اتساعا يمتد في الجزيرة وسوريا ويعزى وجود هذين الذراعين من المياه الى احداث التاريخ الجيولوجى ، فالبحر الاحمر يمثل منطقة « انكسار عيبى » ، اذ نشأ نتيجة لقلق أصاب كتلة بلاد العرب التي كانت تمتد دون انقطاع الى شمال افريقية ، وقد هبطت الارض على طول منطقة الانفلاق فعمرت مياه البحر المنخفض الهابط ، أما الخليج الفارسى فيختلف عن ذلك اذ يمثل جزءا من أرض شاسعة هابطة sunkland تمتد نحو الشمال في الجزيرة

ويتجه وادى النيل الأدنى الذى كان صالحا للملاحة ووادى الفرات والدجلة اللذين لم يكونا يصلحان كثيرا للملاحة نحو منابعهما - من الشمال للجنوب ، وهو الاتجاه الذى يقلب على البحر الاحمر والخليج الفارسى على التوالي ، كما تشير الى اتجاه الطرق البرية الى البحر المتوسط . فتوافر لذلك عبر خصر آسيا طريقان يحل أحدهما محل الآخر ، وعلى حين كان الطريق الذى يخترق مصر يتطلب استخدام المراكب للنقل على النيل واجتياز الصحراء الشرقية المرتفعة من مصر الى ساحل البحر الاحمر ، كان الطريق الآخر يمتد من موانئ سوريا وفلسطين حتى وادى الفرات أو الدجلة ليتبع بعد ذلك مجرى النهر

او الطريق البرى حتى الخليج الفارسى

وقد أمكن الوصول الى الهند من مخرج البحر الاحمر ومن الخليج الفارسى بملازمة السواحل فى أول الامر ، وهكذا أمكن - بالقيام برحلات من ميناء لآخر على طول السواحل - أن ينقل البحارة الذين القوا مناطق السواحل والبحار المختلفة حاصلات الصين الى الغرب ، وحين استخدم البحار الاغريقى هيبالوس Hippalus حوالى ٥٠ ق . م طريق الرياح الموسمية الجنوبية الغربية للاتجاه من الخليج الفارسى مباشرة الى غرب الهند ، أوضح أنه يمكن اتباع مسالك بحرية أقصر وأسرع من الرحيل بالسفن على طول السواحل كما كان شائعا قديما ، ولما كانت الرياح الموسمية تهب من الجنوب الغربى فى الصيف ومن الشمال الشرقى فى الشتاء ، فإنه يمكن الاستفادة منها سواء فى الرحيل عن البلاد أو فى العودة اليها

ولكل بحر مميزاته الطبيعية الخاصة فيما يختص بالرياح أو المضائق والسواحل والموانى ، ولذلك فقد كان ضروريا للملاحين أن يلموا بكثير من البيانات عن الظروف المحلية السائدة فى البحر الاحمر حيث تهب الرياح الشمالية فى أكثر الأحيان ، وحيث تمتد السواحل الجذباء ، وقد كان مضيق ملقا الذى يقع بين سومطره وشبه جزيرة الملايو يمثل الطريق المألوف المباشر بين المحيط الهندى وبحر الصين

ولا نستطيع أن نقطع بصحة ما رواه هيرودوت عن رحلة البحارة من الفينيقيين الذين داروا حول قارة افريقية من الشرق الى الغرب حوالى ٦٠٠ ق . م ، وحتى لو صح هذا الزعم ، فإن ما أقدموا عليه لم يسفر عن نتائج ، اذ ظل فتح طريق المحيط بين أوروبا والهند وجزائر الهند الشرقية والصين ينتظر كشوف البرتغاليين من البحارة ، فاكتشف برثلميو دياز رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٤ كما أبحر فاسكودى جاما حتى بلغ قليفوت فى غرب الهند سنة ١٤٩٨ ، ولكن لماذا تأخر كشف طريق الرجاء الصالح حتى ذلك الوقت ؟

يعزى ذلك على الأقل من جانب الى ما يعترض ذلك من صعوبات ملاحية على جانب كبير من الخطورة فى عصر الشراع ، فساحل غرب افريقية فى العروض المدارية قاحل مجذب ، فضلا على أنه كان على السفن - الى الشمال من خط الاستواء - أن تسير فى منطقة الركود الاستوائى التى ظلت منفرة أمدا طويلا ، كما استندعت الكثير من الشجاعة والبراعة ، الى جانب أنه كان من الضرورى أن ندرك ونحسن استخدام نظام هبوب الرياح الى شمال هذه العقبة وجنوبها

والواقع أنه حين أخذ التجار يترددون على هذا الطريق ، عرفوا كيف يحسنون استخدام مجموعات الجزائر العديدة فى المحيط الاطلسى الجنوبى ، وان

يتبعوا المسالك التي تمكنهم من الافادة الى اقصى حد من الرياح السائدة ، ولذلك لم يسلكوا طرقا مباشرة أو سبلا تلتزم السواحل ، فقد كانت السفن تتجه صوب الجنوب الغربى لكى تفيد من الرياح الشمالية الشرقية التي تهب في العروض المدارية ، مما حمل هذه السفن نحو ساحل البرازيل (انظر شكل ٦) فقد بلغ بعض رجال شركة الهند الشرقية ساحل البرازيل عند ريودى جانيرو فعلا وهم في طريقهم للهند كما كانت السفن في المحيط الهندى وبحر الصين تعتمد على الرياح الموسمية ، ولهذا كانت تتفق أوقات اقلاعها أو أبحارها مع مواسم هبوب هذه الرياح



لقد أشرنا من قبل الى الطرق التي يمكن أن تتصل بواسطتها أوروبا بالصين ، ولنتناول الآن باختصار بعض المراحل في تاريخ العلاقات بينهما

قد ذهبنا من قبل الى أن الآثار التي عثر عليها ، تشير الى أن الصين قد تلقت الأفكار والعادات عن طريق البر في عصور ما قبل التاريخ ، وبعد مضي حقبة طويلة من الزمن انتقلت في القرن السادس قبل الميلاد بعض الانواع المتميزة من الفؤوس البرونزية *socketed celts* التي شاع استخدامها في أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية قبل ذلك بزمان طويل - وذلك بطريق البر الى الصين . ولكن لم يرد ذكر وجود الصين الا حوالى ٤٥٠ ق . م . لأول مرة في كتابات الاوربيين

وقد روى هيرودوت ما زعمه افريقى يدعى Aristaeus في القرنين السادس والسابع الميلاديين ، من أنه رحل عبر آسيا الوسطى حتى حوض زونجاريا وجبال التاي (انظر شكل ٦٠) وهناك سمع عن الصينيين كشعب مستقر يتمتع بالرخاء وينزل على كثر من بحر لا يتجمد البتة ، كما وصفت احدى الاساطير ، التي أثرت عن زمن هيرودوت ، الصينيين بأنهم قوم (نباتيون) وهى اشارة لا تخطو من مغزى جغرافى ، لأنها تؤكد الاختلاف بينهم بوصفهم زراع يقتاتون من الحبوب وبين الشعوب الرعوية من سكان الاستبس الذين يتناولون اللحوم واللبن في طعامهم . كما كان الاسكيديون Scythians في زمن هيرودوت أيضا - وهم من رعاة آسيا الذين نزلوا في السهل الروسى الجنوبى الى الغرب من نهر الدون الادنى - يتجرون مع الشعوب الآسيوية التي كانت تنزل في المنطقة حتى جبال التاي في الشرق مستخدمين القوافل في ذلك (انظر شكل ٦٠)

وقد كانت القوافل تخرج من تنيس Tanaïs وهى مدينة افريقية تقع عند مصب نهر الدون - لتمر عن طريق جنوب جبال أورال وليس عبرها متبعة باب أو منفذ أورال - بحر قزوين المتسع ، وقد كان الاسكيديون يحتاجون في تجارتهم التي كانت تسلك هذا السبيل الى ترجمة لسبع لغات مما يقوم

دليلا على تعدد الاقوام التي كانت تسكن هذه الجهات ، وربما استبدلوا في نهاية رحلتهم - بالسلع المعدنية وأعنة الخيل المحلاة والسجاجيد - الذهب الذي كان يستخرج من الجانب الجنوبي الشرقي من جبال التاي

وقد اغلق طريق القوافل الذي كان يسلكه الاسكيديون لحدوث اضطرابات سياسية في آسيا عقب ٤٠٠ ق . م . مباشرة ، فلم يعد يذكر الجغرافيون المتأخرون من الاغريق الا التذر اليسير عن هذه البلاد التي كان يخرقها طريق القوافل ، بل أصبحوا لا يذكرون أن بحر قزوين كان مغلقا ، بل يبدو أنه لم تنشأ علاقات بين الامبراطورية الفارسية والصين في ذلك العصر ، رغم أن أراضيها كانت تمتد الى بحر آرال وتضم التركستان الغربية ، كما أنه حين اطاح الاسكندر الاكبر بالامبراطورية الفارسية في ٣٢٩ ق . م وتقدم الى بخارى والتركستان الجنوبية ، لم يحاول أن يواصل غزواته في آسيا الوسطى ، وقد ثناه عن هذه المحاولة أسباب قوية ، إذ كانت تمتد وراء واحات مرو وبخارى وسمرقند حيث نشأت الزراعة وأماكن السكنى المستقرة - أراضي قاحلة - عالم غريب غير مألوف من الاستبس المكشوفة تحلق فوقها حواجز شاهقة من جبال هندكوش وتيان شان (انظر شكل ٦١) وقد أسس الاسكندر بعض المراكز الحربية والمدنية مثل Khojent على نهر سيحون Iaxartes ولكن لم تلبث هذه المراكز المتطرفة للحضارة الاغريقية في آسيا أن هجرت حين وقعت في قبضة شعب رعوى يدعى يوتشى Yue-Chi

ماهى الجهود التي بذلتها الصين نفسها لتوطيد علاقتها بالقرب ؟ أرسل الامبراطور وو - تى Wu-Ti . من اسرة هان في ١٢٨ ق . م سفارة الى اليوتشى Yue-chi الذين كانت عاصمة ملكهم تقع على كذب من بخارى ، وقد تمخضت هذه السفارة التي وصلت الى فرغانه وبخارى وبكتريا Bactria (انظر شكل ٦١) عن نتائج مهمة ، فقد استطاعت الصين أن تلم بالظروف الجغرافية التي وضعت على ضوئها سياستها في التوسع في آسيا الوسطى

ومن هذه النتائج دخول زراعة الكروم في الصين ، إذ جلبه الاغريق الى بخارى وسمرقند ، وقد كانت سياسة الصين في التوسع نحو الغرب موفقة ، فبعد أن حلت الهزيمة بالهون Hun - وهم قوم من الرعاة الاشداء احتلوا منغوليا - استطاعت الصين ان تبسط نفوذها الذي وصل غريا الى واحات فرغانه ، كما بعثت الصين سفاراتها الى بارثيا Parthia وبخارى ، كما تبادلت معهما التجارة ، فأرسلت اليهما الذهب والحرير اللذين كانا غير معروفين في الغرب ، مقابل بعض الغلات المحلية وبخاصة خيول فرغانة الاثيرة لديهم

وهكذا اتصل الصينيون انفسهم بفضل اتباعهم سياسة توسعية بالشعوب الاسيوية التي كانت تقطن وراء الحاجز الفاصل الجبلى - الصحراوى - الذي

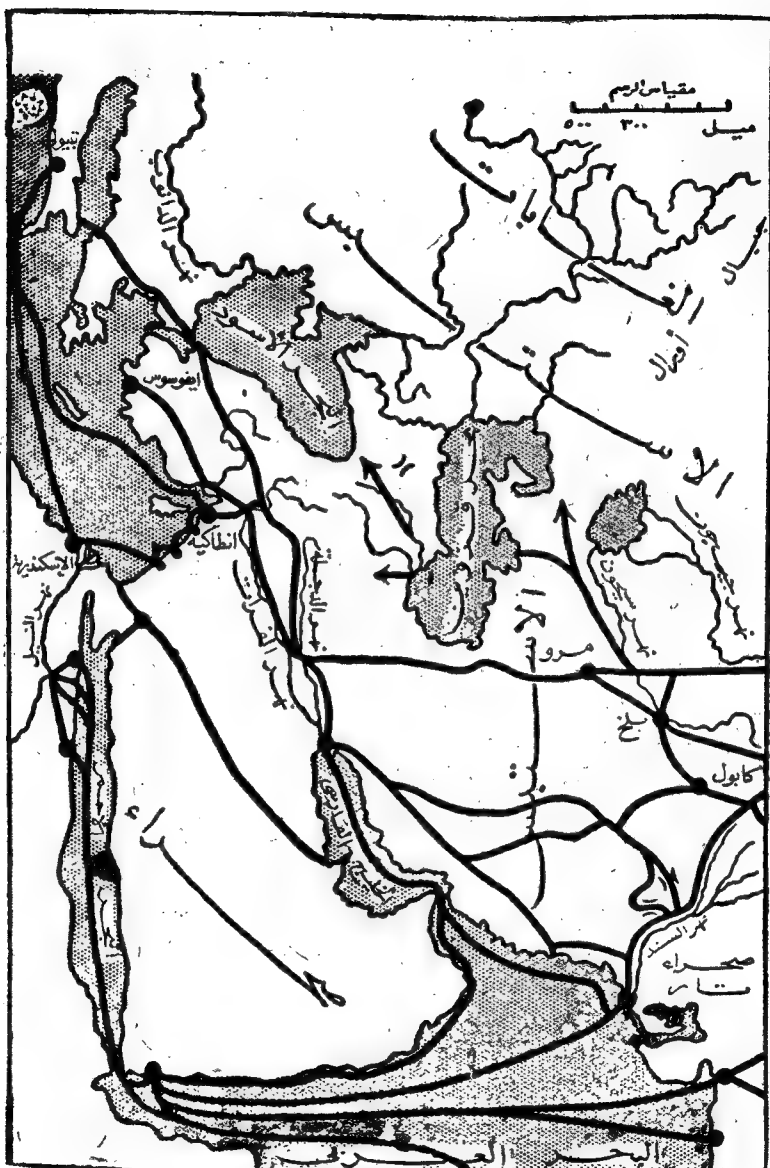
يتألف من حوض تاريم وتيان شان وهندكوش

وقد عرف الحرير وشاع استخدامه في العالم الاغريقي من بارثيا اثناء القرن الاول (قبل الميلاد) ، وكانت بارثيا دولة مستقلة تبسط رقعتها في هضبة ايران اى كانت تشغل موقعا يتيح لها فرصة القيام بدور الوساطة بين الصين وبلاد البحر المتوسط . وكان الطريق الذى يستخدم لنقل الحرير من الصين يتبع السفوح الشمالية لجبال نان - شان Nam Shan وجبال التين تاغ Altyn Tagh حتى بحيرة لوب نور ومن هناك يتابع السير عبر حوض تاريم (التركستان الصينية) الى كاشغر ملتزما السفوح الشمالية او الجنوبية لصحراء تكلامكان ، واخيرا يعبر هضبة بامير المرتفعة الى واحات فرغانه ليمر بمرور حتى يصل الى بارثيا (انظر شكلى ٥٨ و ٦١)

بلغت التجارة التى ازدهرت بين الامبراطورية الرومانية والصين ذروتها في القرن الثانى الميلادى ، وقد كان الطريق البرى الذى يمر ببارثيا اقل اهمية من الطرق التجارية البحرية وبخاصة الطرق التى تنتهى الى مصر (انظر شكل ٦٢) وكان الحرير من اهم المنتجات التى كان الطلب شديدا عليها من الصين ، وكان استيرادها يتم على نطاق يزداد اتساعا بفضل معونة الوسطاء من العرب والهنود والبارثيين والصينيين

وقد كان يسيطر على الجزء الغربى فقط من المسالك مباشرة المواطنون الرومان انفسهم وبخاصة الاغريق والسوريين واليهود ، كما اتاحت سيادة روما على البحر المتوسط ومصر والبحر الاحمر في آخر القرن الاول قبل الميلاد الظروف السياسية الملائمة لنمو التجارة مع الشرق وبخاصة عن طريق مصر - البحر الاحمر . ولم تكن روما اول من استخدم هذا الطريق ، فقد سبقها اليه حكام مصر من البطالمة ، كما اكتسب هذا الطريق المار بمصر اهمية جديدة بفضل الافادة من الرياح الموسمية التى جعلت الرحلة بين خليج عدن والهند سريعة

ولم تكن موانئ شبه جزيرة الهند تزود العالم الرومانى بمنتجاتها المحلية مثل البهار والمنسوجات القطنية والجواهر والذهب فحسب ، بل كانت تمدها ايضا بالحرير الصينى واللالى والعقاقير التى كانت تصل اليهم سالكة طرقا مختلفة اما بالبحر مباشرة او بالبر عن طريق المسالك البرية الطويلة الوعرة ، واما ان تعبر ممر خيبر لتصل الى وادى السند ، واما عن طريق التبت وسيكيم Sikkim الى باتنا Batna ومنها الى دلتا الجنج ، بل عن طريق برما وسيام الى الموانئ الواقعة عند مصبات ايراودى وسلوين



شكل (٦٢) خصر آسيا (بين الطرق الرومانية)

كان يتم التجهيز النهائي للسلع الحريرية أو تعاد صناعتها لاعدادها للسوق الرومانية في مدن مصر وسوريا وبخاصة في الاسكندرية وانطاكية اللتين كانتا تقعان عند نهاية الطرق البحرية . ووصل بعض الملاحين الرومان في القرن الثاني الميلادي فعلا الى الصين عن طريق البحر مباشرة وذلك بالدوران حول رأس كومورين Comorin في جنوب الهند والمرور خلال بوغاز ملقا ، وقد افادوا من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي حملتهم الى بحر الصين الجنوبي ، ثم هبطوا الى البر في هانوى في تونجكنج التي كانت تعد حينئذ جزءا من الصين ، ولم يستخدم الطريق البحري بين الهند والصين الذي كان مطروقا تتبعه السفن الصينية Junks والهندية Dhows لربط روما بالصين بطريق مباشر ، ويبدو ان الصين وروما لم تتبادلا السفارات وان كانت قد بذلت الصين من جانبها محاولة واحدة لتقيم علاقات دبلوماسية مع روما

اخذت العلاقات التجارية غير المباشرة بين روما والصين في التدهور والضعف حين تطرق الوهن الى قوة روما في القرن الثالث الميلادي وما تلاه من قرون . وقد قطعت مملكة اكسوم Axum الحبشية طريق البحر الاحمر حين غزت البلاد الواقعة على جانبى بوغاز باب المندب وخليج عدن حتى أصبحت قادرة على السيطرة على منفذ أو باب البحر الاحمر (انظر شكل ٦٢) ، وهكذا انتقلت تجارة الحرير الى ايدى الاحباش والفرس انذين ورثوا الامبراطورية البارثية سنة ٢٢٤ م حين خضعت لهم ، وظل الحرير يصل الى سوريا برا عن طريق كشغر ، ولكن أصبحت القسطنطينية حين انتقلت اليها عاصمة الامبراطورية الرومانية سنة ٣٣٠ م تمثل نهاية اخرى للطريق البرى

وقد أبرم اتفاق تجارى بين فارس واكسوم في اول القرن السادس الميلادي ، فاستطاعت فارس بفضلها ان تحتكر تجارة الحرير ، وارتفعت اسعاره في السوق الرومانية ، ولكن خفت وطأة هذه الظروف الحرجة فجأة حين ادخل بعض دود القز لاوريا لأول مرة ، فقد نقل الى القسطنطينية عدد من بيض فراشة الحرير الصينى Bombyx mori مخبأة في عصا من الخيزران سنة ٥٥٢ م ، وهكذا وقفت أوروبا على سر صناعة الحرير ، ذلك السر الذى كانت الصين حريصة على كتمانها فجنحت من ورائه مكاسب طائلة زمنا طويلا ، ومارست ممتلكات الرومان في سوريا وبلاد الاغريق الجنوبية تربية فراشة الحرير بنجاح (١)

وهكذا وجهت ضربة قاصمة الى احتكار الصين لانتاج الحرير ، فقد

استطاعت الامبراطورية الرومانية ان تسد حاجة مصانع الحرير في القسطنطينية من الحرير الخام ، الذى كانت تنتجه محليا دون حاجة الى الحصول على الحرير الصينى بفضل الزيادة السريعة فى انتاج الحرير فى سوريا واليونان ، وقد ذاعت شهرة هذه المصانع فى انتاج المنسوجات الحريرية الفاخرة التى كانت تتضمن الصنف « القرمزى » الامبراطورى نفسه

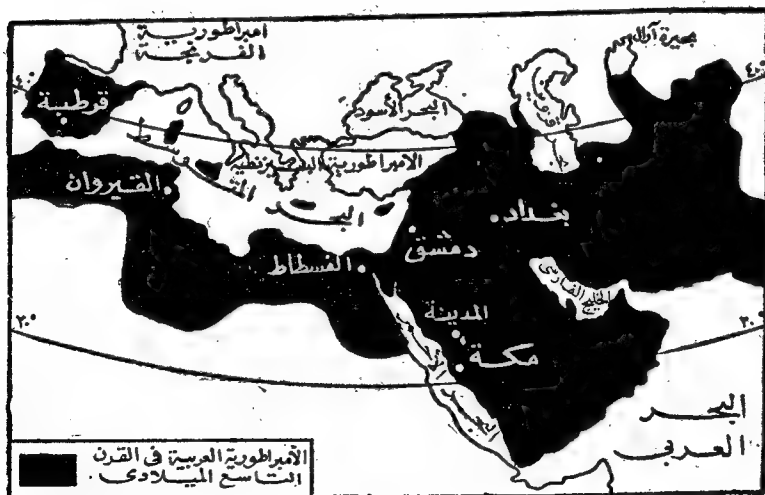


انقطعت العلاقات تماما بين اوربا المسيحية والصين لمدة ستة قرون تقريبا عقب القرن السادس الميلادى ، حتى اصبحت لا تعرف عن الصين ولا تذكر الا القليل ، ولتفسير ذلك عدة اسباب هى : ان الاحوال السياسية كانت مضطربة فى اوربا والصين وآسيا الغربية والوسطى على السواء ، كما اصبحت ماتحتاج اليه اوربا من الحرير متوفرة وبخاصة فى اليونان ، فضلا على أن الخلافة العربية التى وصلت الى اقصى اتساعها فى القرن الثامن الميلادى وقفت كقوة معادية « غير مؤمنة » بين اوربا والشرق الاقصى ، لان اراضيها فى فارس ومصر وسوريا وحول بحر آرال كانت تعترض الطرق التى تمتد للشرق الاقصى (انظر شكل ٦٣) كما كان الانتراك السلاجقة - وهم شعب رعوى نزاع للحرب - قد بسطوا نفوذهم اثناء فترة طويلة من هذه الحقبة على مناطق واسعة فى آسيا الوسطى والغربية

وأصبح من الممكن بعد قيام الامبراطورية المغولية العظيمة فى القرن الثالث عشر الميلادى التى ارتبطت باسم جنكيز خان واسرته - ان ينشأ الاتصال البرى المباشر مع الصين ، فقد خرج فرسان المغول يتدفقون خارجين من موطنهم فى الاستبس المغولية ليسيظروا على مناطق اوسع مما خضع لحكم الصينيين خلال العصور ، اذ وقع فى قبضتهم الصين نفسها وكوريا وآسيا الوسطى وفارس بل وروسيا (انظر شكل ٦٤) ، بل هددت جحافل المغول اوربا نفسها فتقدمت جيوشهم لتغزو بولنده والمجر وسيليزيا ، وان لم يستطيعوا ان يسيطروا على هذه البلاد المتطرفة سيطرة تامة ، فكانت حدود امبراطوريتهم تنتهى بحق عند الاطراف الغربية لنطاق الاستبس الاوراسية

وقد اعتمدت خانات الكبرى Great Khanate كما كانت تسمى الامبراطورية المغولية . . فى تماسكها ووحدتها على الاتصال بواسطة الخيل ، وعلى قوافل الخيول وسيلة للنقل والمواصلات . ورغم أن هذه الامبراطورية كانت مقسمة الى عدد من الخانات التى كان يتوارث حكمها الابناء والاحفاد من نسل جنكيز خان ، فقد كان الاعتراف بسيادة الخان الاكبر عادة متبعة ، اتاحت استقرار النظام واستتباب الامن بين سواحل المحيط الهادى وسواحل البحر الاسود والخليج الفارسى ، فكانت الصين بفضل كثافة سكانها وثروتها الزراعية وانتشار مدنها وموانئها العديدة تمثل قلب الامبراطورية المغولية ،

منذ انتقلت العاصمة من متغوليا الى بيكين واكسنادو Xanadu (عام ١٢٦٤) ،
 بقي الخان وحاشيته الصيف في الاولى والشتاء في الاخرى

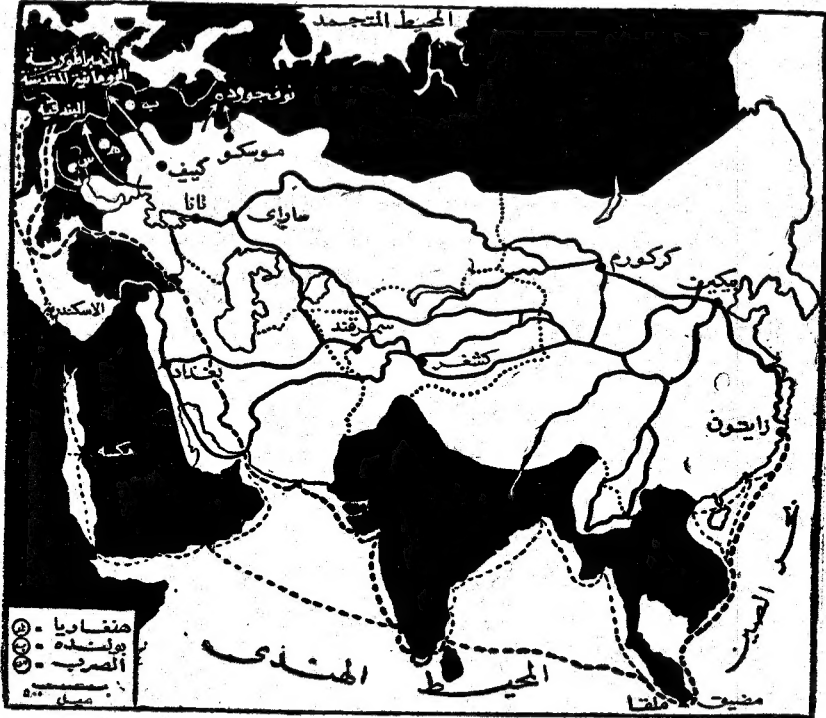


شكل (٦٣) الامبراطورية في أقصى اتساعها
(لاحظ أن هذه الأراضي المتسعة تعترض الطرق بين أوروبا والشرق الأقصى)

وهكذا كان امتداد سيادة المغول فاتحة عهد جديد في قصة العلاقات بين أوروبا والصين ، فقد كثر استخدام الطرق البرية الى جانب المسالك البحرية الى الخليج الفارسي (انظر شكل ٦٤) وأسس البنادقة واهل جنوه الفريق بعد الآخر أثناء القرن الثالث عشر ، محطات تجارية في شبه جزيرة القرم في الاطراف الغربية للطريق البري، كما قام التاجران نيكولو Nicolo ، مافيوبولو Maffea Polo من البندقية في هذا القرن أيضا برحلتها الى بيكين ، وحينما عادا بين ١٢٧١ ، ١٢٧٥ الى بلاط الخان الاكبر كان ماركوبولو Marco Polo ابن نيكولو في صحبتهما

وقد كان وصف ماركوبولو الذائع لآسيا الوسطى والصين ، ذلك الوصف الذى استمدده مما عرفه وشاهده أثناء اقامته نحو ١٧ سنة فى خدمة الخان الاكبر بها واضحا فى اذهان الاوربيين وان كان فى الوقت نفسه يصعب على الاوربيين أن يصدقوا ما ذكره عن عظمة الحضارة الصينية ونوعها ، وان كان يجمل بنا الا نفعل ان العالم الاسلامى تميزا له عن العالم المسيحى كان لديه دراسات مفصلة للصين وآسيا الوسطى قبل أن يقوم ماركوبولو برحلته بنحو ثلاثة قرون ، وقد استقرت بعثات التبشير المسيحية فى القرن الرابع عشر فى ييكين وزيتون Zayton (بالقرب من Amoy) فى جنوب الصين ، التى

أقام بها التجار من جنوه كما هو معروف
 وخلاصة القول ان أوروبا عادت لاماطة اللثام ولبصيص عن الصين مرة أخرى
 تلك البلاد التي كانت تدعى (سيرز Seres) قديما ، التي أصبحوا يعرفونها
 حينئذ باسم كاثاي Cathay ، ودب الانتعاش من جديد على تجارة الحرير
 التي عنت بالمصنوعات الجاهزة أكثر مما تناولت استيراد الحرير الخام ، كما



شكل (١٦٤) الطرق بين أوروبا والصين وامتداد امبراطورية المغول
 (تركت تلك الامبراطورية دون تظليل) حوالي ١٢٩٠ ..

يبدو ان الصين اسدت ايادى فى الفنون ، فقد عرفت أوروبا صناعة الورق من
 الاسمال من الصين عن طريق العالم العربى ، كما انه من الممكن ان تكون المانيا
 قد تلت من كوريا اختراع حروف المطبعة التى يمكن تحريكها (١) ، مما جعل
 من الممكن طبع الكتب على نطاق واسع فى منتصف القرن الخامس عشر
 ولنعرض لآخر فصول القصة الطويلة للعلاقات المتقطعة الواهية التى قامت

(١) للاطلاع على المناقشات بشأن هذه المسألة التى لم تسفر فيها الدراسة عن رأى قاطع -
 انظر ج. ف. هودسن G. F. Hudson كتاب Europe and China ١٩٣١ صفحات ١٦٥-١٦٨ -

بين أوروبا والصين . هه فظا . كشف الطرق البحرية التي تصل الى كاتاي ،
 قبل كان الدافع للاقدام على هذا النشاط البحري اقتصاديا في بعض نواحيه
 على الأقل ، وهو ~~بين الصينيين~~ ان يتحدوا ويقضوا على احتكار البندقية
~~والطرق البحرية القديمة~~ ومن الحوافز التي اضيفت الى السابق اغلاق احد
 الطرق البحرية القديمة مع الصين حين سقطت القسطنطينية في قبضة الاتراك
 العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، ففي سنة ١٥١٤ بعد أن هزم البرتغاليون العرب في
 المحيط الهندي وانتزعوا ملقا ، واصلوا رحلتهم حتى بلغوا الصين

وبعد فترة من الزمن سمح لهم ان يقيموا في كوانجنج Kwangtung
 عند مكاو Macao بالقرب من هنج كنج ، التي انتهى بها الامر اخيرا الى ان
 اصبحت من املاك البرتغاليين ولا زالت كذلك . ثم طفق الانجليز والهولنديون
 وغيرهم في البحث عن سلع الصين للاتجار بها سواء بطريق مباشر في موانئ
 الصين او في مراكز متوسطة في الملايو والهند الصينية

وقد كانت السلع من الحرير وعقار الروبارب Rhubarb والخزف الرقيق
 porcelain . ومصنوعات الخزف المطلي lacquer work والشاي
 بوجه خاص في القرن الثامن عشر هي المنتجات الرئيسية التي كانت تشتد الرغبة
 في الحصول عليها من الصين . ولكن كان لا يزال هناك طريق آخر للصين لم يكن
 قد كشف بعد ، وهو الذي يمر عبر المحيط الهادي العظيم ، فقد وصلت
 سفينة مجلان التي طافت حول العالم في خدمة المصالح الاسبانية بين ١٥١٩ -
 ١٥٢٢ بعد ان عبرت المحيط الهادي الى جزائر الفلبين التي تقع على عتبة
 عالم الصين ، ففي سنة ١٥٧١ خرج اسطول اسباني من المكسيك ليعبر
 المحيط الهادي واستولى على مانبلا بجزائر الفلبين ، وهكذا فتح طريق بحري
 جديد للشرق الاقصى بعد القيام برحلة صوب الغرب . . فبلغت اسبانيا الهدف
 الذي وقف كريستوف كولومبوس ازاءه حائرا

فهرس

صفحة

٥	تقديم
٦	مقدمة
	الفصل الاول:
١٠	الجغرافيا كوثيقة تاريخية
	الفصل الثاني:
٢٥	الموقع الجغرافي
	الفصل الثالث:
٤٢	المناخ والتاريخ
	الفصل الرابع:
٥٨	الطرق
	الفصل الخامس:
٧٩	المدن
	الفصل السادس:
١٠٥	التخوم والحدود
	الفصل السابع:
١٢٣	البيئة والاقتصاد
	الفصل الثامن:
١٣٨	فجر الحرية
	الفصل التاسع:
١٥٧	أوروبا والصين

طبع بمطابع دار الهلال